

إنصافاً لرسول الإنسانية سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم ، والرد على الغرب

بقلم

سليل قبائل الأنصار الخزرج

الأنصاري الخزرجي / أحمد عزوز الفرخ

الإسكندرية

977-17-5982-5

دار الكتب والوثائق القومية
إدارة الإيداع القانونى

رقم الإيداع ١٤٨٦٦/٢٠٠٨

إيصال

عن تسلم المصنفات والمطبوعات الموضحة بعد، والمقرر إيداعها بدار الكتب القومية تنفيذا للقانون رقم ٣٨ لسنة ١٩٩٢ والقرار الوزارى رقم ٤٥٢ لسنة ١٩٩٥.

اسم المودع وعنوانه : احمد عزوز احمد الفرج

عدد النسخ المودعة	عدد المجلدات المودعة	البيـــان
١	١٠	كلمة حق

تحريرا فى ٦ / ٧ / ٢٠٠٨

توقيع المستلم

نقطة نور:

رحم اللّه أناساً ..أحيوا الحق بذكره ..

وأماتوا الباطل .. بهجره

أحمد عزوز أحمد الفرخ

تقديم

الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين ، الذي علمنا ما لم نعلم ، وفضلنا على كثير من خلقه وعظم وكرم ، وهدانا لدينه وهداه ، ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ومن علينا بما شرع من دين الإسلام الحنيف وارتضاه ، وجعلنا من أمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، أشرف المرسلين ، سيد الأولين والآخرين ، وخير من وطأت قدميه الأرض.

أحمده حمد عبد مؤمن مخلص له الدين ، وأصلي وأسلم على رسوله الصادق الأمين، الذي أرسله رحمة للعالمين ، وأشهد أن لا اله إلا الله ، وحدة لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أن ما جاء به من عند الله هو الحق والصدق ، صلي الله عليه وعلى آله وأصحابه.

نبيّ وأستاذي ومعلمي وقدوتي وحبيبي وشفيعي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا برحمة الرحمن الرحيم وشفاعة الحبيب.

وكذا ، صلواتي وسلامي وتحياتي وقبلاتي وأشواقي وامتناني لأمهات المؤمنين حبيبات رسول الله كل واحدة باسمها ، ولاسيما الحبيبة الأولي ... أم الإسلام .. أمي وحبيبتي .. وحبيبة المسلمين والمسلمات ووزيرة رسول الله الأولي .. السيدة الفضلى .. سيدة نساء العالمين .. **السيدة / خديجة بنت خويلد رضي الله عنها** وعنهم جميعا وأيضا أبواي رحمهما الله رحمة واسعة شاملة مطلقة وجعلهم من المقربين ، وأولادي **أدهم** ، **عزوز** ، **عصام الدين** ، **خديجة** ، **جلنار** وأولادهم ، وذريتهم ، وذرية ذريتهم إلى يوم الدين.

فالحمد لله ، ثم الحمد لله ، ذي الجلال والإكرام ، والفضل والطول والمنن الجسام ، الذي هدانا للإسلام ، واسبغ على هذه الصفحات التي بين يديك – أيها القارئ الكريم – نتيجة منحة ربانية منه سبحانه وتعالي إلى كاتب هذه السطور ، استخلصتها للدفاع عن مثلي الأعلى وقدوتي عن الإنسان الأول ، راجيا أن تنفعني ، وتجعله يدافع عني ، وعن أبواي ، وأخواتي ، وأولادي ، وذريتي – كذلك – يوم احتاج إلى شفاعته لرب الشفاعة .

وأنا أكون من جلساؤه ، بل خادما وعبدا له ، لأم المؤمنين الأولي ، وأحظ بصحبة الأفاضل الأماثل من أمهات المؤمنين ، والصحابة ، والتابعين ، والصالحين ، كل ذلك يوم اللقاء.

وأرجو من الله سبحانه وتعالي العلي القدير أن يتقبل هذا العمل ويجعله في ميزان حسنات العبد لله.

{رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} صدق الله العظيم

بقلم / أحمد عزوز الفرخ

الإسكندرية

المقدمة

محمد عليه الصلاة والسلام

بهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه ، وتهتز له ملايين القلوب كل يوم مرات ومرات وهذه الشفاه والقلوب به تنطق وله تهتز ، منذ أربعمائة وألف وثلاثون سنة ، وبهذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه وتهتز ملايين القلوب إلي يوم الدين ، فإذا كان الفجر من كل يوم وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهاب المؤذن بالناس أن الصلاة خير من النوم ، ودعاهم إلي السجود لله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب له الألوف و الملايين في مختلف أنحاء المعمورة يحيون بالصلاة رحمة الله وفضله متجليين في مطلع كل نهار وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذن لصلاة الظهر ، ثم لصلاة العصر فالمغرب فالعشاء وفي كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمدا عبد الله ونبيه ورسوله عليه الصلاة والسلام في ضراعة وخشية وإنابة وهم فيما بين الصلوات الخمس ما يكادوا يسمعوا اسمه حتى تجف قلوبهم بذكر الله سبحانه وتعالى وبذكر مصطفاه صلى الله عليه وسلم .

كذلك كانوا وكذلك سيكونون ، حتى يظهر الله الدين القيم ويتم نعمة على الناس أجمعين ولابد لنا أن نعرف من هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه صلاة الله وسلامة وكذلك ملائكة وجميع المسلمين إلى يوم الدين.

ولا بد أن لنا أن نعرف من هو محمد رسول الله صلي عليه وسلم

بن

عبد الله بن عبد المطلب " شيبة " بن هاشم " عمرو " بن عبد مناف "المغيرة " بن قصي " زيد " بن كلاب " حكيم " وسمي كلاباً لأنه كان يبيع التمر - أي بائع التمر - بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر " قريش " بن مالك بن قيس " النضر " بن كنانة بن خزيمة بن مدركة " عامر " بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

" إن الله اصطفى كنانـــة من ولد إسمـاعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريـش بني هاشـــم ، واصطفـــاني من بني هاشم".

حديث شريف " صحيح مسلم"

وأيضا فهو محمد رسول الله صلي الله عليه وسلم أمه هي السيدة / آمنة بنت وهب بـن عبد مناف بن زهرة " - وهو الأخ الشقيق (لقصي بن كلاب) وأمهما هي فاطمة بنت سعد بن سيل - بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قيس بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[1]

- [1] هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.
- من قريش .. يتصل نسبه إلى عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.
- وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشية الزهرية .
- ولد بمكة ، يوم الاثنين 9 ربيع الأول سنة 53 ق.هـ الموافق 20 أبريل 571 م.
- وأرضعته بالبادية – حليمة السعدية ، من بني سعد بن بكر بن هوازن.. =

=● نشأ يتيما ، فلقد مات أبوه قبل أن يولد ، فاحتضنته أمه إلي أن توفيت ، وهو في السادسة من عمره – فكـفله جده

عبد المطلب، إلي أن مات ، وهو في الثامنة من عمره فكفله عمه أبو طالب..

- شب كامل العقل ، عالي الهمة ، صادقا ، أمنيا ، شجاعا ، فاضل الأخلاق ، حتى لقد لقبه قومه.. واشتهر.. بالصادق والأمين..
- اشتغل برعي الغنم حينا .. ثم بالتجارة ، وسافر إلي الشام في تجارة للسيدة خديجة بنت خويلد الاسدية القرشية..
- وفي الخامسة والعشرين من عمره تزوج من السيدة خديجة .. وانجب منها كل أولاده باستثناء إبراهيم .. الذي مات طفلا .. وظلت خديجة زوجته الوحيدة حتى توفيت ، وهو في الخمسين من عمره ، سنة 3 ق هـ ، فتعددت بعدها زوجاته.
- لم يعش بعده من أولاده ، وينجب سوي فاطمة ، التي تزوجت من على بن أبي طالب فكان نسلها من ولديها الحسن والحسين.. على حين توفي بقية أولاده في حياته – القاسم ، وعبد الله ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وإبراهيم.
- لم يعبد صنما منذ نشأ .. وكان يميلا إلى التأمل بحثا عن .. الحقيقة – ثم أخذ يخلو إلى نفسه شهر رمضان من كل عام ، في غار حراء، بمكة يتحنث " يتعبد " فيه تعبد الحنفاء ببقايا شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام..
- وبينما هو في الغار سنة 13 ق هـ سنة 610 م جاءه الوحي من الله بالنبوة والرسالة .. فاخذ يدعو المقربين منه إلى الإسلام ، سرا ، ثلاث سنوات .. فآمن به نفر قليل ، ثم جهر بالدعوة.
- نزل عليه القران منجما " مفرقا " – وكان كتبة الوحي يكتبونه ويحفظونه .. وهو معجزته التي تحدي بها قومه..
- أصابه الأذى مع أصحابه ، من مشركي قريش وملئها وأغنيائها فصبروا ، وحاصرته قريش ، مع أصحابه ، في شعب بني هاشم ، وقاطعوهم اقتصاديا واجتماعيا ، حتى كادوا أن يهلكوا جوعا .. فإذن لبعض أصحابه بالهجرة إلي الحبشة ، وأخذ يعرض نفسه ودعوته على القبائل ، طلبا الحماية والإيمان.
- ولما استجاب نفر من " يثرب " – " المدينة " – من الأوس والخزرج – لدعوة الإسلام ، تعاقدوا معه وبايعوه – عند العقبة– على تأسيس دولة الإسلام بالمدينة، فكانت هجرة أصحابه إليها،ودخلها مهاجرا يوم الاثنين 8 ربيع الأول سنة 1 هـ الموافق 20 سبتمبر 622 م..
- ولاحقته قريش ، في مهجرة ، بالعداء والعدوان .. فأذن الله له بالقتال ، فكانت غزواته الثمانية والعشرون .. وبها توحد العرب في دولتهم الإسلامية للمرة الأولي في التاريخ.. ودخل الناس في دين الله أفواجا..
- وفي سنة 10 هـ 632 م حج حجة الوداع ، وخطب فيها أطول خطبة ، التي تحدث فيها مقننا الحقوق المدينة وواجبات الدين والدينا..
- وفي يوم الأحد 12 ربيع الأول سنة 11 هـ 7 يونيو 632 م صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى ، بعد عمر بلغ – بالتقويم القمري – 63 عاما وثلاثة أيام – وبالتقويم الشمسي ، 61 عاما وثمانية وأربعين يوما.. وكان عدد صحابته يوم وفاته 124.000 صحابي.

. وصلي الله عليك وعلى أهلك

● كان خطيبا ، أوتي جوامع الكلم . إذا خطب " في نهي أو زجر " أحمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، كأنه منذر بقتال..وإذا خطب في الحرب اعتمد على قوس ، وإذا خطب في السلم اعتمد على عصا.
● وكان محدثا ، حلو المنطق ، في كلامه ترتيل وترسيل ، إذا تكلم تبسم.
● متواضعا ، يجلس ويأكل على الأرض ،يخيط ثوبه ويخصف نعله ، ويلبي دعوة الفقير والرقيق إلى خبز الشعير، ويجالس المساكين..
● وكان طويل الصمت ، قليل الضحك ، وإذا ضحك وضع يده على فمه .. يمزح قليلا ، ولا يقول إلا حقا ، وإذا مزح غض بصره ، شديد الحياء ، إذا صافحه أحد لا يترك يده حتى يكون المصافح هو الذي يترك يده.
● ضخم الرأس ، واليدين ، والقدمين ربعة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، واسع الجبين ، سبط الشعر (مرسلة) ، كث اللحية عظيم الفم ، في وجهه تدوير ، وميل إلى الحمرة ، في أسنانه تفليج وتفريق ، عيناه سوداوان ، يرسل شعره إلي أنصاف أذنيه ، أسمر اللون ، ضخم رؤوس العظام . يلبس قلنسوة بيضاء ويمسح رأسه ولحيته بالمسك ، إذا مشي لم يلتفت ، وإذا التفت التفت جميعا ، يتكفأ في مشيته كأنما ينحدر من علو، وإذا اهتم لأمر أكثر من مس لحيته.
● كان شجاعا بطلا ، إذا حمي وطيس الحرب احتمي به أصحابه ، وإذا اشتد باسها كان أقرب أصحابه إلي الأعداء.
● يكثر من مشورة أصحابه ، وإذا عزم على غزوة أخفاها ووري بغيرها...
● وصف نفسه فقال " أدبني ربي فأحسن تأديبي . أنا نبي الملحمة . ونبي المرحمة " ووصفته زوجه عائشة فقالت : " كان خلقه القرآن " ووصفه الله سبحانه في القرآن ، فقال : " وأنك لعلي خلق عظيم " صدق الله العظيم
● عندما اصطفي الله ،سبحانه وتعالي ، محمدا بن عبد الله ،نبيا ورسولا ، و عندما صدع محمد بأمر ربه ، فدعا الناس إلي التوحيد إلي الإيمان به نبيا ورسولا .. لم تكن هناك شبهة على " بشرية " محمد بن عبد الله ! فهو قد نشأ يتيما في الفرع الهاشمي من قبيلة قريش بمكة .. وهو قد شب الشباب الطيب المألوف من البشر المستقيمين .. ثم هو قد رعي الغنم حينا من الدهر .. ومارس التجارة حينا آخر ، كما كان يصنع أقرانه من البشر العاديين ، فليس في حياته هذه ما كان يثير أية شبهة حول " بشريته "، أو يلقي عليها الشكوك أو الظلال..
● ومع كل هذا فلقد وجدنا القرآن الكريم تجتهد آياته البينات لتؤكد على " بشرية " محمد ، ولتنفي أن يكون إلا " بشراً رسولا " ، وبشرا يوحي إليه ، من السماء بالنبأ العظيم!.فلم كان هذا التأكيد والإلحاح على قضية لم تكن محل خلاف ولا شبهة ولا جدال.. =
=● لإدراك السر ، الذي يجيب على هذا التساؤل .. لابد من النظر إلى رسالة محمد بن عبد الله " صلي الله عليه وسلم " في سياق ما تقدمها من رسالات نهض بها الرسل الذين سبقوه على درب اتصال السماء بالبشر لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .. وأيضا في ضوء كون الرسالة المحمدية ، هي الرسالة الخاتمة لطور النبوة والرسالة ، بما يعينه ذلك من بلوغ الإنسانية مرحلة " الرشد " ، التي تأهلت بها لأن توكل إلى "عقلها الراشد" تهتدي به .. كلما انحرفت أو ضلت.. إلي جادة الرسالة الخاتمة ، دونما حاجة إلى رسول جديد..
● ولقد كان هذا الطور الجديد الذي ارتقت إليه الإنسانية، "طور الرشد" هو الذي حدد الطابع الذي تميزت به " معجزة محمد " التي تحدي بها قومه . فجاءت لذلك :
●معجزة عقلية ..رغم أنها " نقل " و وحي " ، فهي لا تدهش العقل ولا تذهله ، وإنما هي تنضجه وترشده ، وتجعله مناط التكليف وتتخذه حكماً ، وحاكما في فقه مراميها واكتناه أسرار إعجازها ، واستخراج البراهين والأحكام ما ضمت من السور والآيات.
● وهي لهذا السبب ، خالدة خلود الرسالة الخاتمة ، لأن تأثيرها دائم الفعل والبرهنة ، فهي ليست سفينة نوح ، أو ناقة صالح ، أو عصا موسى ، أو إبراء عيسي للأكمة والأبرص .. إلي آخر المعجزات التي " أدهشت العقل " والتي وقف " إدهاشها " هذا عند حدود " الشهود ".
● ولأنها كانت التعبير عن بلوغ الإنسانية طور " رشدها ".. وعن اتساق طبيعة إعجازها ، مع هذا الطور الجديد.. وجدناها تولي اهتمامها لكثير من القضايا التي تدعم من عوامل " رشد الإنسانية "، والتي تزيل بقايا الشبهات والخرافات والمعتقدات الباقية من المراحل السابقة .. عندما كانت الإنسانية " خرافا ضالة " تحتاج إلى " الوصاية الدائمة ".. من قبل الرسل والأنبياء .. ولا تؤمن إلا إذا اندهش عقلها.. وهي مراحل كانت " عقول " الأكثرية فيها تأبي أن تصدق اتصال السماء بالأرض عن طريق " بشر " .. فكانت تنزع إلى " رسل – ملائكة " نزوعها إلى المعجزات " المدهشة للعقول "..

و زوجـاتك أمهات المؤمنين حبيبات رسول الله ، وأصحابك ، ومن سار على نهجهم إلي يوم الدين.

أمها : برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة.

جدتها لأمها: أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي.

ووالدة أم حبيب أي جدة "برة بنت عبد العزى ": برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

اسم جدة آمنة لأبيها " هي: قيلة بنت أبي كبشة وجز بن غالب الخزاعي.

ولم يكن "عبد الله بن عبد المطلب" - فتى بني هاشم- بين الذين تقدموا لخطبة " آمنة " - زهرة قريش - مع أنه الجدير بأن يحظى بيدها دونـهم جميعاً ، فما كان فيـهم من يدانيه شرفاً ورفعة وفتوة.

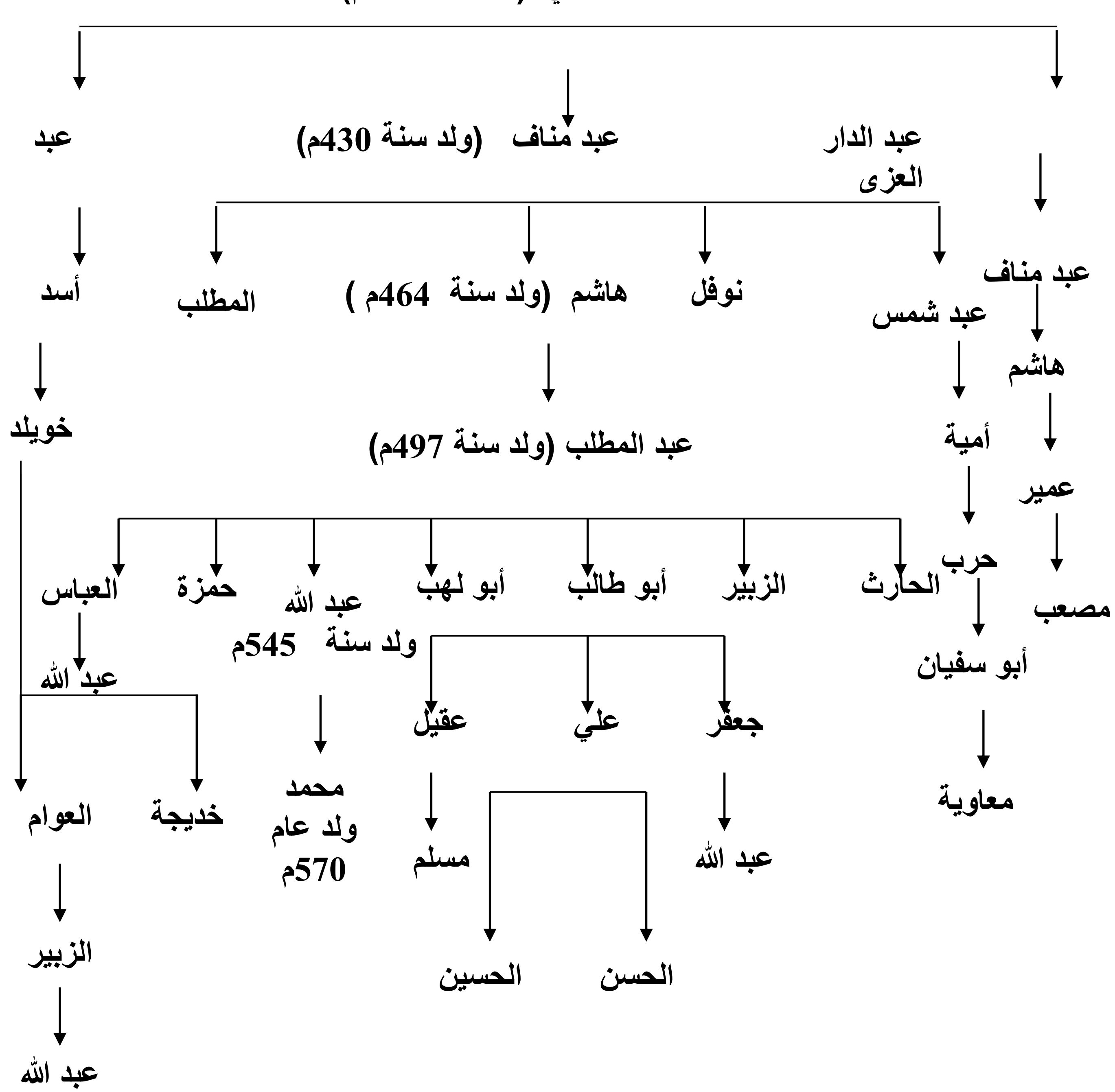
أبوه: " عبد المطلب بن هاشم " " وفيه العمود والشرف ، ولم يبقى لهاشم عقب إلا منه ، وقد شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطرة فيهم".

وأمه : فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قيس بن كنانة خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان...من صميم البيت القرشي وقد أنجبت لعبد المطلب : الزبير، أبا طالب ، عبد الله ، وأم حكيم البيضاء - توأمة عبد الله - وعاتكة ، وبرة ، وأميمة ، وأروى.

وجدة "عبد الله" لأبيه: " سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج " أجداد ورهط كاتب هذه السطور الأنصاري الخزرجي أحمد عزوز أحمد محمد مصطفى الفرخ " لأن سلمى بنت عمرو التي كانت لا تنكح الرجال ، لشرفها في قومها ، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلاً فارقته".

وجدته لأمه : " تخمر بنت عبد بن قصي بن كلاب بن مرة ".

وأمها: " سلمى بنت عامرة بن عميرة بن وديعة بن الحارث بن فهر ".


قصي (ولد سنة 400م)
عبد العزى
عبد مناف (ولد سنة 430م)
عبد الدار
عبد مناف
هاشم
عمير
مصعب
عبد شمس
أمية
حرب
أبو سفيان
معاوية
نوفل
هاشم (ولد سنة 464م)
المطلب
أسد
خويلد
عبد المطلب (ولد سنة 497م)
الحارث
الزبير
أبو طالب
أبو لهب
عبد الله
ولد سنة 545م
حمزة
العباس
عبد الله
جعفر
علي
عقيل
عبد الله
مسلم
الحسن
الحسين
محمد
ولد عام 570م
خديجة
العوام
الزبير
عبد الله

ولد عليه الصلاة والسلام في يوم الاثنين لاثنا عشر ليال خلون من شهر ربيع الأول عام الفيل.وكانت مكة ،

حين ذاعت فيها بشري المولد ، قريبة عهد باحتفال النصر على أصحاب الفيل ، فرأي القوم في مولد " محمد " حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم اختير أبوه للنحر ، ثم افتدى بالإبل المائة [2]

---

[2] إن الذين كذبوا نوحا ، عليه السلام ، وقد أنكروا واستنكروا " جدارة البشر أن يكون رسولا " ؟! (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا يتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين) " المؤمنون 23 ، 24 " وكذلك صنع قوم عاد مع رسولهم " هود " عليه السلام (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة واترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا ألا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما يشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) " المؤمنون 33 ، 34 أما " ثمود " الذين أرسل الله إليهم " صالحا "، عليه السلام ، فانهم مع إنكارهم " جدارة البشر بالرسالة " قد طلبوا " الآية "المعجزة التي "تدهش العقول" (كذبت ثمود المرسلين إذا قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين) " الشعراء 141 – 143 لكنهم كذبوه و(قالوا : إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين) " سورة الشعراء الآية 153 – 154

فلما جاءتهم " الآية – المعجزة " " المدهشة للعقل " – وهي الناقة " استمروا على تكذيبهم وكفرهم استنكارا منهم أن يكون بشر رسولا! (فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر) " القمر 24 .

وعلى هذا الدرب – درب استنكار " جدارة البشر بالرسالة " سار " أصحاب الأيكة " – أهل مدين – عندما بعث الله إليهم " شعيبا " عليه السلام..(إذ قال لهم شعيب ألا تتقون : أني لكم رسول أمين) " الشعراء : 177 ، 178 " لكنهم كذبوه ، مستنكرين جدارته ، كبشر ، بالرسالة.. (قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين) " الشعراء 185 – 186 ثم طلبوا منه – كما طلبت " عاد " من " صالح " " الآية – المعجزة " التي تدهش العقل وتذهله (فاسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) " الشعراء 187

ولقد تحدث المسيح عيسي ابن مريم عليه السلام ، عن حال بني إسرائيل، عندما أرسله الله إليهم ، فقال عنهم إنهم خراف ضالة.. ولقد جاءهم عيسي بالمعجزات التي " تدهش العقول ".. من مثل إحياء الموتى ، وإبراء الاكمه والأبرص.. فلم يؤمنوا به .. بل أن الحواريين الذين آمنوا به قد سجلوا ، هم الآخرون – ورغم إيمانهم به – ملامح ذلك الطور الأولي في سلم التطور لعقلانية البشر ، عندما طلبوا هم الآخرون ، من عيسي ابن مريم الآية المعجزة التي تدهش العقول! إذا طلب الحواريون من عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتظمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسي ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك ارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله أني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحد من العالمين) " المائدة : 112 – 115 " ولذلك.. فعلي الرغم من أن دعوة عيسي ، عليه السلام ، كانت (أن اعبدوا الله ربي وربكم) " المائدة 117 " إلا أن قوما قد ضلوا فيه ، فاستعظموا أن تظهر هذه " الآيات – المعجزات " التي " تدهش العقل " على يد " بشر " فاتخذوه وأمه إلهين من دون الله ؟! تلك كانت مسيرة الإنسانية مع رسالات السماء..

فتعبيرا عن قصور هذه الإنسانية في " الرشد العقلاني " كان استنكار الأكثرية " جدارة البشر " بالنبوة والرسالة والنزوع إلى أن تكون " معجزة " الرسول مما " يدهش العقل " ولا يحتكم إليه ؟ ولهذا رأينا القرآن الكريم – وهو المعجزة العقلية الخالدة للرسالة الخاتمة – يلح معالجا بقايا هذه الفكرية الجاهلية على بشرية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ولعلن ويؤكد :

- جدارة البشر بالاصطفاء الإلهي نبيا ورسولا..
- واستحالة أن يكون النبي و الرسول إلا بشراً يوحي إليه.
- وانتهاء الطور الساذج من المسيرة التطورية للإنسان ، والذي كانت تناسبه " الآيات – المعجزات " التي " تدهش العقل " .. فلقد أخلي هذا الطور المكان لطور بلغت فيه الإنسانية " رشدها " .. وإذا كان الإسلام هو الرسالة الخاتمة ، وبها ارتفعت الوصاية عن الإنسان ، فلابد وأن يلعب " العقل " دورا قائدا في " رشد " هذا الإنسان وفي " إرشاده ".. ومن ثم فإن " طبيعة الإعجاز " في معجزة محمد لابد أن تختلف عن طبيعتها في معجزات الرسل السابقين .. أنها لن " تدهش العقل " بل ستتخذه حكما وحاكما ؟ أنعم لقد وقف هذا السبب خلف إلحاح القرآن الكريم على " بشرية " محمد بن عبد الله .. رغم أن هذه " البشرية " لم تكن موضع خلاف ولا موطن شبهات .. فمن العرب من ردد مقولة الأمم السابقة (وأسروا النجوي الذين ظلموا هل هذا

وبلغ من غبطة البيت الهاشمي بالمولود العزيز أن " ثويبة الأسلمية " جارية عمه " عبد العزى بن عبد المطلب " – أبي لهب – لم تكد توافي سيدها ببشري المولد حتى أعتقها ، ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته رؤية دوره في الحرب الدامية التي قدر لقريش أن تصلاها بعد أربعين عاما ، عندما جاءها الهاشمي اليتيم ، برسالة الإسلام.

وفيه ، وفي امرأته ، نزل قوله تعالي : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ {1} مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ {2} سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ {3} وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ {4} فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ {5}﴾

فيقال : إن (العباس بن عبد المطلب) رأي أخاه " أبا لهب " بعد موته بسنة ، فسأله عن حالة ، فأجاب أبو لهب : في النار ، إلا أن العذاب خفف عني كل ليلة اثنين ، بماء أمصه من بين إصبعي هاتين ، وذلك أني أعتقت " ثويبة " حين بشرتني بولادة النبي صلي الله عليه وسلم.

إلا بشر مثلكم) " الأنبياء 3 " بل وطلبوا ما طلبته تلك الأمم ،(فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) " الأنبياء 5 " وأما هذا "المنطق الجاهلي " .. الذي وقف بأصحابه عند " جاهلية الإنسانية ".. توالت آيات القرآن تكشف زيف هذا " المنطق " فالتكذيب والعناد والجحود هو سبب الكفر ، وليس الافتقار إلى " الآية – المعجزة " .. " المدهشة للعقل "، وذلك بدليل أن مجي معجزات الرسل السابقين على هذا النحو لم تحول قومهم من الكفر إلى الإيمان (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم =يؤمنون) " الأنبياء 6 " كما أن الرسل كانوا دائما ، بشرا يأتيهم وحي السماء (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا توحي إليهم فأسالوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) " الأنبياء 7 ،8 ".

= وبلوغ الإنسانية " طور الرشد " قد أذن بختام " طور النبوة والرسالة ، " الأمر الذي أفسح " للعقل الإنساني " مكانا عاليا في " ترشيده " الإنسان " وهدايته "، ولذلك كله اختلفت " طبيعة الإعجاز " في معجزة محمد ، عليه الصلاة والسلام..(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون يمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبي أكثر الناس إلا كفروا ، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار حلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقي في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقروؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشر رسولا).

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدي إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا .. قل لو كان في الأرض ملائكة يشمون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) " الإسراء: 88 – 95 ولقد كان القرآن الكريم ، بهذا المنطق ، يقطع الطريق على كل المحاولات التي يمكن أن تظهر من ضعاف العقول، وضعاف الإيمان " بالعقل " ، لتشكك في "بشرية" الرسول صلى الله عليه وسلم (قل إنما انا بشر مثلكم يوحي إلي إنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحد) " الكهف 110 فهذا التأكيد على " بشرية " الرسول صلى الله عليه وسلم وثيق الصلة بالتأكيد على ضرورة أن تبقي عقيدة التوحيد " في التصور الإسلامي ، محتفظة بنقائها الشديد .. وفي هذا الضوء ، وجب ويجب على العقل المسلم أن ينظر إلى كل " القصص " و" أخبار الآحاد " التي نسبت وتنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم " الخوارق المادية " " المدهشة للعقول " ، والتي هي من جنس معجزات الرسل الذين سبقت رسالتهم رسالة الإسلام ،عندما لم تكن البشرية قد بلغت سن الرشد الذي أذنت به رسالة الإسلام ؟! وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول، محذرا أمته من استعارة سذاجة الأمم التي سبقت ،والسير على نهجها في الانحراف عن " الرقي والبساطة اللتين تميزت بهما عقائد الإسلام "لتتعبن سنن من كان قبلكم شبرا بشير وذراعا بذارع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه"..؟! رواه البخاري ومسلم وابن ماجه والإمام أحمد.

حقيقة تميز طبيعة السلطة في الدولة الإسلامية ، حتى في عهد البطولة ودولة رسول الله صلى الله عليه وسلم – بالمدينة المنورة – تميزها " بالمدنية " ذات المرجعية " الدينية " كانت هذه الدولة دولة " المؤسسات "...

ففي بيعة العقبة (سنة 1 ق هـ - سنة 621 م) – التي مثلت الجمعية التأسيسية لهذه الدولة – ولدت بالاختيار والانتخاب ، أولي المؤسسات الدستورية في هذه الدولة – مؤسسة " النقباء الأثنا عشر " الذين تابعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأسيس هذه الدولة .. ولدت هذه المؤسسة – بالاختبار والانتخاب – عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجمهور المؤسسين – وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين : " اختاروا منكم اثني عشر نقيبا " فكانت هذه المؤسسة الدستورية ، الممثلة والقائدة للأنصار .. ولقد ضمت من قيادات الأنصار :

1- أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس (1هـ - 622 م)
2- سعد بن الربيع (3هـ - 625 م).
3- عبد الله بن رواحة (8هـ - 629 م).
4- رافع بن مالك بن العجلان (3هـ - 622 م).
5- البراءة بن معرور (1 هـ - 622 م).
6- عبد الله بن عمرو بن حرام (3هـ - 625 م).
7- سعد بن عبادة بن دليم (14 هـ - 635 م) الجد الأكبر لكاتب هذه السطور....الأنصاري الخزرجي /أحمد عزوز أحمد محمد مصطفى الفرخ
8- المنذر بن عمرو بن حنيس (4 هـ - 625 م).
9- عبادة بن الصامت (38 ق هـ - 34 هـ - 586 – 654 م).
10-أسيد بن حضير (20 هـ - 641 م).
11-سعيد بن خثيمة بن الحارث (2 هـ - 624 م).
12-رفاعة بن عبد المنذر (المتوفى في خلافة على بن أبي طالب).

ومع مؤسسة النقباء الاثني عشر .. هذه كانت هناك مؤسسة " المهاجرين الأولين " التي ضمت العشرة ، الذين مثلوا قيادات بطون قبيلة قريش.. والذين سبقوا إلى الإسلام .. وهم

1- أبو بكر الصديق (51 ق هـ - 13 هـ 573 – 634 م).
2- عمر بن الخطاب (40 ق هـ - 23 هـ 584 – 644 م).
3- عثمان بن عفان (47 ق هـ - 35 هـ 577 – 656 م).
4- على بن أبي طالب (23 ق هـ - 40 هـ 600 – 661 م).
5- أبو عبيدة بن الجراح (40 ق هـ 18 هـ 584 – 639 م).
6- الزبير بن العوام (28 ق هـ 36 هـ 596 – 656 م).
7- طلحة بن عبيد الله (28 ق هـ - 36 هـ 596 – 656 م).
8- سعد بن أبي وقاص (23 ق هـ - 55 هـ 600 – 675 م).

9- عبد الرحمن بن عوف (44 ق هـ - 32 هـ 580 – 644 م).
10-سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (22 ق هـ 51 هـ 600 – 671 م).

ومع هاتين المؤسستين الدستوريتين كان هناك مجلس الشورى – مجلس السبعين – والذي كان يجتمع بمسجد النبوة ، بمكان محدد ، وفي أوقات محددة ، لتعرض عليه شئون الدولة والمجتمع ، والتقارير الواردة من أقاليم دولة الخلافة.

" فالدولة " -في الخلافة الإسلامية- تختارها " الأمة " وتراقبها .. وتحاسبها .. وتعزلها عند الاقتضاء.. وهذه الدولة " منفذة ومطبقة للشريعة ، وليست محتكرة لها، وسلطة الأمة – في الاجتهاد والتقنين والرقابة والمحاسبة – تمارس وتتم بواسطة المؤسسات ، التي تجتهد في إطار الشريعة الإلهية ، قياما بطريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون
(آل عمران : 104)

وإذا كانت هذه الدولة – دولة الخلافة الإسلامية – قد جري عليها ما يجري على النظم والأمم والحضارات ، من صعود وهبوط .. وتقدم وتخلف .. وازدهار وانحطاط .. وانتشار وانكماش .. وقوة ضعف، وكمال ونقصان.

وإذا كانت قد عرفت عصور الخلافة الكاملة ، وعصورا الخلافة الناقصة.. وفترات ازدهار المؤسسات الشورية ، ومراحل الملك العضود .. فلقد ظلت هذه الخلافة الإسلامية لأكثر من ثلاثة عشر قرنا أي حتى إلغائها في 22 رجب سنة 1342 هـ 3 مارس سنة 1924م – محققة للمقاصد الإسلامية الكبرى التي تغياها الإسلام وأمته من ورائها ظلت النظام الإسلامي المحقق ل:-

◉ وحدة الأمة الإسلامية ، التي هي فريضة دينية " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون " (الأنبياء : 92) وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون " (المؤمنون : 52) " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا " (آل عمران 103) " وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم " (الأنفال : 63) مع قيام سنة التنوع والتمايز بين شعوب هذه الأمة لإسلامية الواحدة

◉◉ ووحدة دار الإسلام - مع تنوع الأقاليم والأوطان في إطار وحدة هذه الدار – فلم تعرف دار الإسلام ، في ظل دولة الخلافة الإسلامية . حتى في فترات الضعف وتعدد الإمارات والسلطنات – "نظام الجنسية"- الذي ظهر في الدول القومية الأوروبية - أي لم تعرف دار الإسلام الحدود والسدود التي تجزئها ، وتحول دون حرية الحركة لمواطنيها – المسلمين منهم وغير المسلمين- فكان لكل مواطن حرية الحركة والإقامة والعيش في أي وطن من أوطان هذه الدار – دار الإسلام – لا يعوقه عائق ، ولا يطلب منه " تأشيرة " دخول أو إقامة أو خروج .. له حرية الحركة والإقامة والعمل والعيش أين شاء وفي أي وقت يشاء، مع خضوعه لفقه الإقليم الذي يستقر فيه ..

حتى لقد حققت الخلافة الإسلامية – في هذا الميدان – " الأممية " الحقيقية .. بينما وقف قوم عند عصبية الإقليم .. ووقف آخرون عند عصبية القوم.. ومن تحدث – من هؤلاء الآخرين – عن " الأممية " وقف بها عند الطبقة الاجتماعية لا يعدوها...

ولقد ظلت هذه الأممية الإسلامية – أممية الأمة.. والوطن – حاكمة ومرعية طوال تاريخ هذه الخلافة - أي حتى أربعينيات القرن الرابع عشر الهجري – عشرينيات القرن العشرين الميلادي .. ويشهد على هذه الأممية أسماء العائلات والأقاليم في بلد كمصر – الشامي والمقدس والحلبي والطرابلسي والتركي والازميرلي والعراقي والبصري والنجفي والموصلي والأصفهاني والبخاري والتركستاني والكردي والارنئوطي واليمني والضالعي والخليلي والملكي والمدني والحجازي والبيجاوي والجزائري والمراكشي والتونسي والمرسي والتكروي الخ الخ الخ.

وهكذا جسدت الخلافة الإسلامية- على أرض الواقع المعيش – الأممية الحقيقية التي جاء بها الإسلام دين الله الواحد إلى كل العالمين

ولن يمضي وقت طويل ، بعد المولد – أربعون سنة – حتى يقف التاريخ ليستعيد ذكرى تلك الليلة الخالدة على الدهر ، ويبدأ بها كتابة عصر جديد للعرب والإنسانية كلها ، حتى تمتلئ الجزيرة بأخبار ومرويات عن اللحظة المباركة التي وضعت فيها " السيدة آمنة " ولدها ، وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الأجيال حتى تصل إلينا ، وقد أضافت إليها الليالي والأيام جديدا من رؤي المحبين ، ومواجد العاشقين وملهمات الشعراء.

وكلما دار عام القمر دورته ، لشهر ربيع الأول ، أصفي الزمان في ذكري تلك الليلة الميمونة ، إلي هتاف المسلمين في مختلف بقاع الأرض ، ويرتلون قصة " المولد"

ويترنمون بما تمثله الوجدان المؤمن ، لما حف به من خوارق وغرائب

"زيدت السماء حفظا ، وود عنها المردة ، وذو النفوس الشيطانية ، ورجمت الجن وتدلت إليه صلى الله عليه وسلم الأنجم الزهرية ، واستنارت بنورها وهاد الحرم ورباه وخرج معه صلى الله عليه وسلم نور أضاء قصور الشام القيصرية ، فرآها من بطاح مكة داره ومغناه ، وانصدع الإيوان بالمدائن الكسروية ، الذي رفع أنوشروان سمكة وسواه ، وسقطت أربع وعشر من شرفاته العلوية ، وكسر سرير الملك كسري لهول ما أصابه وعراه ، وخمدت النيران المعبودة بالممالك الفارسية ، لطلوع بدره المنير ومحياه ..... "

ويشدو الشاعر أمير الشعراء أحمد شوقي ، من وحي الذكري الغراء لمولد ذلك اليتيم الخالد هذه الأبيات:

بك بشر اللّه السماء فزيـــنت

وتضوعت مسكا بك الغبراء

يوم يتيه على الزمان صباحه ومساؤه بمحمد وضاء

ذعرت عروش الظالمين فزلزلت وعلت على تيجانهم أصداء

والنار خاوية الجوانب حولهم خمدت ذوائبها وغاض الماء

والآي تترى ، والخوارق جمة جبريل رواح بها غداء !

وفي أفراح الاحتفال بمولد " ابن عبد الله " لم تنس " قريش " أن تسأل شيخها " عبد المطلب " : لم عدل عن أسماء آبائه وسمي حفيده محمدا؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعا فيهم في الجاهلية ، وإنما ظهر قبيل المبعث وقد تقصي أبو جعفر بن حبيب البغدادي النسابة (المسمين بمحمد لما كان بلغهم أنه يبعث في العرب نبي يقال له : محمد ، فجعل الله النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم وهم ستة لا سابع لهم ، سماهم بأسمائهم ، ثلاثة منهم ذكرهم السهيلي بمزيد تفصيل

قال :" لا يعرف في العرب من تسمي بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة ، طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، وبقرب زمانه ، وأنه يبعث في الحجاز أن يكون ولدا لهم .. وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع – جد الفرزدق الشاعر – ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ... ومحمد بن حمران بن ربيعة ، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا فنذر إن ولد له ذكر أن يسميه محمدا ......"[3]

وعقد القاضي عياض في (الشفا) فصلا في أسمائه صلى الله عليه وسلم ، قال فيه :" وأما محمد ، فإن الله تعالي حمي أن يسمي به قبل زمانه أحد من العرب ، ولا من غيرهم ، إلي أن شاع قبيل وجوده وميلاده صلى الله عليه

[3] المحبر : 130 الروض الأنف : 1 / 182 ، وانظر طبقات ابن سعد (ذكر من تسمى في الجاهلية بمحمد ، رجاء أن تدركه النبوة ، للذي كان من خبرها) 1 /169

وسلم أن نبيا يبعث اسمه محمد ، قد قرب إبان مولده ، فسمي قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يـكون أحـدهم ،
والله أعلم حيث يجعل رسالته "

" وقال أبو جعفر ، محمد بن حبيب : وهم ستة لا سابع لهم : محمد بن سفيان بن مجاشع ، جد الفرزدق الشاعر ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي ، ومحمد بن حمران الجعفي ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى – ولد بعد المصطفي وقبل المبعث – ومحمد بن براء البكري ومحمد بن خزاعي السلمي ، لا سابع لهم ".[4]

سألت " قريش " شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب : أردت أن يكون محمودا في الأرض وفي السماء..

ونقل السهيلي رؤيا لعبد المطلب ، ذكرها على القيرواني في كتاب البستان :رأي كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء وطرف في الأرض ، ثم عادت كأنها شجرة،على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها ، فقصها فعبرت له بمولود من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض (الروض82/1) وهذه الرؤيا ، نقلها ابن سيد الناس في عيون الأثر(1 /30) من طريق أبي الربيع سالم ، الكلاعي صاحب الاكتفا

ويعلق "بودلي" على تلك الإجابة قائلا :"....... أيا كان السبب ، فقد أصبح اسم الطفل محمدا ، وتسمي به ملايين الأطفال الذين ولدوا بعد الدين الجديد الذي قدر لابن "آمنة" من عبد الله ، أن ينشره على العالمين ......"

وكان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم شابا قرشيا هاشميا عريق الأصل طيب المنبت ، أبوه " عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي " الذي وعت " مكة " قصة افتدائه من النحر وفاء بنذر أبيه[5] ، وهي قصة مثيرة أحيت ذكرى الذبيح الأول " إسماعيل بن إبراهيم " جد العرب العدنانية ، وأمه " آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب " أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا

وقد أمضى أعوامه الأولي في بادية بني سعد ، فتركت هذه التربية البدوية طابعها الخاص في شخصيته ، وأكسبته صحة الجسم والنفس ، وصلابة

---

[4] المحبر : 130 الروض الشفا: 1 / 145 ، وانظر في النويري 76/16 ، وانظر عيون الأثر 31/1

[5] ابن هشام : السيرة النبوية 160/1 ، الحلبي : وانظر مبحث الفداء بتفصيل في كتاب أم النبي صلى الله عليه وسلم مع طبقات ابن سعد 150/1

الخلق وفصاحة اللسان[6] كما أكسبته حياته اليتيمة الكادحة من بعد ذلك ، قوة احتمال وشعورا مبكرا بالمسئولية ، وجاءت رحلة صباه مع عمه إلي الشام فوسعت من أفقه وزودته بعض خبرة بالدنيا والناس ، فكان – في إبان شبابه – الرجل الناضج الجلد الصبور ، تلمح في شخصيته آثار البادية ، وفي سلوكه تهذيب الحياة والسلوك لجيرة الحرم : مثابة الحجاج ، ومنزل قبيلة تتولى المناصب الدينية والزعامة في العرب ، ولها رحلتا صيف وشتاء ، كما تلح في عقله تجارب الحياة الجادة العاملة ، وفي خلقه شمائل هاشمي قرشي ، لم يفسده الفراغ والمال ، ولم يصبه الترف بآفات النعومة واللين.

وقد كان " شابا وسيما ، معرب الملامح ، أزهر اللون ، ربعة في الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، مبسوط الجبين ، مرسل الذقن ، عالي العتق ، عريض الصدر ، غليظ الكفين والقدمين ، يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، وتتألق أسنانه المفلجة البيضاء إذا تكلم أو ابتسم "[7]

" وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه إلي الأمام ، ويحسن الإصغاء ملتفتا إلي محدثه بكل جسمه ، لطيف المحضر ، يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه ، فإذا غضب لم يخنه حلمه ، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين ، ومن أثر الغضب "

وقد وصف الإمام " على بن أبي طالب " – كرم الله وجهه – لابن عمه الذي عاش معه طويلا في بيت أبي طالب ، ثم انتقل معه صبيا بعد أن غادر هذا البيت وتزوج السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، قال : " .... وهو أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفي الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ...."

۞ ومن رأى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في المنام فهي بشارة الرائي بحسب العاقبة في دينه ودنياه.

ومعه ، حديث لأم معبد الخزاعية " عاتكة بنت خالد " قالت تصفه صلى الله عليه وسلم ، وقد رأته في هجرته قبل أن تعرفه

---

[6] لم يفتني أن العرب هنا عموماً قد احتفظوا بسلامة ألسنتهم ، قبل اختلاطهم بالشعوب بعد الفتوحات الإسلامية ، ولكن يبقى للبادية مع هذا نقاء عربيتها نسبياً بالقياس إلى بيئة مكة التي عرفت الاختلاط قبل الإسلام ، بحكم مركزها الديني والتجاري.

[7] الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الثالث ص 185 ، وانظر معه كتاب الفضائل من صحيح مسلم : باب صفته صلة الله عليه وسلم 4 / 1818 وعيون الأثر 1 / 188

" رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ..... وسيم قسيم ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره وطف ، وفي عنقه سطع ، وفي صوته صحل وفي لحيته كثاثة ، أزج أقرن ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر .. ربعة ، لا لا بائن من طول ولا تقتحمه عين من قصر ... له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا ، لقوله وأن أمر تبادورا إلي أمره ... "

وحياة " محمد صلى الله عليه وسلم" في بيته ، تبدو رائعة في إنسانيتها ، فقد كان يؤثر أن يعيش بين أزواجه رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان ، ولم يحاول – إلا في حالات الضرورة القصوى – أن يفرض على نسائه شخصية النبي لا غير ، ونحن اليوم نقرأ ما وعي التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية ، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجداني ، ولا الجمود العاطفي ، وما ذاك إلا لأنه صلى الله عليه وسلم كان سوى الفطرة ، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالا ، وينحين عنها كل ظل من ظلال الركود والفتور والجفاف[8].

الإمبراطورية الإسلامية الأولي

ولم يكن محمد في حاجة إلي زمان طويل ليظهر دينه وينشر في الخافقين لوائه . فقد أكمل الله للمسلمين دينهم قبيل وفاته ، ويومئذ وضع هو خطة انتشار الدين . فبعث إلي كسري وإلي هرقل وإلي غيرهما من الملوك والأمراء كي يسلموا. ولم تمض خمسون ومائة سنة من بعد ذلك حتى كان علم الإسلام خفاقا من الأندلس في غرب أوربا إلي الهند وإلي التركستان وإلي الصين في شرق آسيا ، وبذلك وصلت الشام والعراق وفارس وأفغانستان ، وقد أسلمت كلها ما بين بلاد العرب ومملكة ابن السماء ، كما وصلت مصر وبرقة وتونس والجزائر ومراكش ما بين أوربا وأفريقيا ومبعث محمد عليه السلام . ومن يومئذ إلي يومنا هذا بقي علم الإسلام مرفرفا على هذه الربوع جميعا ، خلا الأندلس التي أغارت النصرانية عليها فعذبت أهلها وأذاقتهم ألوانا من الشدة والبأس . ولم يطق أهلها صبرا على الحياة ، فعاد منهم من عاد إلي أفريقيا ، ورد الهول والفزع من ارتد منهم عن دينه ودين أبيه إلي دين العتاه والمعذبين.

---

[8] في كتاب السمط الثمين للمحب الطبري ، حديث طويل عن رعايته صلى الله عليه وسلم لزوجاته ، وسمره معهم ، وصبره عليهن ، ص 8-11

وعلى أن ما خسره الإسلام في الأندلس من غرب أوربا كان له عنه العوض حين فتح العثمانيون القسطنطينية ومكنوا لدين محمد فيها. هنالك امتدت كلمته إلي البلقان كلها ، وانبلج نوره في روسيا وفي بولونيا ، وخفقت أعلامه على أضعاف ما كانت تخفق عليه من أرض أسبانيا . ومن يوم انتشر الإسلام في صولته الأولي إلي يومنا لم تتغلب عليه من الأديان متغلب ، وأن تغلب على محوه من شدائد الظلم وألوان التحكم ما جعلها أشد بالله إيمانا ولحكمه إسلاماً ، وفي رحمته وفي غفرانه أملا ورجاء.

ما من باحث يتعرض لسيرة نبي الأمة ، سواء كان مؤرخا أو رجل دين أو اجتماع .. إلا ويذهله الأثر العظيم الذي أحدثه في التاريخ ومازال يحدثه

محمد عليه الصلاة والسلام شبيه بالوجود ، وجد العلماء ، منذ أشرقت الأرض بنوره ، يتلمسون نواحي العظمة الإنسانية فيه ، ومع أنهم استطاعوا الوصول إلي شيء من المعرفة ، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة ، وأمامهم جهاد طويل وطريق لا نهاية له.

....أن هذا الاسم العظيم....


محمد
صلى الله عليه وسلم

ليس علما على شخص ، ولد في عام معين وفي بلد بعينه ، بل هو آية من آيات الوجود السارية ، في الأزمنة والأمكنة على تواليها وتغيرها ، فما يختص به عصر دون عصر ، وما تنفرد به عاصمة دون أخرى ، لأنه أصبح عنوانا على المثل المدركة أو تلك التي تعيش في الخيال ويستهدفها كل باحث عن الكمال

إذا كان علماء الأخلاق يرون المثل الأعلى لونا من ألوان الوهم ، فإننا ندعوهم أن ينظروا في سيرة هذا النبي الجليل ، ليدركوا أن المثل الأعلى : بل المثل العليا في الشجاعة والكرم والبر والصدق والأخلاق والصبر والكفاح ، تجمعت في مثال واحد ، نفخ الله فيه من روحه فجعله بشرا سويا ورسولا نبيا، ويوم تتعلق النفوس بهذا المثل الحي وتحاول التاسي به فإن العالم يكون قد اكتشف في عالم الأخلاق ، قوة أفعل من قوة الكهرباء في عالم المادة

أنه لعجيب أمر ، هذا النبي – لقد استطاع في أقصر مدة أن يصنع أعظم أمه تحولت بتعاليمه إلي معجزة بهرت الدينا ، وأهدتها أعز حضارة وأغلي تراث ، كانت في قافلة البشرية في مكان الريادة ، تزرع الخير في جنبات الأرض ، تفسح له الطريق ليأخذ مجراه بين الناس ، تعلي صوت الحق فتطارد المنكر وتجعل من كيانها ملجأ للأمن وحصنا للفضائل والأمان

إن أمة سادت بهذا المنهج النبوي في فترة طويلة من تاريخها ، لهي جديرة الآن بأن تعود لها السيادة والريادة ، إذا عاشت سيرة قائدها قولا وفعلا ، منهجا وسلوكا، وإذا اعتبرت الاحتفال السنوي بمولده الشريف نقطة انطلاق نحو المستقبل.

وكأني بالنبي القائد يهيب باتباعه ، وهم يواجهون تحديات شتي ، أن يدركوا دورهم في عالمهم المعاصر الذي لا يعترف إلا بالكيانات القوية القادرة ، وعالمهم الإسلامي ، لحسن الحظ يحفل بكل عناصر القوة ، من البشر إلي الثروة والعقيدة والتقدم العلمي ، ولا ينقص مسيرتهم سوى العمل الجاد في توحد استراتيجي صفا وهدفا.

ونحن نحيي الذكرى الكريمة في نفوسنا .. هل أن الآوان أن نطبق المنهج النبوي لإثراء حياتنا وتقدمها .. ؟!

الفصل الأول

ولكي نعرف المزيد والمزيد في الصراع بين الإسلام والمسيحية لا بد لنا أن نعرف ما هو المسيح عليه السلام.

أسماء عيسى عليه السلام

ثلاث أسماء : المسيح ، عيسى ، ابن مريم ، ما معني المسيح ؟ قد يكون الممسوح من الذنوب أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المسيح : المبارك. وليس هو الاسم ، والمسيح. وهو اللقب ، وابن مريم هو الكنية.

■ وقد ورد اسم سيدنا عيسى عليه السلام في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة.

■ ودين المسيح هو النصرانية نسبة إلى بلدة الناصرة بفلسطين ، وهي أول قرية علم بها المسيح فقال العرب : ناصري ونصراني ، وكان يدعى الناصري.

■ أما أول البلاد التي آمنت بالمسيح هي إنطاكية ، القدس ، الإسكندرية ، رومية ، القسطنطينية.

■ من رأى سيدنا عيسى عليه السلام فأنه رجل مبارك كثير الخير ، كثير السفر ،

صاحب نسك ويرضى بالقليل ويرزق معرفة الطب ومن رآه في مدينة أو جامع

وكان الناس في شدة أو بلاء فأنهم ناجون من ذلك لأنه روح الله ورحمته ،

وتدل رؤياه على العز والبركة أينما حل ، وإذا رآه المريض نجا وشفى .

والمرأة الحامل إذا رأت عيسى عليه السلام ربما ولدت غلاماً طبيباً.

■ أمه هي : مريم بنت عمران بن ماثان، ومعنى اسم مريم هي : العابدة

■ في قصة مريم بنت عمران ، التي ورد اسمها في القرآن الكريم أربعة وثلاثين موضعاً.

■

وعندما ذهب صحابة رسول الله صلي عليه وسلم إلي اليمن قال لهم أهل اليمن إنكم تقولون: إن مريم بنت عمران ، تقولون أنها أخت هارون ، مع أن بين موسى وعيسى مدة تبلغ أحد عشر جيلا ، {يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً }مريم28. فكيف يأتي هذا ؟ وعجز الصحابة عن الإجابة ، ولما عادوا قصوا القصة على رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فقال لهم النبي صلي الله عليه وسلم : " إلا أخبرتومهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحون قبلهم " أي أنهم كانوا يتفاءلون بأسماء الأنبياء ، فالمسألة تشابه في الأسماء فقط ، أنها بنت عمران ولكنه ليس عمران أبا موسى ، وأخت هارون وليس هارون أخا موسى عليه السلام. أما موسى عليه السلام فهو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام

■ وعمران هو ابن ماثان وهو من نسل سيدنا سليمان عليه السلام (وبالتحديد من نسل ملوك بني إسرائيل بعد سليمان عليه الصلاة و السلام حتى وفاة الملك أمون بن منشا في عام 646 ق.م. وبذلك تنقطع سلالتها الملكية على يد غزو بسماتيك الأول في عام 615 ق.م. الذي غزا إسرائيل لكي يعيد نفوذ مصر في غرب آسيا بعد أن طرد الآشوريين منها (محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الدولة الحديثة حتى الأسرة الحادية والثلاثين ، 640) ، وسليمان بن داود ، وداود ، من إيشا ، وإيشا من يهوذا ، ويهوذا من يعقوب ، ويعقوب من إسحاق ، وهو ابن أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقد جعل الله سبحانه وتعالي في ذريته الأنبياء وهم داود ، وسليمان ، وأيوب ،و يوسف ، وموسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيي ، وعيسى ، والياس وكذلك إسماعيل ونبينا محمد صلي الله عليه وسلم.

■ وأم مريم العذراء هي حنة : وكان سيدنا زكريا عليه السلام متزوجا من إشباع أخت مريم العذراء فهو زوج أخت مريم وهي حنة بنت فاقود بن قبيل أي جدة عيسى عليه السلام لأمه وهذا تحقيقاً لحديث الإسراء والمعراج الذي ذكر في البخاري " ....فإذا بابني الخالة يحيي وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بالخير.............". صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

■ كانت حنة زوجة عمران لا تلد وعندما حملت نذرت : أنه لئن نجاني الله ووضعت ما في بطني بسلام جعلته عتيقا خالصا لوجه الله تعالي محررا من رق الدنيا وأشغالها خادما للمعبد متفرغا لعبادة الله تعالي ، وهذا كان ينذر من الذكور دون الإناث ، ولما وضعت وعرفت أنها أنثى قالت لربها : إني وضعتها أنثى وسميتها مريم – ومعناه العابدة خادمة للرب- وأني أعيدها وذريتها من الشيطان بحفظك ، فاستجاب الله لها وقبلها قبولا حسنا وربها تربية كاملة ونشأة صالحة وجعل زكريا – زوج خالتها يكفلها للقيام بمصالحها إذا مبلغ النساء ، ظلت في الحراب تتعبد لله.

المسلمون وعيسى

على أن الإسلام حال بين المسلمين وبين الحط من مقام عيسى ، أنـه عبد الله آتـاه الكتـاب وجعلـه نبيـا ، وجعلـه مباركـا أينمـا كـان وأوصـاه بالصـلاة والزكـاة مادام حيا وبـرا بوالدتـه ولـم يجعلـه جبـارا شـقيا فسلام عليـه يـوم ولـد ويـوم يموت ويـوم يبعـث حيـا ، أمـا المسـيحيون فقـد جعـل الكثيـرون مـنهم يعرضـون بمحمـد وينعتونـه بأوصاف يبرأ منـها المـهذب من الرجال ، شفاء لما في نفوسهم من غل ، واسـتفزازا وحقـر لشـهوات النـاس الـدنيا وعلـى رغـم مـا يقـال مـن أن الحـروب الصـليبية وضعت أوزارهـا منـذ مئـات السـنين ظـل تعصب الكنيسـة المسيحية على محمد أشده إلي عصور قريبة ، ولعل كذلك ما يزال إن لـم يكـن أشد وإن كـان خفيـا يعمل فـي ظلمـات التبشير بالـدون من الوسـائل ، ولـم يقف الأمـر عنـد الكنيسـة بـل تعداها إلـي كتـاب وفلاسفة في أوربـا وفـي أمريكـا لـم تكـن تصـلهم بالكنيسـة صـلة تذكر.

والجواب من سؤالك أن بين الإسلام والنصرانية خلافا على مسائل أساسية كانت موضع جدل شديد في عهد النبي صلي الله عليه وسلم ، وأن لم يتعد الأمر الجدل إلي العداوة والبغضاء[9]

[9] على الرغم من تأسيس حركة الرهبنة على يد الراهب القرطاجني ترتليان (160-230م) Tertullian في عام 207م في أول القرن الثالث الميلادي الذي أعلن فيه ابتعاد المسيحيين عن الحياة الرومانية اللاهية العابثة المليئة بالخطايا والتحرر من الجسد فسر ماهية الثالوث المقدس الله الأب ، الله الابن ، الروح القدس ، فأضعف العقيدة عما قبل وغيبها في عالم كبير من الميتافيزيقيا. لأنه تأثر في صياغة مفاهيم مسيحية جديدة من مخلفات الحضارة اليونانية والرومانية لكي يفصلها عن اليهودية وهو بذلك أصبغ صبغة غربية على هذا الدين السماوي والتي لم تمحى حتى الآن. ومن هنا تطور التصوف المسيحي والذي بدأ به الأنبا بولا (251-356م) في مصر انتشاراً من قرطاجنة التي أضحت أكبر مركز للدراسات المسيحية في العالم في ذاك الوقت.

وهذه الرهبنة أيدت التصوف القائم على الإيمان لا العمل. لأن المسيحيون لم يكن لهم أي سلطة في عصر الأباطرة الرومان الذين يعذبونهم وأبعدوهم عن المدن فكانوا غير مجتمعين على كلمة لأن الدين ليس كلام ثابت من عند الله بل هي شروح فظهر الاتجاه الآرياني المضاد للفكر الجديد الذي ثبت دعائم المسيحية الترتليانية التي أكدت على مفهوم ابن الله في معناه الحقيقي كما أسلف ترتليان في عام 207م الذي نادى آريوس (250-337م) فيه أن المسيح ابن بالتبني أي المعنى رمزي وليس بالمعنى الحقيقي كما ظهر لأنه ولد ولم يكن موجود في البشرية فبذلك يكون المسيح ابن لله تسمية لا صفة وقد أسس هذه المدرسة في عام 319م التي هي امتداد للمدرسة الصوفية المسيحية القديمة منذ عهد السيد المسيح عليه السلام ولكن اجتمع الأساقفة في عام 325م في خلقدونية بتركيا. وأقروا بأن المسيح موجود وليس مولود كما يدعي آريوس منذ قديم الزمن على الرغم من أنه لا يوجد نص عندهم وذلك بفلسفة ترتليان الجديدة ، وكان هذا أول مجمع ديني بدأ فيه إعلان الضلال فيه للمسيحية بعد أن كانت متقربة إلى التصوف الإسلامي وابتعدت عن روحها الحقيقي بعد أن تقرب إليها الأباطرة الرومان وجعلوها دين رسمي للدولة بجانب الوثنية اليونانية والرومانية ولكي تتعايش تماشت مع الدين الرسمي ولكن حدث شيء غريب أن الإمبراطور قنسطنطين الثاني الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه في عام 337م تبنى هذا التيار الصوفي المتشدد لدي المسيحيين ولكن انقسم أتباعه فيما بعد عام 359م ما بين مؤيد للفكر الجديد وما بين مؤيد للفكر القديم حتى ما توفي. وأعلن الدين المسيحي الرسمي للدولة في عام 379م على يد ثيودسيسوس الأول الذي أعلن في عام 381م إلغاء الفكر الصوفي المسيحي القديم وأضحت المسيحية بالشكل الترتيلياني الجديد هو المؤثر في العالم الروماني وأعلنت المسيحية الثالوث المقدس. واعتقد أن القرآن الكريم آخر من تحدث عنهم في هذا الصدد هم أهل الكهف حيث يقول فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً{21} ونتعجب من كلمة مسجداً على الرغم من أنهم قبل الإسلام لكن هذا يؤكد أن المدرسة الآريانية آخر من تكلم عن المدرسة المسيحية الصحيحة ولكنها لم تمت و الإمبراطور قنسطنطين الثاني هو الذي قابل أهل الكهف - أصحاب سورة الكهف المكية بالقرآن الكريم- على أقرب الاحتمالات في عام 339م (وهذا رأي المؤرخ الفرنسي فيليب دو كومين Philippe de Comines في القرن الثالث عشر الميلادي) من الدليل القرآني المذكور في سورة يس الآيات 13-30 في قصة إنطاكية حيث رسل المسيح عليه السلام.

ثم أتى بيلاجيوس البريطاني Pelagues (354-418م) الذي رفض الفداء والصلب في عام 390م وقال أن المسيح لا يتحمل خطأ الجميع ، وأن القاعدة القائمة على الإيمان ليست كافية إنما العمل الصالح الضروري ، كما هو الحال عند اليهود ، ثم انتقل إلى الشام حيث المدرسة القديمة المنادية بذلك في عام 412م ،ولكن أعدم بعد ذلك في عام 418م عندما عادت المدرسة الغربية في قرطاجنة على يد الراهب أوغسطين Augstine وهو أحد تلامذة ترتليان تحارب ذلك . ومن بعده النساطرة في عام 428م وإن كان أقر بأنه ابن الإله ولكن كانت المجامع تنعقد لرفض أي فكرة تنادي بأن المسيح ليس ابن الله في الواقع العملي أي فكرة تبعد عن الفكر الترتيلياني.

وما من شك في أن الإسلام يقتضينا أن نرد عنه كيد الكائدين ،لا بالسباب والأباطيل كما صنع أعداؤه ، بل بالدرس ، والاحتكام إلي البحث العلمي ، والتدليل المبين ، الموازنات الكاشفة .

لا شك أن الإسلام يقتضينا أيضا أن نكشف عن بعض مزاياه ، ليستبين للجاهلين من أتباعه بعض ما في دينهم من سمو ، وحكمه ، وسماحة ، وصلاحية للتطبيق ، ومرونة في مسايرة الزمن ، فيشتد حرصهم على دينهم ، ويعظم اعتزازهم بتشريعه ، ويتسلحون بسلاح بتار يقضون به على ما يوجه إلي دينهم من أكاذيب وأباطيل.

فالنصرانية لا تقر بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام كما يقر الإسلام بنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام والنصرانية تقول بالتثليث ، والإسلام ينكر كل ما سوى التوحيد أشد الإنكار والنصارى يؤلهون عيسى ويتلمسون دليل ألوهيته في أنه تكلم في المهد وأوتي من المعجزات ما لم يؤته غيره مما هو من عمل الخالق جل شأنه وهم كانوا أيام الإسلام الأولي يحاجون المسلمين في ذلك بالقرآن ويقولون: أو ليس يقر القرآن الذي نزل على محمد

رأينا حين يقول :**﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** {45} **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ** {46} **قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** {47} **وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** {48} **وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** {49} **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾** {59} **سورة آل عمران**

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً {171} **لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً﴾**

{ 172} **سورة النساء**

فالقرآن قد ذكر إذا أنه يحي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين طيرا ، ويخبر بالغيب ، وكل هذه خصائص إلهيه ، هذا رأي نصارى عهد النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يحاجونه ويجادلونه ويذهبون إلي أن عيسى إله مع الله ، ولقد ذهبت طائفة منهم إلي تأليه مريم أن القي الله إليها بكلمته ، وكان أصحاب هذا الرأي ، من نصارى ذلك العهد ، يعتبرون مريم ثالث الثلاثة الأب ، الابن ، والروح القدس ، ولم يكن أصحاب هذا القول بألوهية عيسى وأمه إلا طائفة من طوائف النصرانية الكثيرة المتفرقة يومئذ شيعا وأحزابا

كان نصارى شبه الجزيرة العربية يجادلون محمدا على اختلاف نحلهم على أساس مذاهبهم فكانوا يقولون أن المسيح هو الله ، ويقولون هو ولد الله ، ويقولون هو ثالث ثلاثة وكان القائلون بألوهيته يحتجون بما سبق بيانه ، ويحتج القائلون بأنه ولد الله بأنه لم يكن له أب يعلم ، وأنه تكلم في المهد صبيا مما لم يقع لأحد من بني آدم ، ويحتج القائلون بأنه ثالث ثلاثة بأن الله يقول أمرنا وخلقنا وقضينا ، ولو كان واحداً لقال أمرت وخلقت وقضيت.

وكان محمد يستمع لهم جميعا ويجادلهم بالتي هي أحسن وهو لم يكن في جدالهم يشتد شدته في جدال المشتركين وعباد الأصنام ، بل كان يحاجهم بالوحي من طريق المنطق ومن كتبهم وما جاء فيها ، فالله تعالى يقول:

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {17} وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾{18}، سورة المائدة ، الآية 17، 18 ،

وقال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ {72} لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾{73} سورة المائدة ، الآية 72، 73 ،

وقال جل شأنه :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ {116} مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {117} إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ {118} سورة المائدة ، الآية 117، 118

تقول المسيحية بالتثليث وبأن عيسى ابن الله ، والإسلام ينكر إنكاراً صريحا باتا أن يكون لله ولد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ {4} سورة الإخلاص ، ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ سورة مريم الآية 35

والإسلام دين توحيد في اشد معاني التوحيد صفا وقوة ، وفي أشد معاني التوحيد بساطة ووضوحا ، وكل ما يمكن أن يلقي ظلالا على فكرة التوحيد أو صورته ينكره الإسلام ويراه كفرا . ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾ سورة النساء ، الآية {48}

فمهما يكن للصورة المسيحية في التثليث من صلة تاريخية ببعض الأديان القديمة فهي ليست من الحق عند محمد في شيء ، أن الحق هو الله وحده لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

فلا عجب إذا أن تكون بين محمد ونصارى عهده تلك المجادلة بالتي هي أحسن ، وان يؤيد الوحي محمدا بما تلوت من الآيات[1]

[1] قال الله تعالي " ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران ،{26}

إذن . فالملك لله وحده ولا يزول عنه أبدا ، وهو ليس محتاجا إلي ولد ليرث ملكه ، أو لأي غرض آخر ، والإنسان يحتاج إلي ولد ليعطيه العزة والقوة ، وهو في شبابه قوى بذاته ، وفي شيخوخته ضعيف بذاته قوي بأولاده ، ولذلك فهو يربه الولد ، فيكون له قوة عندما يضعف . والله سبحانه وتعالي هو القوى دائما الذي لا يضعف أبدا ، وهو جل جلاله دائم القوة ، ولذلك فهو لا يحتاج إلي ولد.

إذن .. فكل الأسباب التي تجعل الإنسان يريد ولدا هي لاستكمال نقص : نقص في العمر ، لأن الإنسان عمره محدود ، ونقص في الملك ، لأن الإنسان يترك ما يملك عندما يموت ، ونقص في القوة ، لأن الإنسان عندما يبلغ الكبر يضعف ويصبح محتاجا إلي من يهينه ويدافع عنه والله سبحانه وتعالي له الكمال والجلال كله منزه عن هذا النقص.

ثم كيف يتخذ الله ولدا ؟ إذا كان قد خلقه فهو من خلق الله ، وإذا كان لم يخلقه ولكن الابن خلق نفسه فإنه لا يصبح ابنا ولكنه يصبح إلها ، لأنه خلق نفسه وأوجد نفسه ، ومن هنا يصبح هناك إلهان وليس إله واحد ، أما أن يأتي الولد عن طريق أنثي ، فالله سبحانه وتعالي منزه عن ذلك ، لأنه خلق آدم بدون ذكر أو أنثى ، وأوجدت حواء بدون أنثى .. والأسباب مخلوقة لله سبحانه وتعالي ، ولذلك فإن طلاقة قدرة الخالق هي التي تحكمها ، فكيف نأتي ونجعل الأسباب تحكم خالقها ؟؟! وكيف نأتي إلي طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالي في أنه يفعل ما يشاء ، وأنه يقل للشيء كن فيكون ، ثم يفيد طلاقة القدرة بأنه يجب أن تكون هناك أنثى ليأتي الولد ، فكأننا نتقص من طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالي في كونه.

ثم من أين جاءت هذه الأنثى ؟ إذا كان الله سبحانه وتعالي قد خلقها فهي من خلق الله وعبادة ، وإذا كانت قد خلقت نفسها فكأنها إله ، وكل إله يريد أن يعلو على الآخر فتكون النتيجة كارثة.

مسألة صلب المسيح

ومسألة أخرى يختلف فيها الإسلام والنصرانية ، كانت مثار جدل بينهما في عهد النبي : تلك مسألة صلب عيسى ليفتدى بدمه خطايا الخلق . فالقران الكريم صريح في نفي أن اليهود قتلوا المسيح أو صلبوه إذا يقول:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً {157} بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ سورة النساء ، الآية {158}

ولئن كانت فكرة افتداء المسيح بدمه خطايا اخوته من بني آدم جميلة ، لا ريب ، ويستحق ما كتب فيها، دراسة من ناحية الشعرية ، والخلقية ، والنفسية ، لقد كان المبدأ الذي قرره الإسلام من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى وأن كل امرئ يوم القيامة مجزي بأعماله إن خيرا فخير إن شراً فشر، يجعل التقريب المنطقي بين العقديتين غير ممكن ، ويجعل منطق الإسلام من الدقة بحيث لا تجدي معه محاولات التوفيق مع التناقص الواضح بين فكرة الافتداء وفكرة الجزاء الذاتي ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ سورة لقمان الآية 33

وفي سورة المائدة يقول تعالي {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{73} أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{74} مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{75} ، وفي سورة المائدة كذلك يقول تعالي {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} (116) سورة المائدة. وسورة المائدة هي التي من بين آياتها الآية التي يحتج بها المؤرخون من النصارى ويتخذونها دليلا على تطور موقف محمد لتطور أحواله ، السياسية

إذ يقول تعالي {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} (82) **سورة المائدة** والآيات التي نزلت في سورة براءة تحدثت عن أهل الكتاب لم تتحدث عنهم في إيمانهم بالمسيح بن مريم وانما تحدثت عنهم في شركهم بالله وفي أكلهم أموال الناس بالباطل وفي كنزهم الذهب والفضة والإسلام يري ذلك خروجا من أهل الكتاب على دين عيسي يجعلهم يحلون ما حرم الله ويصنعون صنيع من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر وهو مع ذلك يجعل من إيمانهم بالله على الرغم من ذلك كله شفيعا لهم لا تجوز معه مساوتهم بالوثنين ويكفي معه أن هم أصروا على أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة وعلى يحلوا ما حرم الله أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

الحكمة في كون المسيح ولد من غير اب

لابد ان نعرف من السبب الذي من اجله ولد عيسي من غير أب ، فانه لابد أن يكون ذلك لحكمه يعلمها الله جلت قدرته ، وقد أشار إليها سبحانه في قوله تعالي كلماته ، ولنجعله آية للناس ورحمه منا ، كان أمرا مقضيا

وأن نتلمس تلك الآية الدالة في ولادة عيسي عليه السلام من غير أب فنجد انه يبدو أمام أنظارنا أمران جليان أحدهما : إن ولادة عيسي عليه السلام من غير أب تعلن قدره الله سبحانه وتعالي وانه الفاعل المختار المريد وانه سبحانه وتعالي لا يتقيد في تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي نري العالم يسير عليها في نظامه الذي أبدعه الله ، والذي خلقه ، فالأسباب الجارية لا تقيد إرادة الله ، لأنه خالقها ، وهو مبدعها ومريدها فإن الأشياء لم تصدر عن الله جلت قدرته كما يصدر الشيء عن علته والمسبب عن سببه ، ومن غير أن يكونون للعلة إرادة في معلولها بل كانت بفعله سبحانه وتعالي وبإرادته التي لا يقيدها شيء مهما يكن شانه ، وخلق عيسي من غير أب هو بلا ريب إعلان لهذه الإرادة الأزلية بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية وفي عصر سادة نوع من الفلسفة أساسها أن خلق الكون كان من مصدره الأول كالعلة عن معلولها فكان عيسي آية الله على انه سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية وإن العالم كان بارداته ولم يكن سبحانه بمنزلة العلة من المعلول تعالي الله عما يقولون علوا كبيرا.

الأمر الثاني : أن ولادة عيسي – المسيح عليه السلام من غير آب – إعلان لعالم الروح بين قوم أنكروها حتى لقد زعموا أن الإنسان جسم لا روح فيه ونه ليس إلا تلك الأعضاء والعناصر التي يتكون منها فلقد قيل عن اليهود انهم كانوا لا يعرفون الإنسان الا جسماً عضوياً ولا يقرون انه جسم وروح فقد قال رينان في بيان سبب الحقد الذي تغلغل في النفس اليهودية ، ولو كان الشعب الإسرائيلي يعرف التعاليم اليونانية التي كان من مقتضاها اعتبار الإنسان عنصرين مستقلين : أحدهما الروح والآخر الجسد ، وانه تعذبت الروح في هذه الحياة لأنها تستريح في الحياة الثانية ، لسري عنه شيء كثير من عذاب النفس واضطراب الفكر ، بسبب ذله وخضوعه ، مع ما كان يراه في نفسه من الامتياز الأدبي والديني من الشعوب التي كانت تذله.

يقرر رينان Renan في هذا أن اليهود ما كانوا يقولون كاليونان أن الإنسان روح جسم ولقد يؤيد هذا ما جاء في التوراة التي بأيديهم في تفسير النفس بأنها الدم فقد جاء فيها لا تأكلوا دم جسم ما ، لأن نفس كل جسد هي دمه ، إذن لم يكن اليهود يعرفون الروح على أنها شيء غير الجسم ، فلما جاء عيسي من غير أب وكان إيجاده بروح من خلق الله كما قال تعالي ، والتي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين كان ذلك الإيجاد الذي لم يكن العامل فيه سوى ملك من الأرواح نفخ في جيب مريم فكان الإنسان من غير بنوه الإنسان وجرثومته كان ذلك إعلاناً لعالم الروح بين قوم أنكروها ولم يعرفوها فكان هذا قارعة حسهم ليدركوا الروح وكان آية معلمة لمن لم يعرف الإنسان إلا على انه جسم لا روح فيه وهذه آية الله في عيسي وأمه عليهما السلام

وغاية ما أرجو أن أكون قد وفقت لما قصدت إليه من هذا البحث وان أكون قد مهدت به السبيل إلى مباحث في موضوعه اكثر استفاضة وعمقا ولقد بذلت من الجهد في ذلك ما وسعته طاقتي وما يسره الله لي.

لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا أن نسينا أو أخطائنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرون. (البقرة – الآية 286)

وبعد أن عرضنا القضايا للرسول صلى الله عليه طول حياته سنعرض لماهية الخلاف الديني الذي تحول إلى خلاف سياسي بينه وبين اليهود والمسيحيين فقد بدأ الخلاف عندما يئس اليهود من أن يحيدوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن حكومة المدينة المنورة بوصفه أول حاكم إسلامي في التاريخ وكان اليهود يطمعون في حكم المدينة قبل ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم فالآية 131 من سورة طه **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى** يقول الإمام السيوطي في لباب المنقول في أسباب النزول أن الرجل اليهودي لم يمد الرسول صلى الله عليه وسلم بالميرة لكي يبرهن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه النبي المذكور في كتبهم.

ولا يكتف النص القرآني في الطعن لليهود وعدم تحالفهم مع المسلمين وكان البداية قبل موضوع التحريف من قبلهم هو عدم القدسية التي أكدت فقد قال فيهم المولى عز وجل أنهم يشترون بآياته ثمناً قليلاً.... ثم يعرض القرآن في آياته لرفضهم فكرة الميثاق فيقولون أنهم ناجون من العذاب في الآخرة.

ويؤكد القرآن أنهم في حروبهم في الماضي كانوا يذكرون النبي صلى الله عليه وسلم ويستفتحون به القتال جلباً للنصر ، وعندما ظهر لهم اختلفوا فيما بينهم ثم يأتي بالآية الفاصلة في سورة البقرة وهي الآية 120 ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**﴾

ومن هنا أعلنت الحرب ما بين الرسول صلى الله عليه وسلم وما بين اليهود وكانت بعد موقعة بدر في شوال 2 هـ / إبريل عام 624م والتي ظلت مستمرة فيما بينهم وبينهم لمدة خمسة أعوام هجرية أجلوا منها إلى الشام بعد ذلك ، ولم يعد لهم أثر.

أما عن النصارى فقد تم حربهم بداية مع إرسال الوفود لهم إلى مصر والشام والدولة البيزنطية في ذي الحجة 6 هـ / إبريل عام 628م وهل فكر أحد من نصارى يومئذ في هذا الدين الجديد وفي إمكان التوفيق بين فكرة التوحيد فيه وبين ما جاء به عيسى ؟ نعم وآمن به منهم كثيرون ولكن الروم الذين اغتبط المسلمون بنصرهم واعتبروه نصرا للأديان الكتابية ، ولم يكلف سادتهم أنفسهم مؤونة البحث في الدين الجديد ، ولم يلبثوا أن نظروا إلي الأمر من ناحيته السياسية وفكروا فيما يصيب ملكهم إذا تم للدين الجديد الغلب . ولذلك بدءوا يأتمرون به بأهله ،

عندما قتل العرب المقيمين هنا الرسل المرسلة من قبل الرسول صلى الله عليه فقامت غزوة مؤتة الأولى في التاريخ الإسلامي الذي كان يقودها الصحابي الجليل زيد بن حارثة رضي الله عنه في جمادى الأول عام 8 هـ / سبتمبر عام 629م والتي فتحت الحرب مع الرومان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وظلت الحروب من وقتها حتى أرسلوا جيشا عرمرما عدته مائة ألف في رواية ومائتان ألف في رواية أخرى مما أدى إلي غزوة تبوك[11]

---

[1] غزوة تبوك في رجب سنة 9 هـ / أكتوبر 630م

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل ، لم يبق بعدها مجال الريبة والظن في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عند العرب ، ولذلك انقلب المجرى تماما ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ومن العدد الذي حضر في حجة الوداع - وانتهت والمتاعب الداخلية - واستراح المسلمون لتعليم شرائع الله ، وبث دعوة الإسلام

إلا أنه كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر ، وهي قوة الرومان – أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان – وكان بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمير الأزدي على يد شرحبيل بن عمرو الغساني ، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى عظيم بصري ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالرومان اصطداما عنيفا في موته – وقعت في جمادى الأولي سنة 8 هـ / سبتمبر عام 629م - ومؤته (بالضم فالسكون) هي قرية بأدني بلقاء الشام ، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان ولم تنجح في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين ، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب ، قريبهم وبعيدهم

ولم يكن قيصر ليصرف نظرة عما كان لمعركة مؤته من الاثر الكبير لصالح المسلمين ، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر ، ومواطأتهم للمسلمين ، إن هذا كان خطراً يتقدم ويخظو إلي حدوده خطوة بعد خطوة ، ويهدد الثغور الشامية التي تجاور العرب ، فكان يري أن القضاء يجب على قوة المسلمين قبل أن تتجسد في صورة خطر عظيم لا يمكن الفضاء عليها ، وقبل أن تثير القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة الرومان

ونظرا إلي هذه المصالح ، لم يقض قيصر بعد معركة مؤته سنة كاملة حتى أخذ يهيئ الجيش من الرومان والعرب التابعة من آل غسان وغيرهم ، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة

وكانت الأنباء تترامى إلي المدينة المنورة بإعداد الرومان ، للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين ، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين ، ولا يسمعون صوتا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان . ويظهر ذلك جليا مما وقع لعمر بن الخطاب ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم آلي من نسائه شهرا في هذه السنة 9 هـ وكان هجرهن واعتزل عنهن في مشربة له ، ولم يفطن الصحابة إلي حقيقة الأمر في بدايته ، فظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم طلقهن ، فسري فيهم الهم والحزن والقلق. يقول عمر بن الخطاب – وهو يروي هذه لقصة ، وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب كنت آتيه أنا بالخبر – وكانا يسكنان في عوالي المدينة ، يتناوبان إلي النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نتحوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب ، فقال : افتح ، افتح ، فقلت جاء الغساني ؟ فقال بل أشد من ذلك اعتزل رسول صلى الله عليه وسلم أزواجه.

وهذا يدل على خطورة الموقف ، الذي كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلي الرومان ، ويزيد ذلك تأكدا ما فعله المنافقون حينما نقلت إلي المدينة المنورة أخبار إعداد الرومان ، فبرغم ماراه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول صلى الله عليه وسلم في كل الميادين ، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ، بل يذيب كل ما يعترض في طريقة من عوائق برغم هذا كله – طفق هؤلاء المنافقون يأملون في تحقيق ما كانوا يخفون في صدورهم ، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله ، ونظرا إلي قرب تحقق آمالهم أنشئوا وكراً للدس والتآمر ، في صورة مسجد ، وهو مسجد الضرار ، أسسوه كفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله رسوله ، وعرضوا على رسول صلى الله عليه وسلم أن يصلي فيه ، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين فلا يفطنوا ما يؤتي به في هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم ، ولا يلتفتوا إلي من يرده ويصدر عنه ، فيصير وكراً مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم في الخارج ، ولكن رسول صلى الله عليه وسلم آخر الصلاة فيه – إلي فقوله من الغزوة لشغله بالجهاز للمعركة ، فشلوا في مرامهم وفضحهم الله

سبحانه وتعالي ، حتى قام الرسول صلى الله عليه وسلم بهدم المسجد بعد القفول من الغزو ، بدل أن يصلي فيه.

كانت هذه هي الأحوال والأخبار التي يواجهها ويتلقاها المسلمون ، إذا بلغهم من الأنباط الذين قدموا بالزيت من الشام إلي المدينة المنورة أن هرقل قد هيأ جيشا عرمرما ، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم ، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجذام وغيرهما من منتصرة العرب ، وأن مقدمتهم بلغت إلي البلقاء ، وبذلك تمثل أمام المسلمين خطر كبير.

والذي كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد ، وكان الناس في عسرة وجدب من البلاء وقلة من الظهر ، وكانت الثمار قد طابت ، فكانوا يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، يكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه ، ومع هذا كله كانت المسافة – 800 كيلو متر – والطريق وعرة وصعبة.

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينظرا إلي الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله ، وأنه كان يري أنه لو تواني وتكاسل عن غزو الرومان في هذه الظروف الحاسمة ، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه، وتزحف إلي المدينة المنورة كان له أسوا أثر على الدعوة الإسلامية وعلى سمعة المسلمين العسكرية، فالجاهلية التي تلفظ نفسها الأخير بعد مالقيت من الضربة القاصمة في حنين ستحيا مرة أخرى،والمنافقون الذين=

= يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويتصلون بملك الرومان بواسطة أبي عامر الفاسق سيبعجون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلق ، في حين نهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأيام ، وهكذا يخفق كثير من الجهود التي بذلها هو وأصحابه في نشر الإسلام ، وتذهب المكاسب التي حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متوصلة .. تذهب هذه المكاسب بغير جدوى

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعرف كل ذلك جيدا ، ولذلك قرر القيام – مع ما كان فيه من العسرة والشدة – بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان في حدودهم ، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلي دار الإسلام

ولما قرر الرسول صلى الله عليه وسلم الموقف أعلن في الصحابة أن يتجهزوا للقتال ، وبعث إلي القبائل من العرب وإلي أهل مكة المكرمة يستنفرهم . وكان قل ما يريد عزوة يعزوها إلا ورى بغيرها هي الغزوة الوحيدة في تاريخ غزوات قائد هذه الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أعلن عن وجهه فيها قبل سيرة إليه – ولكنه نظرا إلي خطورة الموقف وإلي شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان ، وجلي للناس أمرهم ، ليتأهبوا أهبة =

= كاملة ، وحضهم على الجهاد ، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على الجهاد ، وتحثهم على القتال ، ورغبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بذل الصدقات ، وإنفاق كرائم الأموال في سبيل الله

وتجهز الجيش ، فاستعمل رسول صلى الله عليه وسلم على المدينة المنورة محمد بن مسلمة الانصارى الأوسي ، وقيل سباع بن غرفطة ، وخلف على أهله على بن أبي طالب ، أمره بالإقامة فيهم ، وغمض عليه المنافقون ، فخرج فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرده إلي الدينة المنورة وقال : " إلا ترضي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا بني بعدي "

وتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك ، ولكن الجيش كان كبيرا – ثلاثون ألف مقاتل ، لم تخرج المسلمون في مثل هذا الجمع الكبير قبله قط – فلم يستطيع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزا كاملا ، بل كانت في الجيش قلة شديدة بالنسبة إلي الزاد والمراكب ، فكان ثمانية عشر رجلا يتعقبون بعيرا واحدا ، وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاهم ، واضطروا إلي ذبح البعير مع قلتها ليشربوا ما في كرشه من الماء ، ولذلك سمي هذا الجيش جيش العسرة.

نزل الجيش الإسلامي بتبوك ، معسكر هناك ، وهو مستعد للقاء العدو ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم خطيبا ، فخطب خطبة بليغة ، أتي بجوامع الكلم ، وحض على خير الدنيا والآخرة ، وحذر وأنذر ، وبشر وأبشر ، حتى رفع معنوياتهم ، جبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذهم الرعب ، فلم يجترئوا على التقدم واللقاء ، بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم ، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلي سمعة المسلمين العسكرية ، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية ، وحصل بذلك المسلون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة ، لعلهم لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين

وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه ، فانقلبت لصالح السلمين ، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية ، حتى لافت حدود الرومان مباشرة ، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلي حد كبير

ورجع القائد الأعلى للمسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش الإسلامي من تبوك مظفرين متصورين ، لم ينالوا كيداً، وكفي الله المؤمنين – كان الخروج من المدينة المنورة إلي غزوة تبوك

. وقد انسحب فيها الروم أمام المسلمين الذين خرجوا ومحمد صلى الله عليه وسلم على رأسهم لدفع عدوان لم يكن له ما يسوغه.

الروم والمسلمون

وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية والتي بدأت بعد ذلك بمواجهة حقيقية من المسلمين من المنحى السياسي والعسكري كما هو مؤكد بحثاً وتفصيلاً في موقعة العربة التي بدأ السيطرة فيها على فلسطين والأردن في صفر 13 هـ / إبريل عام 634م في عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ومن وقتها بدأت الحرب المنظمة من الإسلام ضد المسيحية حالف النصر فيها المسلمين قرونا متتالية ، امتدت إمبراطوريتهم في أثنائها إلي الأندلس غربا وإلي الهند والصين شرقا . وأمنت اكثر أجزاء هذه الإمبراطورية بالدين الجديد واستقرت فيها لغته العربية. تطورت هذه الحرب بعد ذلك إلى حرب شواتي وصوائف أي مناوشات عسكرية القليل منها اتخذ طابع الجدية في الحرب سواء كان في شرق أوروبا أو في غرب أوروبا ، وهذا بدأ منذ عهد الخليفة الأموي السابع سليمان بن عبد الملك بن مروان في عام 715م في المشروع الثاني لحصار القسطنطينية. والمشروع الآخر غزو فرنسا في أوائل الثلاثينات من القرن الثامن الميلادي ولم تقم محاولات بعد ذلك إلا الشواتي والصوائف. فلما أن لدورة التاريخ أن تدور ، طرد النصارى المسلمين من الأندلس ، حاربوهم الحروب الصليبية وأخذا يطعنون في دينهم ونبيهم طعنا كله فحش وكذب وافتراء ، ونسوا في فحشهم ما بلغ محمد عليه السلام في أحاديثه وما بلغ القرآن في الوحي الذي نزل عليه من رفع قام عيسي عليه السلام إلي المستوي الذي رفعه الله إليه.

كان في شدة الحر وفي أيام جداد التمر ، وكان رسول صلى الله عليه وسلم موجودا في المدينة المنورة في شهر شعبان من هذه السنة حين توقيت ابنته أم كلثوم ، والصحيح خلافا لبعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم ورجع للمدينة المنورة في شهر رجب ، وكان خروجه قبل ذلك بخمسين يوما أي في شهر جمادى الأولي ، أقام منها عشرين يوما في تبوك ، والبواقي قضاها في الطريق جيئة وذهوبا ، وكانت هذه الغزوة آخر غزواته صلى الله عليه وسلم.

الإسلام والمسيحية

هذه القوة التي انتشر الإسلام بها سرعان ما وفقته وجها لوجه أمام المسيحية وقفة نضال مستميت لقد تغلب محمد على الوثنية. ومحا من بلاد العرب كما محا خلفاؤه الأولون من بلاد الفرس والأفغان وطائفة كبيرة من بلاد الهند أثرها ، ولقد تغلب خلفاء محمد على المسيحية في الحيرة واليمن والشام ومصر إلي مهد المسيحية مدينة القسطنطينية. أفقدر على المسيحية ما قدر على الوثنية من اضمحلال وهي دين كتاب من الأديان التي أشاد بها محمد ونزل الوحي بنبوءة صاحبها؟ وهل قدر لهؤلاء العرب عرب البادية الزاحفين من شبه جزيرة الصحراء القاحلة أن يضعوا أيديهم على حدائق الأندلس وبيزنطة وسائر بلاد المسيحية ؟ الموت ولا هذا واستمر القتال بين اتباع عيسى واتباع محمد قرونا متتالية ، ولم يقف القتال عند حرب الأسنة والمدافع بل تعداها إلي ميادين الجدل والنضال الكلامي جاء المتقاتلون فيها بأسماء محمد وعيسى وجعل كل فريق يلتمس الوسيلة لتأليب الواد واستثارة حماسة الجماهير تعصبها.

ونعود ونناقش القضايا المطروحة في القرآن منذ عهد النبي محمد عليه الصلاة والسلام حتى قيام أكبر المحن التي مر بها القرآن وهي قضية خلق القرآن

تحرير القرآن في عهد النبي

فقد كانت الكتابة معروفة علي وجه عام بمكة المكرمة قبل نبوة محمد بزمن غير قليل . وكان النبي قد استعمل علي تحرير الكتب و الرسائل اكثر من واحد من أصحابه بالمدينة المنورة . وقد فك إسار الفقراء ومن اسري بدر مقابل قيامهم بتعليم أنصار المدينة الكتابة . ومع أن أهل المدينة لم يكونوا مثقفين ثقافة أهل مكة فقد عرفت مقدرة الكثيرين منهم علي الكتابة قبل الإسلام. ومن اليسير ، مع ثبوت هذه المقدرة علي الكتابة أن نستنبط غير مخطئين أن الآيات التي وعتها الذاكرة بدقة سجلتها بمثل هذه الدقة .

ثم أننا نعرف أن محمد كان يبعث إلى القبائل التي تدخل في الإسلام واحداً أو اكثر من أصحابه لتعليمهم القرآن الكريم وتفقيههم في الدين . و كثيرا ما نقرا أن هؤلاء المبعوثين كانوا يحملون معهم أوامر مكتوبة في شان الدين ولقد كانوا يحملون ما نزل به الوحي بطبيعة الحال، و خاصة ما اتصل منه بشعائر الإسلام و قواعده ، وما ينتمي منه أثناء العبادة . والقرآن نفسه علي وجدوه مكتوبا . وتنص كتب السيرة حين يذكر إسلام عمر بن الخطاب ، علي وجود نسخة من السورة المتممة للعشرين " سورة طه" في حيازة أخته و أسرتها ، وكان إسلام عمر قبل الهجرة بست سنوات فإذا كان الوحي يدون و يتناول في ذلك العصر الأول ، حين كان المسلمون قليلين وحين كانوا يسامون العذاب ، فمن المقطوع به أن النسخ المكتوبة كثر عددها و تداولها حين بلغ النبي أوج السلطة وحين صار كتابه قانون العرب جميعا.

الرجوع الي النبي عند الاختلاف

كذلك كان شان القرآن أثناء حياة النبي صلى الله عليه وسلم و كذلك كان شأنه إلى عام وفاته :بقي مسطورا في قلوب الذين آمنوا به مسجله أجزاؤه المختلفة في نسخ كانت تزداد كل يوم عددا . وكان لزاما أن يتطابق هذان المصدران تمام التطابق . فقد كان القرآن منظورا إليه ، حتى في حياة النبي صلي الله عليه وسلم برهبة اليقين بأنه كلام الله ذاته لذلك كان كل الخلاف علي نصه يرجع إلى النبي نفسه صلي الله عليه وسلم كي يزيله . ولدنيا أمثلة من ذلك ، إذا ارجع إلى النبي صلي الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب . فلما قبض النبي كان يرجع عند الخلاف إلى النصوص المكتوبة ، والي ذاكرة أصحاب النبي الاقربيين وكتاب وحيه. " وقد توفي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) والقرآن كله مكتوب ، لكنه غير مجموع في موضع واحد ، وكان مكتوبا على العسب واللخاف ومحفوظا في صدور الرجال ، ومع حفظه في الصحف وفي الصدور ، وكان جبريل عليه السلام يعرض القرآن على النبي صلي الله عليه وسلم عرض عليه مرتين[12] . ويحتمل أن النبي(صلي الله عليه وسلم) لم يجمع القرآن في مصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضي نزوله بوفاته (صلي الله عليه وسلم) ، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاء لوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية[13].

الجمع الاول للقرآن[14]

فلما فرغ خليفة المسلمين أبو بكر الصديق من أمر مسيلمة في حروب الردة [15] ،

كانت مذبحة اليمامة قد أتت علي كثير من المسلمين ومن بينهم عدد كبير من خير حفاظ القرآن . هناك ساورت عمر بن الخطاب المخاوف في أمر الكتاب ونصوصه وما ربما يعلق بها من ريبه إذا أصاب الحفاظ من اختزنوه في ذاكرتهم فماتوا جميعا.

---

12 البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، رقم 4998.

13 المدينة النبوية فجر الإسلام ، والعصر الراشدي ، ص 240 ، نقلاً عن فتح البارئ ، 9 /12 .

14 يبدو أن تسمية القرآن " بالمصحف" نشأت علي عهد أبي بكر الصديق رض الله عنه ، فقد اخرج ابن أشتة في كتاب " المصاحف" عن طريق موسى بن عقبه بن ابي شهاب قال : لما جمعوا القرآن فكتبوه علي الورق . قال أبو بكر : التمسوا له اسما . فقال بعضهم " السفر " قال ذلك اسم تسمية اليهود ، فكرهوا ذلك وقال بعضهم : " المصحف" فان الحبشة يسمون مثله. واجتمع رأيهم علي أن يسموه " المصحف" وبذلك صارت اللفظة عنوانا للقرآن في شكلها الجديد.

15 يعني وقعة يوم اليمامة ضد مسليمة الكذاب وأعوانه.

إذ ذاك توجه إلى الخليفة أبي بكر بقوله " اخشي أن يستحر[16] القتل كرة أخرى[17] بين حفاظ القرآن في غير اليمامة من المغازي وأن يضيع لذلك كثير منه ، والرأي عندي أن تسارع فتأمر بجمع القرآن " ـواقر أبو بكر هذا الرأي ، وأفضي برغبته في إنقاذه إلى زيد بن ثابت كبير كتاب النبي (صلي الله وعليه وسلم) وقال له : " انك رجل شاب عاقل ولا نتهمك[18] كنت تكتب الوحي لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه". قال زيد : فهو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل على مما كلفني به من جمع[19] القرآن ، فتتبعت القرآن من العسب[20] ، واللخاف[21] ، وصدور الرجال والرقاع[22] ، والأكتاف[23]

وقال : حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم " حتى خاتمة براءة ، وإذا كان هذا يعمل حدثا غير متوقع فقد اضطرب زيد بادي الأمر وضامره الريب في صلاحية الإقدام عليه بل في مشروعيته ، فلم يقم به محمد نفسه ولم يأمر أحدا بالقيام به ، علي انه انتهي إلى النزول علي ما ابدي أبو بكر و عمر من رغبة ملحة . وجهد في جمع السور و أجزائها من كل جانب ، وحتى لقد جمع ما كان منها علي ورق الشجر وعلي الحجر الأبيض وفي صدور الرجال ، ويضيف بعضهم انه جمع كذلك منها ما كان علي ورق وعلي الجلد وعلي عظام الكتف والضلع من الإبل والماعز . وظفرت جهود زيد المتصلة خلال سنتين أو ثلاث يجمع هذه المادة كلها ترتيبها علي نحو الذي هي عليه اليوم . وعلي النحو الذي كان يزيد يتلو عليه القرآن في حضرة محمد صلي الله عليهم وسلم فيما يقولون وكان جمع القرآن الكريم جاء نتيجة الخوف على ضياعه نظرا لموت العديد من القراء في حروب الردة ، وهذا يدل على أن القراء والعلماء كانوا وقتئذ أسرع من إلي العمل والجهاد لرفع شأن الإسلام والمسلمين بأفكارهم وسلوكهم وسيوفهم ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ينبغي الاقتداء بهم لكل من جاء بعدهم.

---

16 كثر واشتد.

17 أي في الأماكن التي يقع فيها القتال مع الكفار.

18 هذه الصفات التي جعلت زيد يتقدم على غيره في هذا العمل.

19 أي من الأشياء التي عندي وعند غيرك.

20 هو جريد النخل.

21 جمع لخفة وهي صفائح الحجارة.

22 جمع رقعة وهي قطع الجلود

23 جمع كتف وهو العظم للبعير والشاه

أن جمع القرآن تم بناء على المصلحة المرسلة ، ولا أدل على ذلك من قول عمر لأبي بكر حين سأله كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه خير ، في بعض الروايات أنه قال له : أنه والله خير ومصلحة للمسلمين ، وهو نفس ما أجاب به أبو بكر زيد بن ثابت حين سأل نفس السؤال ، سواء صحت الرواية التي جاء فيها لفظ المصلحة أو لم تصح ، فإن التعبير بكلمة خير ، يفيد نفس المعني وهو مصلحة المسلمين في جمع القرآن مبنيا على المصلحة المرسلة أول الأمر ثم انعقد الإجماع على ذلك بعد أن وافق الجميع بالإقرار الصريح أو الضمني ، وهذا يدل على أن المصلحة المرسلة يصح أن تكون سندا للإجماع بالنسبة ، لمن يقول بحجيتها كما هو مقرر في كتب أصول الفقه.
وقد اتضح لنا من هذه الواقعة كيف كان الصحابة يجتهدون في جو من الهدوء يسوده الود والاحترام ، هدفهم الوصول إلي ما يحقق الصالح العام لجماعة المسلمين ، وأنهم كانوا ينقادون إلي الرأي الصحيح وتنشرح قلوبهم له بعد الإقناع والاقتناع ، فإذا اقتنعوا بالرأي دافعوا عنه كما لو كان رأيهم منذ البداية ، وبهذه الروح أمكن انعقاد إجماعهم حول العديد من الأحكام الاجتهادية[24]

◆ما هي المقومات الأساسية لزيد بن ثابت رضي الله عنه للقيام بهذه المهمة ؟

اختار أبو بكر رضي الله عنه زيد بن ثابت لهذه المهمة العظيمة ، وذلك لأنه رأي فيه المقومات الأساسية للقيام بها وهي :

1- كونه شابا ، حيث كان عمره 21 سنة ، فيكون أنشط لما يطلب منه
2- **كونه أكثر تأهيلا فيكون أوعي له** ، **إذ من وهبه اللّه عقلا راجحا فقد يسر له سبيل الخير**
3- كونه ثقة ، فليس هو موضعا للتهمة ، فيكون عمله مقبولا ، وتركن إليه النفس ، ويطمئن إليه القلب
4-كونه كاتبا للوحي ، فهو بذلك ذو خبرة سابقة في هذا الأمر ، وممارسته عملية له ليس غريبا عن هذا العمل ، ولا دخيلا عليه[25]
5-ويضاف لذلك أنه أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلي الله عليه وسلم

---
[24] الاجتهاد في الفقه الإسلامي ، عبد السلام السليماني ، ص 127.
[25] التفوق والنجابة على نهج الصحابة ، أحمد العجمي ، ص 73 .

فعن قتادة قال : سألت أنس بن مالك رضي الله عنه : من جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم قال : أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ ، ابن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ثابت بن زيد الخزرجي الأنصاري[26] وهؤلاء الأربع جميعاً من قبائل الأنصار ، وكانوا يتشرفون بذلك ، وكذلك شرف كبير لكاتب هذه السطور

سليل قبائل الأنصار الخزرجي / أحمد عزوز أحمد محمد مصطفى الفرخ

[26] عم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سير أعلام النبلاء ، ص 431

وأما الطريقة التي اتبعها زيد في جمع القرآن فكان لا يثبت شيئا من القرآن إلا إذا كان مكتوبا بين يدي النبي (صلي الله عليه وسلم)، ومحفوظا من الصحابة ، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة ، خشية أن يكون في الحفظ خطأ أو وهم ، وأيضا لم يقبل من أحد شيئا جاء به إذا أتي معه شاهدان يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وأنه من الوجوه التي نزل بها القرآن ، وعلى هذا المنهج استمر رضي الله عنه في جمع القرآن حذرا مثبتا مبالغا في الدقة والتحري[27] أما الفرق بين المكتوب في العهد النبوي ، وما كتب في عهد أبي بكر أن القرآن كان مكتوبا في العهد النبوي ، مفرقا في الصحف والألواح والعسب ، والكرانيف والقصب ، وأدوات أخرى ، ولم تكن مجموعة سورة في خيط واحد .. وأما الذي في أيام أبي بكر ، فهو كتابه القرآن في صحف كل سورة أو سور في صحيفة آياته على ما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت مهمة زيد بن ثابت أن يكتب من كان مكتوبا في العهد النبوي في صحف ، كل سورة أو أسو في صحيفة مرتبة فيها الآيات ترتيبا توفيقيا فلما كملت النسخة الأولى عهد بها عمر بن الخطاب إلى حيازة حفصة ابنته و زوج النبي صلي الله وعليه وسلم ، و ظل هذا الكتاب الذي جمعه زيد قائما طيلة خلافة عمر علي انه النص الصادق الصحيح .

علي أن الخلاف لم يلبث أن بدأ في طريقة التلاوة ناشئا إما عن الخلاف السابق لنسخة زيد ، وأما عن تحريف تسرب إلى النسخ التي نقلت عن نسخته ، و فزع العالم الإسلامي لذلك أيما فزع ، فالوحي الذي نزل من السماء "واحد" فأين الآن وحدته ؟ ولقد حارب حذيفة بن اليمان في أرمينية وفي أذربيجان ولاحظ اختلاف القرآن عند السوريين عنه عند أهل العراق ، فجزع لتعدد ذلك ولمبلغ ما بينه من خلاف .

---

[27] **الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق ص 36**

مصحف عثمان [28]

إذ ذاك فزع إلى عثمان كي يتدخل " وليقف الناس حتى لا يختلفوا علي كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى" ، واقتنع الخليفة و ليدفع الضر لجأ مرة أخرى إلى زيد بن ثابت الأنصاري الخزرجي رهط كاتب هذه السطور / أحمد عزوز أحمد الفرخ ... و عززه بثلاثة من قريش وجئ بالنسخة الأولى من حيازة السيدة حفصة أم المؤمنيــن رضي الله عنها ،

[28] اسمه : عثمان بن عفان بن ابي العاص بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ، ويلتقي نسبه بنسب الرسول (صلي الله عليه وسلم) في عبد مناف ، وأمه أروي بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وامها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وهي شقيقة عبد الله والد الرسول (صلي الله عليه وسلم) ويقال انهما ولد توأما ، حكاه الزبير بن بكار فكان ابن بنت عمه النبي صلي الله عليه وسلم وكان النبي صلي الله عليه وسلم ابن خال والدته، وقد أسلمت أم عثمان رض الله عنها ، وماتت في خلافة ابنها عثمان وانه كان ممن حملها إلى قبرها ، واما أبوه فهلك في الجاهلية.

ولد في مكة المكرمة بعد عام الفيل بخمس سنوات علي الصحيح ، وقيل ولد في الطائف ، فهو اصغر من الرسول صلي الله عليه وسلم بنحو خمس سنوات .

اشتري عثمان بن عفان " بئر رومة" من يهودي لينتفع به المسلمين ، ودفع له عشرين ألف دينار ، كما اشتري أرضا وسع بها مسجد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ، كذلك لا ينسي موقفه الرائع الخالد الباهر أثناء تجهيز جيش المسلمين في غزوة تبوك .

وقد دعا له النبي (صلي الله عليه وسلم) أن يعبر الصراط إلى الجنة بسلام. كما دعا له بقوله : " اللهم أني رضيت عن عثمان بن عفان ، فارض عنه"

شهد له عمر بن خطاب بقوة الإيمان ، فقد مر عمر بن الخطاب بمجلس فيه عثمان بن عفان فقال : " معكم رجل لو قسم إيمانه بين جند من الأجناد لو سعهم" رحم الله عثمان بن عفان لقد كان سمحا جوادا كريما.

لقد تغنت أمهات العرب بحبها لعثمان وقد بلغ من شدة حبه عند الناس أن كانت المرأة العربية وهي تدلل صبيها وترقصه تقول" احبك والرحمن حب قريش لعثمان " .

قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : " ارحم أمتي بأمتي أبو بكر أشدهم في أمر الله عمر واصدقهم حياء عثمان " رواه الترمذي

كانت بيعة ذو النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رض الله عنه يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة 23 هجرية فاستقبل بخلافته المحرم 24 هجري الموافق 7 نوفمبر 644 ميلادي.

أراد المحاصرون لمنزل أمير المؤمنين عثمان بن عفان التعجيل بقتله خوفا من خطر يفاجئهم فاحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسور من دار ابن حزم وكان جارا له . ولما رأى ذلك عثمان بن عفان استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لا يغنون شيئا ، دخل عليه جماعة فيهم =محمد بن أبي بكر الصديق مريدا قتله ، فلم يصنع شيئا . فتقدم غيره فضربه الغافقي بحديدة كانت معه وجاء سودان بن حمران ليضربه . فاكبت علي عثمان زوجة البارة نائلة بنت القرافصة واتقت السيف بيدها فتعمدها و نفخ أصابعها فاطعن أصابع يدها ثم اهوي له بعضهم فضرب عنقه وانتهوا ما في البيت وأخرجوا من فيه ثم أتوا بيت المال فانتبهوه وأذاعوا بالمدينة خير قتلة. وكانت حصاره اثنين وعشرين يوما ، وكان قتله لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة 35هجري الموافق السادس عشر من يونيو لعام 656م وذلك التاريخ المشئوم.

و عرضت القراءات المختلفة من أنحاء الإمبراطورية ، وروجعت كلها بأتم عناية للمرة الأخيرة ، ولقد كان زيد إذا اختلف مع زملائه القرشيين رجح صوت هؤلاء أن كان التنزيل بلسان قريش[29] ، وان قيل أن الوحي نزل علي سبع لهجات مختلفة من لهجات العرب ، وكما يروي أنس بن مالك بالتفصيل حيث يقول أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلي حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلي عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثية :إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوا بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، رد عثمان الصحف إلي حفصة ، فأرسل إلي كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

وأن السبب الحامل لعثمان رضي الله عنه على جمع القرآن مع أنه كان مجموعا مرتبا في صحف أبي بكر الصديق ، إنما هو اختلاف قراء المسلمين في القراءة اختلافا أوشك أن يؤدي بهم إلي أخطر فتنة في كتاب الله تعالي ، وهو أصل الشريعة ، ودعامة الدين ، وأساس بناء الأمة الاجتماعي والسياسي والخلقي ، حتى أن بعضهم كان يقول لبعض : أن قراءتي خير من قراءتك ، فأفزع ذلك حذيفة ، ففزع فيه إلي خليفة المسلمين وإمامهم ، طلب إليه أن يدرك الأمة قبل أن تختلف فيستشري بينهم الاختلاف ، ويتفاقم أمره ، ويعظم خطبه ، فيمس نص القرآن ، وتحرف عن مواضعها كلماته وآياته ، كالذي وقع بين اليهود والنصارى من اختلاف كل أمة على نفسها في كتابها.

وأن هذا الحديث الصحيح قاطع بأن القرآن الكريم كان مجموعا في صحف ومضمونا في خيط ، وقد اتفقت كلمة الأمة اتفاقا تاما على أن ما في تلك الصحف هو القرآن كما تلقته عن النبي صلى الله عليه وسلم في آخر عرضة على أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وأن تلك الصحف ظلت في رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصديق ، ثم انتقلت بعده إلي رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، ثم لما عرف عمر حضور أجله ولم يول عهده أحداًً معيناً في خلافة المسلمين ، وإنما جعل الأمر شوري في الرهط المصطفين بالرضا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أوصي بحفظ الصحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها ،

---

[29] ولقد نزل القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم بحرف واحد بمعنى.........حتى ومعظم هؤلاء القراء ما ترافوا في القرن الثاني الهجري.

وأن عثمان اعتمد في جمعه على تلك الصحف ، وعنها نقل مصحفه " الرسمي"، وأنه أمر أربعة من أشهر قراء الصحابة اتقانا لحفظ القرآن ، ووعيا لحروفه وأداء لقراءاته وفهما لإعرابه ولغته : ثلاثة قرشيين ، وواحدا أنصاريا ، وهو زيد بن ثابت صاحب الجمع الأول في عهد الصديق بإشارة الفاروق ، وفي بعض الروايات أن الذين أمرهم عثمان أن يكتبوا من الصحف اثنا عشر رجلاً، فيهم أبي بن كعب[30] ، وآخرون من قريش والأنصار[31]

ثم جمع أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه المهاجرين والأنصار ، شاورهم في الأمر ، وفيهم أعيان الأمة ، وأعلام الأئمة وعلماء الصحابة وفي طليعتهم على بن أبي طالب رضي الله عنه وعرض عثمان رضي الله عنه هذه المعضلة على صفوة الأمة وقادتها الهادين المهديين ، ودراستهم أمرها ودارسوه ، وناقشهم فيها ناقشوه ، حتى عرف رأيهم وعرفوا رأيه ، فأجابوه إلي رأيه في صراحة لا تجعل للريب إلي قلوب المؤمنين سبيلا ، وظهر للناس في أرجاء الأرض ما انعقد عليه إجماعهم ، فلم يعرف قط يومئذ لهم مخالف ، ولا عرف عند أحد نكير ، وليس شأن القرآن الذي يخفي على آحاد الأمة فضلا عن علمائها وأئمتها البارزين

وأن عثمان رضي الله عنه لم يبتدع في جمعه المصحف ، بل سبقه إلي ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، كما أنه لم يصنع ذلك من قبل نفسه ، إنما فعله عن مشورة للصحابة رضي الله عنهم ، وأعجبهم هذا الفعل وقالوا : نعم ما رأيت ، وقالوا : أيضا : قد أحسن – أي في فعله – في المصاحف

وقد أدرك مصعب بن سعد بن أبي وقاص صحابة النبي صلى الله عليه وسلم حين مشق[32] ، عثمان رضي الله عنه المصاحف فرآهم قد أعجبوا بهذا الفعل[33] منه ، وكان أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه ينهي من يعيب على عثمان رضي الله عنه بذلك ويقول : يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان ، ولا تقولوا له إلا خيرا – أو قولوا خيرا – فو الله ما فعل الذي فعل – أي في المصاحف – إلا عن ملأ منا جميعا أي الصحابة ... والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل[34]

وبعد اتفاق هذا الجمع الفاضل من خيرة الخلق ، على هذا الأمر المبارك يتبين لكل متجرد عن الهوى ، أن الواجب على المسلم الرضا بهذا الصنيع الذي صنعه عثمان رضي الله عنه وحفظ به القرآن الكريم

---

[30] أبي بن كعب أنصاري خزرجي عندما نزلت سورة البينة تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه فلما سئل عن ذلك قال رسول الله لقد أمرني بذلك يا أبي الله سبحانه وتعالى بأن أقرئها عليك . فبكى أبي من شدة الفرح ....ما هذه النوعية من البشر....أنهم تربية وتعليم رسول الإنسانية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

[31] عثمان بن عفان ، صادق عرجون، ص 71 .

[32] مشق هو الحرق " لسان العرب " (344/10).

[33] التاريخ الصغير للبخاري (94/1) إسناده حسن لغيره.

[34] فتنة الباري (18/9) إسناده صحيح.

أما عن الفرق بين جمع الصديق وجمع عثمان رضي الله عنهما فقد قال ابن التين : الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أن جمع أبي بكر كان حشيته أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعا في موضوع واحد ، فجمعه في صحائف مرتبا لآيات سورة على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، و جمع عثمان كان لما اكثر الاختلاف في وجوه القراءة ، وحتى قرءوه بلغاتهم علي اتساع اللغات ، فادي ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبا لسوره ، واقتصر من سائر اللغات في لغة قريش ، محتجا بأنه نزل بلغتهم ، وان كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم دفعا للحرج و المشقة في ابتداء الأمر ، فرأي أن الحاجة قد انتهت ، فاقتصر علي لغة واحدة وقال القاضي أبو بكر الباقلاني : لم يقصد أبو بكر في جمع نفس القرآن بين الوحين وإنما قصد جمعهم علي القراءات الثابتة المعروفة علي النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل اثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة علي من يأتي بعد

وقال الحارث المحاسبي : المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك ، إنما حمل عثمان الناس علي القراءة بوجه عام واحد علي اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار ، ولما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات ، فأما قبل ذلك ، فقد كانت المصاحف بوجوه القراءات المطلقات علي الحروف السبعة التي انزل بها القرآن ، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق وقد قال علي رضي الله عنه : " لو وليت لعملت بالمصاحف التي عمل بها عثمان "

وقال القرطبي : فان قيل فما وجه جمع عثمان الناس علي مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه؟ قيل له : إن عثمان رضي الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس علي تأليف المصحف إلا تري كيف أرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ؟ وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءة لتفرق الصحابة في البلدان ، واشتد الأمر في ذلك وعظم اختلافهم وتشبثهم ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه .

دقة مصحف عثمان وكماله

نستطيع أن نستنبط إذا مطمئنين أن مصحف عثمان كان وما يزال صورة مضبوطة لما جمعه زيد ابن ثابت وهو الأنصاري الخزرجي .. رهط كاتب هذه السطور .. الأنصاري الخزرجي أحمد عزوز أحمد محمد مصطفي الفرج ، مع مزيد في التوفيق بين الروايات السابقة له وبين لهجة قريش ، ثم استبعاد سائر القراءات التي كانت منتشرة في أنحاء المملكة . مع ذلك لا تزال أهم مسألة قائمة أمامنا هذه المسألة هي :

◆هل كان ما جمعه زيد صورة صادقة كاملة لما أوحي إلي محمد ؟

والاعتبارات الآتية تبعث اليقين بأنه كان مجموعة صادقة كاملة بلغت من حيث أنها كاملة كل ما يمكن بلوغه يومئذ :

أولا : تم الجمع الأول برعاية أبو بكر . وكان أبو بكر تابعا صادق الإخلاص لمحمد ، كما كان مؤمنا كامل الإيمان بالمصدر القدسي للقرآن ، وكان اتصاله الحميم بالنبي خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياته ومظهره في الخلافة مظهر البساطة والحكمة والتنزه عن المطامع ، بحيث لا يدعان موضعا لأي فرض آخر وكان إيمانه بأن ما يوحي إلي صاحبه إنما يوحي إليه من الله ذاته ، مما يجعل أول أغراضه أن يكفل جمع هذا الوحي كله مطهرا كاملا ومثل هذا القول بصدق على عمر ، وقد تم الجمع في خلافته . وهذا القول يصدق كذلك على المسلمين يومئذ جميعا ، لا تفاوت لديهم فيه بين الكاتبين الذين عاونوا على هذا الجمع وبين المؤمن الرقيق الحال الذي كان يحمل إلي زيد ما عنده من الوحي المكتوب على العظام أو على أوراق الشجر فقد كانوا جميعا تتساوى رغبتهم الصادقة في استظهار العبارات والألفاظ التي تلاها عليهم نبيهم على أنها رسالة من عند الله . ولقد كان الحرص على الدقة قائما بشعور الناس جميعا ، لأنه لم ينغرس في نفوسهم شيء ما انغرس هذا التقديس المرهب لما يعتقدونه كلمة الله ، وفي القرآن نذر للذين يفترون على الله الكذب أو يخفون شيئا من وحيه ، ولسنا نستطيع أن نصدق أن يجرؤ المسلمون الأولون في حماستهم الأولي لدينهم وتقديسهم إياه ، على التفكير في أمر ذلك مبلغه من مجافاة الإيمان

ثانيا : تم الجمع خلال سنتين أو ثلاث سنين بعد وفاة محمد ، وقد رأينا طائفة من أتباعه يحفظون الوحي كله عن ظهر قلب ، وأن كل واحد من المسلمين كان يحفظ طائفة منه ، وأن جماعة من القراء كانت تعينهم الدولة وتبعث بهم إلي أنحاء المملكة الإسلامية لإقامة الشعائر ولتفقيه الناس في الدين ، من هؤلاء جميعا تكونت حلقة اتصال بين ما تلا محمد من الوحي يوم تلاه

وبين ما جمعه زيد . فالمسلمون لم يكونوا صادفي القصد في جمع القرآن كله في مصحف واحد فحسب ، بل كانت لديهم كذلك كل الوسائل التي تكفل تحقيق هذا الغرض ، وتكفل تحقيق ما اجتمع في الكتاب الذي وضع بين أيديهم بعد جمعه من دقة وكمال

ثالثا : ولدينا ضمان أوفي للدقة والكمال.. وذلك ما كان موجودا منذ حياة محمد من أجزاء القرآن المكتوبة والتي كثر لا شك عدد نسخها قبل جمع القرآن ، وأكثر الأمر أن هذه النسخ كانت موجودة في حيازة جميع الذين يستطيعون القراءة ، أما ونحن نعرف أن ما جمعه زيد قد تداوله الناس وتلوه بعد جمعه مباشرة ، فمن المعقول أن نستنبط أنه تناول ما احتوته هذه الأجزاء المكتوب جميعا واتفق معها ، لذلك حل محلها بإقرارهم جميعا. فلم يتصل بنا أن الجامعين أغفلوا أجزاء أو آيات أو ألفاظا ، أو أن شيئا مما كان موجودا من هذه اختلف عما حواه المصحف الذي جمع ولو أن شيئا من ذلك كان للوحظ بلا ريب ولدون في هذه المساند القديمة التي احتوت أدق أعمال محمد وأقواله والتي لم تغفل منها حتى ما كان قليل الخطر.

رابعا : محتويات القرآن ونظامه تنطق في قوة بدقة جمعه ، فقد ضمت الأجزاء المختلفة بعضها إلي بعض ببساطة تامة لا تعمل ولا فن فيها وهذا الجمع لا أثر فيه ليد تحاول المهارة أو التنسيق وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لما يجمع ، فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدسة ووضع بعضها إلى جانب بعض

" والنتيجة التي نستطيع الاطمئنان إلي ذكرها هي أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقا فحسب بل كان كما تدل الوقائع عليه كاملا وأن جامعيه لم يتعمدوا إغفال أي شيء من الوحي ونستطيع كذلك أن تؤكد استنادا إلي أقوى الأدلة أن كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها كما تلاها محمد أطلنا في اقتطاف عبارات " سير وليم موير " ، كما وردت في مقدمة كتابة " حياة محمد " على أن ما اقتطفناه يغنيه.

لما فرغ عثمان من جمع المصاحف ، أرسل إلى كل أفق بمصحف ، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسله إلى الآفاق ، وقد اختلفوا في عدد المصاحف التي فرقها في الأمصار فقيل : إنها أربعة وهو الذي اتفق عليه اكثر العلماء ، وقيل أنها خمسة ، وقيل أنها ستة ، وقيل إنها سبعة ، وقيل إنها ثمانية ، أما كونها أربعة: فقيل انه ابقي مصحفا بالمدينة أرسل مصحفا إلى الشام ومصحفا إلى الكوفة ، ومصحفا إلى البصرة ، وأما كونها خمسة فالأربعة المتقدم ذكرها ، والسادس اختلف فيه فقيل ، جعله خاصا لنفسه وقيل أرسله إلى البحرين وأما كونها سبعة فالستة المتقدم ذكرها ، والسابع أرسله إلى اليمن وأما كونها ثمانية فالسبعة المتقدم ذكرها ،والثامن كان عثمان يقرأ فيه وهو الذي قتل وهو بين يديه ،

وبعث رضي الله عنه مع كل مصحف من يرشد الناس إلى قراءته بما يحتمله رسمه من القراءات مما صح و تواتر، فكان عبد الله السائب مع المصحف المكي ، والمغيرة بن شهاب مع المصحف الشامي ، وأبو عبد الرحمن السلمي مع المصحف الكوفي ، وعامر بن قيس مع المصحف البصري ، و أمر زيد بن زيد أن يقرئ الناس بالمدني.

ومع تطور الحضارة العربية الإسلامية أضيفت في الفترة ما بين منتصف الستينات حتى منتصف السبعينيات من القرن السابع الميلادي هو وضع النقط في اللغة العربية وبالتالي في المصحف الشريف على يد أبو الأسود الدؤلي المتوفى في عام 69هـ / 688م وكما جاء في الإتقان لعلوم القرآن ، للإمام السيوطي ، وما ورد في تاريخ المصحف الشريف لائمة القراءات وعلومها : يروي أن معاوية بن أبي سيفان كتب إلى واليه بالبصرة ، يطلب عبيد الله بن زياد. فلما قدم عليه ،كلمه معاوية: فوجده يلحن، فرده إلى أبيه،
وكتب له كتابا يلومه علي وقوع ابنه في اللحن، فبعث زياد إلى أبي الأسود الدؤلي، وكان عالما كبيرا فقيها في اللغة العربية والنحو ولغة القرآن و حروفه ، وقال له أن هؤلاء الأعاجم قد افسدوا لغة العرب، فلو وضعت شيئا يصلح الناس به كلامهم و يعربون به كلام الله تعالي : فأبى أبو الأسود فأمر زياد رجلا أن يجلس في طريق أبي الأسود و يتعمد اللحن في قراءة القرآن فقرأ الرجل سورة التوبة " أن الله برئ من المشركين و رسوله " بجر اللام من لفظ رسوله ، وهي مرفوعة ، أي ورسوله كذلك برئ من المشركين ، فاستعظم ذلك أبو الأسود، وقال عز وجه الله أن يتبرأ من رسوله صلي الله عليه وسلم . ثم رجع أبو الأسود إلى زياد والي البصرة، وقال له: قد أجبتك إلى ما طلبت . وكان ذلك في عهد معاوية بن أبي سيفان – حيث بدا أبو الأسود في وضع إعراب كلمات القرآن ، وذلك بوضع مداد يخالف لون مداد المصحف وذلك بوضع نقطة فوق الحرف المفتوح ، ونقطة أمام المضموم ونقطة في اسفل المكسور ، و للتنوين نقطتان ، حتى تم الشكل المطلوب لأعراب الألفاظ[35].

ومن وقتها تطور علم القراءات والتفسير ، وتزامن معهم تطور علم النحو في اللغة العربية وأول ، من عمل في التفسير، هو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، الذي اعترف أنه يغترف في التفسير من الأدب الجاهلي ، كمصدر من مصادره. الذي يعد إمام هذه الأمة في التفسير، ثم تطور علم القراءات في الكوفة ، على يد يحيي بن وثاب الأسدي مقرئ أهل الكوفة للقرآن الكريم في زمن الحجاج بن يوسف. أما عن التفسير الذي انتقل من عبد الله بن عباس إلى الضحاك بن مزاحم الهلالي،

---

35 وضعت هذه الحروف بعد ذلك ملونة حتى لا يحدث لبس مثلما حدث إبان الفتنة الكبرى ، عندما أرسل أمير المؤمنين ، الأمير المظلوم ، عثمان بن عفان رضي الله عنه ، رسالة إلى أهل مصر مع محمد بن أبي بكر الصديق ، نصها : إذا جاءكم الرجل فاقبلوه فتم تحريفها فاقتلوه ، وقتل الرجل ، وكانت الشرارة لما يعرف في التاريخ الإسلامي بالفتنة الكبرى.

الذي وضع أول تفسير للقرآن الكريم، في أوائل القرن الثامن الميلادي ،وبذلك تكون أول محاول متواضعة من المسلمين في تفسير القرآن.

الذي كون من خلفه علم الفقه والذي كان أول رائد له هو الإمام العظيم الحسن البصري، الذي درس الفقه على يد الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، والصحابي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. والذي استغل كذلك تدوين الحديث الشريف في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فتوسع الفقه في عهده عما قبله. الذي ظهرت له مدارس منذ عام 120هـ / 738م وهي مدرسة البصرة، التي كانت تمثل مدرسة أهل الرأي، أي القياس بعد الاجتهاد، وليس الحديث بعد الاجتهاد، وقد تحولت المدرسة إلى المدرسة الحنيفية، بعد وفاة إمام هذه المدرسة حماد بن أبي سليمان.

ومن هنا ظهر الاتجاه الحنفي في الفقه. والذي أضحى متأصلاً كمذهب للدولة العباسية ، بعد أن عين رئيس هذا الحزب قاضي القضاة في الدولة العباسية، أبو يوسف الأنصاري في عهد هارون الرشيد. ثم واجه أهل الرأي في العراق الشام الذي تأثر بفكر أهل الحديث وهو البعد عن القياس كما يفعل أهل العراق وعلى رأس هذه الجماعة الأوزاعي تلميذ الفقيه يحيي بن أبي كثير ذلك الفكر الذي انتشر بعد ذلك في جميع أمصار الدولة العباسية رافضاً الفكر الحديث أو الأطروحة الجديدة التي قدمت في أواخر الستينات من القرن الثامن الميلادي مع حلول الثورة العباسية.

تزامن هذا كذلك التطور في مدرسة البصرة في الفقه تطورها في علم النحو الذي يعتبر مؤسسه الحقيقي الخليل بن أحمد الفراهيدي[36] - الذي عاش بين 100 هجري إلى 175 هجري (718-791م)- في عصر الدولة العباسية، اخذ نقط أبي الأسود، و حور فيه بنبوغه ،

---

[36] **الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي البصري (100-175هـ) كان ممثلاً للفكر للعربي في عصره ، وكان حجة في اللغة والأدب والشعر ، وشيخ العلماء في زمنه ، مع الزهد والعفة وجلالة المنزلة ، تتلمذ على أبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ) ، وأيوب ، وعاصم الأحول وسواهم ، أخذ عنهم الحديث والعربية والقراءات ، واختلف إلى البوادي وسمع الأعراب الخلص ، وتلقى أصول اللغة من المسجديين في البصرة، واستمع إلى بلاغات العرب في المربد ، وجمع إلى ذلك كله العقل والذكاء ، فخرج نابغة في علوم اللغة ، وصار إماماً من أئمتها ، وعلماً من أعلامها ، وكان يوصف بأنه أذكى العرب ، ونقل السيوطي عن محمد بن سلام : سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب أذكى من الخليل ولا أجمع ، ولا كان من العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع.**

وتتلمذ على الخليل أئمة العربية وشيوخها مثل سيبويه ، والنضر بن شميل ، والأصمعي ، وغيرهم. والخليل أول من قيد اللغة وجمعها ، بابتكاره للمعجم اللغوي. وقد حصر أشعار العرب عن طريق أوزانها من العروض وابتكر علمي العروض والقافية " واخترع علم الموسيقى العربية ، وجمع فيه أصناف النغم ، وألف فيه كتابه " النغم". =

= وقد استنبط بعض المسائل الرياضية ، وفكر في تبسيط الحساب ، وكان سيد أهل الأدب في تصحيح القياس واستخراج النحو تعليله. وكتاب سيبويه صدى لآراء أستاذه الخليل ، ويذهب كثيرون من الباحثين إلى أن الخليل هو صاحبه ، وهو الذي عمل النحو ، وقلما نبغ في عصره عالم أو أديب إلا أخذ عنه شيئاً مما يختص به ، وقد دامت حلقته في مسجد البصرة حتى توفى في عام 175هـ.

فجعل نقط الإعجام المميزة، للحروف ، بدلا من النقط ،مما يسهل علي المتعلمين القراءة و الكتابة ، دون الحاجة إلى لونين، للمداد، فاخترع الشكل المستعمل الآن، بان كتب الضمة، واو صغيرة تكتب فوق الحرف، والفتحة ألفا، والكسرة ياء، والشدة راس السين، والسكون راس فاء، وهمزة القطع راس العين،حتى آلت إلى الشكل المعروف الآن، مما ادخله علماء القراءات في القرآن من ضبط، و شكل و شئ من الاختزال ،و التحسين مما فيه خير وصلاح، ونور لقراءة القرآن، مجودا مرتلا. متأثراً في ذلك بمدرسة أبي الأسود الدؤلي، لأنه كان أحد تلامذة نصر بن عاصم ، الذي أضاف الخمس والعشر في القرآن الكريم من أستاذه أبو الأسود الدؤلي والذي كان كذلك من رهطه بني أسد بن خزيمة في العراق.

والتي دخلت في صراع مع مدرسة الكوفة، التي يتزعمها عيسى بن عمرو الثقفي المتوفى في عام 149هـ /766م والتي أثرت النحو العربي ، وخاصة بعد ظهور العملاق في النحو العلامة سيبويه المتوفى في عام 180هـ / 796م.. وتطورت القراءات ، حيث أضحت بعد ذلك سبع مدارس ، في التاريخ الإسلامي ، أي سبعة طرق ، والذي بدأ في هذا الاتجاه هو الشيخ حمزة بن حبيب منذ أوائل القرن الثامن الميلادي ، مستغلاً ، بعد ذلك النهضة اللغوية ، التي قامت في العراق بعد الثورة العباسية ، ومن بعده أتى يزيد بن القعقاع ، في الثلاثينات من القرن الثامن الميلادي ، مختلفاً معه في قواعد القراءة. ثم تطور الاتجاه المتشدد ، في الحجاز ، الذي أضحى المركز المعتد به في الفقه ، والتفسير ، بعد ظهور العلامة مالك بن أنس ، الذي تأثر برفض أستاذه محمد بن شهاب الزهري ، الذي كان أعلم أهل السنة في زمنه ، بأسلوب القياس الجديد ، الذي قدم على يد الإمام الأعظم أبو حنيفة وقد رفض ربيعة الرأي ، زعيم تلك المدرسة ، في الحجاز ، أن يلي منصب الإفتاء في الدولة العباسية ، حتى أن الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة أول من وضع كتاب ، يجمع الأحاديث النبوية في كتاب الموطأ ، لكي يبعد في تفسير القرآن بالعقل ، ويتبع الحديث في ذلك.

ولكن هذا التيار المتشدد ، ضد حرية الفكر ، في الفقه الإسلامي ،أو التفسير الإسلامي ، قد خفت حدته ، بعد وفاة الإمام مالك بن أنس ، في أواخر القرن الثامن الميلادي ، وتقبل مثقفي الشعب سياسة الدولة العباسية الرامية إلى تخفيف حدة التشريع الإسلامي ،بعد ظهور المدونة الخاص بأسد بن الفرات في عام 188هـ / 804م ، أي بعد وفاة الإمام مالك بثمانية أعوام ، وقد تأثرت في علاج المسائل الفقهية ، من خلال طريقة التفريغ والتوليد ، مع تطبيق المدرسة المالكية. حتى ما أعلن الشافعي بالتيار المعتدل ، بين المدرستين في عام 195هـ / 811م الذي قال فيه شعار "الأصل القرآن والسنة فأن لم يكن فقياس عليهما وإذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصح الإسناد منه فهو سنة والإجماع أكبر من الخبر المفرد.......

" ، وهو بذلك يلخص أصول الفقه الإسلامي القرآن والسنة ثم القياس وإن لم يكن الإجماع وكان هذا قمة الاعتدال في الفكر الإسلامي ، أي تطور الفقه ، والتفسير ، من القرآن الكريم ، ولذلك ألف كتاب المدرسة الكبيرة والذي أنهاه في صفر 203هـ / أغسطس 818م.

تزامن هذا مع قيام حركة علمية ، من الدرجة الأولى ، في عصر الخليفة العباسي المأمون (196-215 هـ / 813-833م) رغبت في أن تخلق الدولة ، دولة علمانية ، بعد ظهور تيار معتدل ، في الفقه ، يقبل ولو نسبياً القياس ، والإجماع ، بجانب القرآن ، والسنة ، بعد وفاة الإمام الشافعي ، مما أعطى حرية للحاكم ، أن يتحول من حاكم، ذي مرجعية دينية ، متأثرة بالخلفاء الراشدين ، إلى حاكم يشبه الملوك ، كما كان يحلم أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ / 661-680م). حتى ما اصطدمت السلطة الدينوية ، مع السلطات الدينية ، في موضوع حساس جداً ، ألا وهو موضوع خلق القرآن ، الذي فتح باب من جديد ، للعودة إلى التيار المتشدد ، وهذا ما بليت به الأمة الإسلامية دون شك ، وكان بطل هذا الصراع الجديد ، هو الإمام أحمد بن حنبل[37] الذي خرج من المدرسة الشافعية ثائراً على التيار المعتدل ، وعائداً من جديد إلى المالكية ، وإلى الأوزاعية ، قبل ظهور هذا التيار ، للخوف من تفشي فكر علماني جديد ، يقدم داخل الدولة الإسلامية. وبدأت هذه المحنة منذ تأسيس المأمون الخليفة العباسي بيت الحكمة وهو أول مركز يهتم بالعلوم الطبيعية فكان هدف المأمون ، جعل بغداد أن تكون روما الجديدة ، أي أن تكون الدولة العباسية دولة علمانية تبتعد عن التشريع الإسلامي ، لذلك افتعل أزمة خلق القرآن، والتي كانت عبارة عن لعبة سياسية ، لعب بها المأمون ، فالمأمون رجل علم نظر إلى حال الدولة الإسلامية ، فلم يجد سوى الصراع الفكري ، هو أخطر الصراعات على عرشه ، بعد زوال خطر الخوارج ، والشيعة نهائياً من الوجود ، في أوائل القرن التاسع الميلادي في عهد والده أمير المؤمنين هارون الرشيد الخليفة العباسي.

---

[37] عاش الأمام احمد بن حنبل حياته مسالما ، فقيرا، عفيفا، زهدا ، نذر حياته للعلم ، مسافر شمالا و جنوبا و شرقا و غربا في رحلة بحث عن حديث مروي عن النبي صلي الله عليه وسلم أو للقاء ففيه ليسأله عن مسالة .... حتى قيل انه أجاب ما يقرب من ستين ألف مسالة ، فقد ولد في ربيع الأول عام 164هـ /نوفمبر 780م في بغداد ، ومات والده ، وهو ابن ثلاثة أعوام ، وهو من آل بكر بن وائل وهم عرب الكويت الآن ، وعندما توجه للعلم الشرعي في عام 187هـ / 803م ، إلى مدرسة الحنيفة ، التيار العلماني السائر مع الدولة ، فلم يعجب به فتوجه ، إلى الحجاز ، حيث التيار المتشدد ، وظل على هذا المنوال حتى عام 199هـ / 814م حتى توجه إلى الإمام الشافعي ، بعد أن أعلن تياره المعتدل ، المقترب ما بين التيار السياسي ، الموالي للدولة ، والتيار الشعبي ، المقترب من نفوس الناس.

و أوحى وصية تنفذ بعد مماته وهي أن توضع ثلاث شعرات من شعرات رأس النبي صلي الله عليه وسلم كان يحتفظ بها ، علي لسانه وعلي عينيه ، وكتب رسالة حب لله سبحانه وتعالي و لرسوله صلي الله عليه وسلم يقول فيها : لم انطق إلا بسنتك يا رسول الله ، و لم أرى سوي ما أمرت أنت به عن وحي رب العزة. وكان علي شدة حاجته لا يقبل العطايا ، ورفض المنصب الرفيع ، فقد رفض تولي القضاء علي ارض اليمن.

ومن هنا ظهرت الفرق الجديدة في الدولة مثل المعتزلة ، والمرجئة ، والجبرية ، وكانت أقواهم أثراً هي المعتزلة ، الذي دخلت في سياق موجة جديدة ، رغب فيها هو فلسفة الدين ، كفلسفة العلم والفكر معاً، والتي ظهرت بعد ذلك لدي الجاحظ ، وهو أشهر المعتزلين في التاريخ الإسلامي ، وعندما نرى الحوار الذي أفرده الطبري ، في صفحاته في أحداث عام 218هـ / 833م سنرى أن الثغرة التي نفذوا منها بقوة ، هي أنهم رأوا أن القرآن الكريم ، محاط بلوح محفوظ ، كما هو مذكور في سورة البروج ، ولا يحاط بشيء إلا مخلوق ، ولكنهم لم يتمسكوا في المناقشة بهذه القضية ، فقط ، بل كان الهدف من فكرتهم ، هو تحييد علماء الدين ، وتقليل من دورهم السياسي ، في الدولة ، فمثلاً ، حديثهم مع أحمد بن حنبل ، لم يلتزموا به في موضوع خلق القرآن ، بل قال : كما يذكر الطبري أنه لم يرفع أحمد بن حنبل الإجابة عن تفصيل في السميع البصير ، في وصف الله سبحانه وتعالى ، وهذا يؤكد على تلاعب المحقق ، مع الإمام أحمد بن حنبل ، ثم اتهامه بالجهل ، ثم وصل المأمون ، بعد صدور الحكم عليهم ، وذكر في حيثياته ، من هم الخصوم السياسيين له ذاكراً أفعالهم ، وحياتهم الشخصية ، دون العرض عن النقاش ، كأطروحة ، ولم يحسم هذا النقاش في الحقيقة ، من الوجهة العلمية لأنه كما أسلفنا ، لم يوجد تطور عام في الحياة الفلسفية لعلاج هذه المشكلة. ومن هنا ظهر مفهوم الدولة العلمانية الذي انتهى في عام 855م ، بعد إعادة الفكر الديني من جديد على يد المتوكل على الله ، وأن الخليفة هو الإمام للأمة الإسلامية. وهذا ما دفع أن يعود التيار الديني ، من جديد ، إلى التشدد ، رافضاً ، أي فكر هدام يدخل الدين الإسلامي ، كما حدث في خلق القرآن ،فقامت المحاولات، من الخروج عن التيار المعتدل ، الذي كان يروج له الشافعية ، وظهر اتجاهين جديدين الشافعية الذي مال إلى الاعتدال ، كما هو بلساير نظام الدولة من جديد مثله مثل الحنيفية ، بعد أن أقر زعيم الشافعية إسماعيل بن يحيي المزني المتوفى في عام 264هـ / 878م ، بخلق القرآن ، فاختلف عليه أحمد بن حنبل ، وخرج من هذه الجماعة ، مكوناً التيار المتشدد ، أو السلفي المختلف ، على الدولة ، والتيارات العلمانية ، التي يمثلها الشافعي، بعد أن تطور والحنيفية كذلك.

والذي زود الأمور هو رفض الإمام البخاري ، أن ينقل من الشافعي ، لأنه ضعيف الرواية ، أمام أحمد بن حنبل ، الذي كان قوياً في الحديث. حتى ما ظهرت الظاهرية ، في أوائل الثمانينات من القرن التاسع الميلادي ، الذي أنكر القياس بالمرة ، ولم يلجأ إلا الاجتهاد وأكد على حرفية النص من القرآن ، والسنة مما ضيق من الفقه، والتفسير ، وجعلهما في حدود ضيقة إبان نهضة البخاري ، في التحقق من صحة الحديث النبوي الشريف.

ومن هنا ، ظهرت التفاسير العديدة ، للقرآن الكريم ، والتي بدأت بكتاب ، جامع البيان ، عن تأويل آيات القرآن الكريم ، الذي يعتبر أول تفسير كبير للقرآن الكريم ، وقد تم تأليفه في عام 306هـ / 918م ومن وقتها تم التعريف بالقرآن ، فيقول الطبري: في تفسير الآية الأخيرة من سورة البروج ما هو نصه " يقول، تكذيبا منه جل ثناؤه للقائلين للقرآن هو شعر وسجع: ما ذلك كذلك، بل هو قرآن كريم." وقد تأثر العديد من المفكرين بهذا التطور الجديد من تعريف القرآن. وتم طرح الرد على قضية المعتزلة في القرآن الكريم لكي يتأكد مذهب أهل السنة في موضوع القرآن وهو كتاب الإبانة عن أصول الديانة للإمام أبي الحسن الأشعري المتوفى في عام 324هـ / 935م ، حيث يقول في الباب الثاني : في أن القران كلام الله غير مخلوق. ومما يبطل قولهم إن الله قال مخبرا عن المشركين أنهم قالوا: (إن هذا إلا قول البشر) يعني القرآن. فمن زعم أن القرآن مخلوق فقد جعله قولا للبشر، وهذا ما أنكره الله على المشركين .وأيضا فلو لم يكن الله متكلما حتى خلق الخلق ثم تكلم بعد ذلك لكانت الأشياء قد كانت لا عن أمره ولا عن قوله، ولم يكن قائلا لها كوني .وهذا رد للقرآن، والخروج عما عليه جمهور أهل الإسلام. وقد قال الله تعالى مخبرا عن نفسه أنه يقول: (لمن الملك اليوم) وجاءت الرواية أنه يقول هذا القول ولا يرد عليه أحد شيئا، فيقول: (لله الواحد القهار)، فإذا كان الله قائلا مع فناء الأشياء؛ إذ لا إنسان ولا ملك ولا حي ولا جان ولا شجر ولا مدر، فقد صح أن كلام الله خارج عن الخلق؛ لأنه يوجد ولا شيء من المخلوقات موجود.

دليل آخر: وقد قال الله تعالى: (وكلم الله موسى تكليما) ، والتكليم هو المشافهة بالكلام، ولا يجوز أن يكون كلام المتكلم حالا في غيره، مخلوقا في شيء سواه، كما لا يجوز ذلك في العلم .

دليل آخر:وقال الله تعالى: (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) سورة الإخلاص ورقمها ، فكيف يكون القرآن مخلوقا وأسماء الله في القرآن ؟ هذا يوجب أن تكون أسماء الله مخلوقة، ولو كانت أسماؤه مخلوقة لكانت وحدانيته مخلوقة، وكذلك علمه وقدرته . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

دليل آخر: وقد قال الله تعالى: (تبارك اسم ربك) ولا يقال لمخلوق " تبارك " فدل هذا على أن أسماء الله غير مخلوقة، وقال: (ويبقى وجه ربك) فكما لا يجوز أن يكون وجه ربنا مخلوقا، فكذلك لا يجوز أن تكون أسماؤه مخلوقة .

دليل آخر: وقد قال الله تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) ولا بد أن يكون شهد بهذه الشهادة، وسمعها من نفسه؛ لأنه إن كان سمعها من مخلوق فليست شهادة له، وإذا كانت شهادة له وقد شهد بها فلا يخلو أن يكون شهد بها قبل كون المخلوقات؛ أو بعد كون المخلوقات .

فإن كان شهد بها بعد كون المخلوقات؛ فلم يسبق شهادته لنفسه بإلهية الخلق، و كيف يكون ذلك كذلك ؟ وهذا يوجب أن التوحيد لم يكن يشهد به شاهد قبل الخلق، ولو استحالت الشهادة بالوحدانية قبل كون الخلق لاستحال إثبات التوحيد ووجوده، وأن يكون واحدا قبل الخلق؛ لأن ما يستحيل الشهادة عليه فمستحيل .وإن كانت شهادته لنفسه قبل الخلق بالتوحيد فقد بطل أن يكون كلام الله تعالى مخلوقا؛ لأن كلام الله شهادته

دليل آخر: ومما يدل عليه بطلان قول الجهمية، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق: أن أسماء الله من القرآن، وقد قال الله سبحانه: (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى) ولا يجوز أن يكون (اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى) مخلوقا، كما لا يجوز أن يكون (جد ربنا) مخلوقا، قال الله تعالى في سورة الجن: (وإنه تعالى جد ربنا) ، وكما لا يجوز أن تكون عظمته مخلوقة كذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقا .

دليل آخر: وقد قال الله تعالى: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) فلو كان كلام الله لا يوجد إلا مخلوقا في شيء مخلوق؛ لم يكن لاشتراط هذه الوجوه معنى؛ لأن الكلام قد سمعه جميع الخلق ووجدوه - بزعم الجهميّة - مخلوقا في غير الله تعالى، وهذا يوجب إسقاط مرتبة النبيين صلوات الله عليهم أجمعين .

ويجب عليهم إذا زعموا أن كلام الله لموسى خلقه في شجرة؛ أن يكون من سمع كلام الله عز وجل من ملك أو من نبي أتى به من عند الله أفضل مرتبة من سماع الكلام من موسى؛ لأنهم سمعوه من نبي ولم يسمعه موسى من الله عز وجل، وإنما سمعه من شجرة، وأن يزعموا أن اليهودي إذا سمع كلام الله من النبي عليه الصلاة والسلام أفضل مرتبة في هذا المعنى من موسى صلى الله عليه وسلم؛ لأن اليهودي سمعه من نبي من أنبياء الله، وموسى سمعه مخلوقا في شجرة، ولو كان مخلوقا في شجرة لم يكن مكلما لموسى من وراء حجاب؛ لأن من حضر الشجرة من الجن والإنس قد سمعوا الكلام من ذلك المكان، وكان سبيل موسى وغيره في ذلك سواء في أنه ليس كلام الله له من وراء حجاب .

و قال الراغب الأصفهاني (502 هجري / 1108 ميلادي) في كتابه " المفردات في غريب القرآن " في جميع ذلك معناه المشاركة في –الجوهر ، و الكيفية ، و الكمية و القدر ، والمساحة – جميعا . إن القرآن سجعا لكن وجود السجع في الكلام لا يجعل هذا الكلام " مثل " القرآن ، و أن هذا القرآن ، آيات جاءت منظومة ، مثل الشعر لا " يماثل " القرآن إذ لابد " للمثل" من المشاركة في جميع الوجوه ، و ليس في وجه واحد من الوجوه.

ووصل إلينا مصحف عثمان بعد أن طبع أول مرة بمدينة البندقية الإيطالية في عام 1530م ولقد بلغت العناية بالمحافظة عليه أنا لا نكاد نجد – بل لا نجد- أي خلاف بين النسخ التي لا عدد لها والمنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي الفسيحة. ومع ما أدى إليه مقتل عثمان نفسه ، بعد ربع قرن من وفاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، من قيام شيع مغضبة ثائرة زعزعت ولا تزال تزعزع وحدة العالم الإسلامي فأن قرآنا واحداً قد ظل وأتما قرآنا جميعاً. وهذا الإسلام سنها جميعاً لكتاب واحد على اختلاف العصور حجة قاطعة على أن ما أمامنا اليوم إنما هو النص الذي جمع بأمر الخليفة السيئ الحظ ، والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل أربعة عشر قرناً كاملاً ويزيد بنص هذا مبلغ صفائه ودقته. والقراءات المختلفة اليوم قليلة إلى حد يثير الدهشة ، وهذا الاختلاف محصوراً في نطق الحروف المتحركة أو في مواضع الوقف. وهذه مسائل أبدعت في تاريخ متأخر. فلا مساس لها بمصحف عثمان رضي الله عنه.

كذلك تميز القرآن وامتاز و فارق كألوان الإبداع البشري في الصنعة و الإبداع انه قرآن عربي ، لا تخرج كلماته و آياته و سوره عن حروف العربية و مفرداتها ومع ذلك فان أرباب البلاغة قد اكتشفوا – ولا يزالون يكتشفون أن الإبداع و التركيب و الصنعة في هذا القرآن الكريم قد تميزت و فارقت كل ما اعتاده البشر الذين استخدموا ذات المفردات بما في ذلك صناعة الحديث النبوي الذي صاغه الرسول – صلي الله عليه وسلم – وهو الذي أوتي بجوامع الكلم. ونسوق مثلاً واحداً ، وما أكثر الأمثلة على ذلك ، الآية الواحدة والثلاثون من سورة النور اشتملت على خمسة وعشرين ضميراً لجماعة الإناث.

فلقد أصاب الدكتور طه حسين "1306-1393هـ /1889-1973م لأنه أحد بلغاء العصر كبد الحقيقة عندما قال " إن الكلام العربي : شعر.. ونثر.. و قرآن "و علي سبيل المثال ، فان أسلوب القرآن و صنعته يتفردان – دون كل صناعات الأساليب البشرية -باستخدام كلمة " المطر" في العذاب و الأذى والانتقام- أما في السراء فيستخدم كلمة " الغيث ".. أو يستخدم مصطلح " التغيير" السلبي ، وفي الإيجابي يستخدم مصطلح " الإصلاح" ، و " المرضع" – في القرآن – هي المرأة في حال الإرضاع ، و " الجسم" – في القرآن – يأتي للحي، أما الميت فهو "جسد".. أو " السنة" تأتي للشمسية بينما " العام" يأتي للقمرية أو " القسم" يأتي لمطلق اليمين ، بينما " الحلف" هو للحنث في اليمين وهناك فارق بين " المجيء" وبين " الإتيان".

في القرآن الكريم – فالمجيء يكون من مكان أو زمان قريب..بينما الإتيان في حالة المكان أو الزمان البعيد! و كلمة " العباد" تغلب في المؤمنين المطيعين ، بينما كلمة " العبيد" تغلب في الكفار العصاة! ولقد جاءت " السماء " – في القرآن الكريم – مفردا و جمعا بينما جاءت الأرض مفردة فقط ودائما وجاء " السمع " مفردا ، فقط..وجاء " النهار " مفردا ، وإذا جمع استخدام لفظ " أيام " لا نهر وجاء " الصراط " مفردا وإذا أريد الجمع استخدام لفظ " سبل " وجاء " النور " مفردا، لا جمعا و جاءت " الظلمات " جمعا لا مفردا! وكان التزام الجمع في " الألباب" و " الأكواب " و " الأصفاد " و " الأباريق " و " السرابيل " و " الأساطير " و " الأرائك " و " العالمين " ولم يرد أي منها مفردا ففارقت الصنعة في القرآن الكريم كل صناعات الأساليب البشرية ، بما في ذلك الحديث النبوي الشريف.

في القرآن الكريم من اوجه التناسب ما يعلو به علي آية " هندسة" بشرية في أي أسلوب من الإبداعات الإنسانية و علي سبيل المثال فالحروف المعروفة التي بدأت بها السور القرآنية مثل " آلم" و " حم" و " الر" الخ ... قد اشتملت علي نصف حروف الأبجدية العربية -أربعة عشر حرفا وفي هذه الحروف الأربعة عشر حرفان منقوطان- هما " ق،ن" واثنا عشر حرفا غير منقوطة وفي أحرف الأبجدية الأخرى الأربعة عشر حرفان غير منقوطين هما " و، د " والاثنا عشر الأخرى الباقية منقوطة

وفي هذه الحروف التي بدأت بها بعض السور نصف الحروف المهموسة في الأبجدية العربية و نصف الحروف المقلقلة! ونصف الحروف المهموزة! وفيها من مخارج الحروف النصف من حروف كل مخرج! وإذا كان القرآن الكريم قد بدا ب " الحمد لله رب العالمين " -في سورة الفاتحة فان كل أرباع القرآن الكريم الأربعة قد بدأت ب " الحمد لله" فالربع الثاني يبدأ بالأنعام- " الحمد لله الذي خلق السماوات و الأرض" و الربع الثالث يبدا بالكهف " الحمد لله الذي انزل علي عبده الكتاب " و الربع الرابع يبدا بفاطر " الحمد لله فاطر والأرض " وفي هذه القطرة من البحر البرهان علي أن هذه الهندسة المفارقة لكل ألوان هندسات الأساليب البشرية ، وهي إشارة إلى كنوز الأعجاز المودعة في هذا القرآن الكريم الذي لا تنتهي عجائبه ولان الصنعة لا يدرك قدرها ومستواها إلا " الصناع" ولان العلم لا يدرك أسراره إلا العلماء رأينا شهادات أهل صناعة البلاغة لأعجاز هذا القرآن و بتفرده ولمفارقته طاقات البشر والمعتاد و الميسور للناس.
فأبو عبد شمس الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم (527-622م) وهو من زعماء قريش و زنادقتها ومن قضاة العرب في الجاهلية – والملقب "بالعدل" لانه كان عدل قريش كلها عندما سمع رسول الله صلي الله عليه وسلم – ويتلو- وهو في المسجد- صورة " غافر" – أدرك رغم شركه – انه أمام صنعة إعجاز مفارقة لقدرات البشر و عاداتهم و إمكاناتهم فقال " والله لقد سمعت من محمد كلاما آنفا ما هو من كلام الأنس ولا كلام الجن والله ما هو بكاهن ، فقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، والله ما هو مجنون فقد رأينا الجنون و عرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . والله ما هو بشاعر فقد عرفنا، الشعر كله ، رجزه و هزجه وقريضه و مقبوضه ومبسوطه ، فما هو بشاعر والله ما هو بساحر ، فقد رأينا السحار و سحرهم ، فما هو بنفثه ولا عقده ، والله أن لقوله حلاوة وان عليه طلاوة وان اصله لمغدق ، وان فرعه لمثمر وانه يعلو ولا يعلي عليه وما انتم -" يا معشر قريش "- بقائلين " فيه" من هذا شيئا إلا وأنا اعرف باطل .
أن القرآن الكريم قد بدل الحياة الاجتماعية تبديلا هائلا نور الآفاق وملائها بالسعادة والحقائق ، وأحدث انقلابا عظيما سواء في نفوس البشر وقلوبهم ، أو في أرواحهم وعقولهم ، أو في حياتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية ، وأدام هذا الانقلاب وأداره ، بحيث أن آياته البالغة ستة آلاف وستمائة وستاً وستين آية تتلي منذ أكثر من أربعة عشر قرنا في كل آن بألسنة أكثر من مليار مليون شخص في الأقل بكل إجلال واحترام ، فيربي الناس ويزكي نفوسهم ، ويصفي قلوبهم ، ويمنح الأرواح انكشافا ورقيا ، والعقول استقامة ونورا ، والحياة حياة وسعادة فلا شك أنه لا نظير لمثل هذا الكتاب ولا شبيه له ولا مثيل . فهو خارق ، وهو معجزة.

وتحدي الله سبحانه وتعالي به جميع الخلائق أن يأتوا بمثله أو ببعض منه فثبت عجزهم كما أن الله سبحانه وتعالي تكفل بحفظه إلي أن يرد الأرض من عليها فلا تمتد له يد تحريف أو تبديل بالإضافة إلي الهدف من القرآن ليس التبرك به أو دفع النوازل بسببه أو الترحم على الأموات بقراءته فغاية القرآن صناعة أمة الإسلام على عين الله بحيث تتميز في عقائدها وعبادتها وأخلاقها فتحتل مكان الصدارة على غيرها في هذه الدنيا فإذا كان يوم القيامة نالت شرف الشهادة على الناس جميعا.

أن القرآن الكريم قد أظهر بلاغة أيما بلاغة ، منذ ذلك العصر إلى زماننا هذا ، حتى أنه حط من قيمة " المعلقات السبع " المشهورة وهي قصائد أبلغ الشعراء ، كتبت بالذهب وعلقت على جدران الكعبة المشرفة ، حتى أن ابنة " لبيد"[38] أنزلت قصيدة أبيها من على جدار الكعبة قائلة : " أما وقد جاءت الآيات فليس لمثلك هنا مقام "

وكذا عندما سمع أعرابي أديب الآية الكريمة : " فاصدع بما تؤمر " الحجر / 94 خرسا جدا فقيل له : أسلمت ؟

قال : لا ، بل سجدت لبلاغة هذه الآية

وكذا ، فإن آلافا من أئمة البلاغة وفحول الأدب ، مثال : عبد القاهر الجرجاني[39] ، والسكاكي[40] ، والزمخشري[41] ،قد أقروا بالإجماع والاتفاق : " إن بلاغة القرآن فوق طاقة البشر ولا يمكن أن تدرك "

وكذا ، فإن القرآن الكريم منذ نزوله – ومازال – يتحدى كل مغرور ومتعنت من الأدباء والبلغاء ، وينال من عتوهم وتعاليمهم ، تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ... أو أن يرضوا بالهلاك والذل في الدنيا والآخرة..

وبينما يعلن القرآن تحديه هذا ، إذا ببلغاء ذلك العصر العنيدين قد تركوا السبيل القصيرة وهي المضاهاة والمعارضة والإتيان بسورة من مثله ، سالكين السبيل الطويلة ، سبيل الحرب التي تأتي بالويل والدمار على الأرواح والأموال ، مما يثبت اختيارهم هذا أنه لا يمكن المسير في تلك السبيل القصيرة

---

(38) لبيد بن ربيعة العامري أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية ، أدرك الإسلام ، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم ويعد من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم ، وترك الشعر ، وهو أحد أصحاب المعلقات ، وكان كريماً....(الأعلام للزركلي)

(39) توفى عام 471هـ / 1078م ، إمام في اللغة والأدب ، له مصنفات منها كتاب المغني (30 مجلد) ، المقتصد (3 مجلدات) ، إعجاز القرآن ، المفتاح ، دلائل الإعجاز ، أسرار البلاغة.

(40) هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت 626 هـ / 1228م) ، من أعلام البلاغة ، مؤلف كتاب " المفتاح" الذي يعد أوسع ما كتب في البيان في زمانه وله شروح كثيرة. وضع علوم البلاغة في قالبها العلمي. مولده ووفاته بخوارزم.

(41) هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري جار الله. ولد بزمخشر سنة 467هـ/1075م توفى بعد رجوعه من مكة المكرمة 538هـ /1143م إمام عصره في اللغة والتفسير ، له "الكشاف عن حقائق التنزيل" و "الفائق في غريب الحديث" ، و"المفصل" في النحو ، و"أساس البلاغة" وغيرهما.

وكذا ، ففي متناول الأيدي ملايين الكتب العربية التي كتبها أولياء القرآن بشغف اقتباس أسلوبه وتقليه أو كتبها أعداؤه لأجل معارضته ونقده ، فكل ما كتب ويكتب ، مع التقدم والرقي في الأسلوب الناشئ من تلاحق الأفكار- ومنذ ذلك الوقت وإلي الآن – لا يكن أن يضاهي أو يداني أي منها أسلوب القران ، حتى لو استمع رجل عامي لما يتلي من القرآن الكريم لاضطر إلى القول : أن هذا القران لا يشبه أيا من هذه الكتب ، ولن يستطيع إنسان كائنا من كان ، ولا كافر ، ولا أحمق أن يقول : أنها أسفل الجميع ، فلابد إذا أن مرتبة بلاغية فوق الجميع ، حتى قد تلا أحدهم الآية الكريمة : " سبح لله ما في السماوات والأرض الحديد لا ثم قال : " أني لا أري الوجه المعجز الذي ترونه في بلاغة هذه الآية الكريمة " فقيل له :" عد بخيالك – كهذا السائح – إلي ذلك العصر واستمع إليها هناك "

وبينما هو يتخيل نفسه هناك فيما قبل نزول القرآن الكريم ، إذا به يري أن موجودات العالم ملقاة في فضاء خال شاسع دون حدود ، في دينا فانية زائلة ، وهي في حالة بائسة مضطربة تخبط في ظلمة قائمة ، وهي جامدة دون حياة وشعور ، وعاطلة دون وظيفة ومهام ، ولكن حالما أنصت إلى هذه الآية الكريمة وتدبر فيها إذا به يري أن هذه الآية قد اكشفت حجابا مسدلا عن وجه الكون وعن وجه العالم كله حتى بأن ذلك الوجه مشرفا ساطعا ، فألقي هذا الكلام الأزلي والأمر السرمدي درسا على جميع أرباب المشاعر المصطفين حسب العصور كلها ومظهرا لهم :

أن هذا الكون بحكم مسجد كبير ، وأن جميع المخلوقات – ولا سيما السماوات والأرض – منهمكة في ذكر وتهليل وتسبح ينبض بالحيوية . وقد تسنم الكل وظائفهم بكل شوق ونشوة وهم ينجزونها بكل سعادة امتنان.. وهكذا شاهد هذا السائح – في ملكوت الله – سريان مفعل هذه الآية الكريمة في الكون ، فتذوق مدي سمو بلاغتها ، وقاس عليها سائر الآيات الكريمة ، فأدرك السر في هيمنة بلاغة القرآن الفريدة لنصف الأرض وخمس البشرية وعلم حكمة واحدة من الآف الحكم لديمومة جلال سلطان القرآن الكريم بكل توفير تعظيم على مدي اكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان دون انقطاع[42].

---

[42] رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي (1293- 1379هـ / 1876-1960م) هي إحدى معجزات القرآن الكريم في هذا العصر وهي موسوعة إيمانية رائعة تسد حاجة هذا العصر وتخاطب مدارك أبنائه بلغة هذا العصر ، وهي تفسير عصري شهودي لحقائق الإيمان تمتزج فيه الروح باللطائف الأخرى ، وتدحض أكاذيب الفلاسفة الماديين وشباتهم حول القرآن الكريم ، ألفت هذه الرسائل على يد عالم استطاع – بفضل الله – أن يهز تركيا من أدناها إلى أقصاها وأن يرفع صوت القرآن عالياً يوم كان صوت الكفر والإلحاد أشد ما يكون – واستطاعت رسائله تلك – بسر القرآن الكريم – أن تصد هجمات الكفر والضلالة عن العالم الإسلامي.

والآن ، وقد تبين أن القرآن الذي نتلوه إنما هو نص مصحف عثمان لم يتغير ، فعلينا أن نبحث أهذا النص هو صورة مضبوطة لما جمع زيد بعد الاتفاق علي إزالة ما كان في التلاوة من اوجه خلاف قليلة! لعدد قليلة الخطر! وكل ما لدينا مقتنع تمام الاقتناع بان الأمر كذلك ، فليس في الأنباء القديمة أو الجديدة من بعد انه اغفل بعض الآيات تزكي عليا ، لكن العقل لا يسوغ هذا الزعم : فلم يكن قد نجد أي خلاف بين الأمويين حين أقر مصحف عثمان ، بل كانت وحدة الإسلام قائمة جينذاك لا يهددها شيء ثم إن علياً بن أبي طالب لم يكن قد صور مطالبة في صورتها الكاملة ، فلم يكن غرض من الأغراض إذا ليدفع عثمان إلى ارتكاب إثم ينظر إليه المسلمين بعين المقت غاية المقت ، ولقد كان عدد كبير ممن وعت قلوبهم القرآن سمعوه حين تلاه النبي صلى الله عليه وسلم أحياء حين جمع عثمان المصحف . فلو أن آيات تزكي عليا كانت قد نزلت لوجدت نصوصها بين يدي أنصاره الكثيرين ، وهذان السببان كانا كفيلين بالقضاء علي كل محاولة لإغفال هذه الآيات . يضاف إلى ذلك أن شيعة علي استقلوا بأمرهم بعد وفاة عثمان و بايعوا عليا بالخلافة افيقبل العقل انهم وقد وصلوا إلى السلطة ، يرضون عن قرآن مبتور و مبتور قصدا للقضاء علي أغراض زعيمهم؟! مع ذلك ظلوا يتلون القرآن الذي يتلوه خصومهم ، ولم يثيروا أي ظل من الاعتراض عليه : بل انه عليا قد أمر بان تنشر نسخ كثيرة منه ويقال انه كتب بخط يده عددا منها ، صحيح أن الثائرين قد جعلوا من أسباب انتقاضهم أن عثمان جمع القرآن وأمر بإهلاك ما سوي مصحفه من المصاحف ، واعتراضهم إنما ينصب علي إجراءات عثمان لذاتها و يعتبرها محرمة لا تجوز ، لكن لم يشر أحد فيما وراء ذلك إلى تحريف في المصحف أو بدال ، فمثل هذا الزعم ظاهر الفساد يومئذ ، وإنما إبداعه الشيعة من بعد لأغراضهم .

ونقول في آخر الأمر أنه لا بد من إصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقياً لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح. وقد صنف هذا الإصلاح الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في كتابه وجوب التعاون بين المسلمين ، ص 5 ، أن الجهاد بالحجة والبرهان واللسان .....فإن من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين ، واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية.

ولكن الصراع تحول بعد ذلك ، إلى قمته ، إلى صراع حضاري ، بدأ هذا الصراع الحضاري مع تحول الدولة العباسية ، وهي الدولة الإسلامية ، المناطحة للرومان ، في شرق أوروبا ، إلى دولة علمانية تبعد عن الصبغة الدينية بعد أن سيطر المعتزلة على سدة الحكم لاغين بالطبع السلطة على أساس ديني أو أرثوذكسي في عام 832م وكان هذا انقلاب فلسفي داخل نظام الحكم الإسلامي . مما جعل الحضارة الإسلامية ذات الطابع العلماني كانت مثار اهتمام الحضارة الغربية. والتي تمثلها الدولة البيزنطية التي تأثرت في عام 726م بالمؤثرات الإسلامية ، في كراهة المسلمون لتصوير الإنسان ، على اعتبار أن عبادة الصور والأيقونات نوع من أنواع عبادة الأصنام التي يكرها المسلمون.

وكانت الدولة البيزنطية تعتبر أن الإسلام متمم للحركات الدينية التي قامت في الشرق وهرطقت -أي اتهمتم بالكفر- وكان ليو الثالث Leo III (717-741م)متأثراً في ذلك بيزيد الثاني بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي التاسع بإزالة الأيقونات من الكنائس المسيحية بالدولة الأموية ، فقام بإصدار القرار في عام 726م ، بإزالة الأيقونات والصور من الكنائس ، تلك القضية التي كانت لها خطورة على المسيحية ، حتى ما أقر المجمع الديني السابع في عام 787م ، بموافقة أدريان الأول (772-795م) Adairan I أن تعقد الصور والأيقونات في الكنائس[43] تلك القضية التي ستفصل ما بين الغرب والشرق ستحافظ الكنيسة الغربية على ولائها كما كانت من قبل منذ عهد ترتليان لأن منطقة غير حضارية على النقيض من الدولة البيزنطية التي تعمل على تقوية ذاتها في شرق أوروبا في عشرينيات القرن العاشر الميلادي مستغلة في ذلك الضعف الذي اعترى الدولة العباسية ، وعندما تأكد للحضارة الرومانية استقرارها أخذ في إرسال البعثات التبشيرية داخل العالم الإسلامي مستغلة وضع الخزر المبتعدين في بحر قزوين ، فأرسلت لهم في عام 860م القديس سيريل اليوناني Cyril وأخاه ميثوديوس Methodius لتنصير ذلك شعب الخزر ، ولكنها فشلت ، فلم يعمد سوى 200 شخص فقط ، فتوجه الأخوان إلى وسط أوروبا لتنصير تلك الشعوب ، وفصلهم عن العالم الإسلامي الغازي بنفوذه شرق أوروبا. فنجح باسيل الأول Basil I في السيطرة على قلعة اللؤلؤة في عام 876م ، والتي تسيطر على الطريق من طرسوس إلى القسطنطينية. ثم تطورت المسيحية في عام 877م ، وعادت تناقش من جديد ، موضوع العمل الصالح ، وأن الإنسان في هذه الحالة ، مخير وليس مسير، وفقاً للإرادة الإلهية ، وأن الرب قام بخلق الأرض بعد أن وجد الحكمة من خلقهم أساسية ، ولم تخلق من العدم ،

---

43 محمد محمد مرسي الشيخ ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1994م (118-143) بتصرف ويعلق جيبون المؤرخ ولا تزال قوانين هذا المجلس موجودة كأثر عجيب للخرافة والجهل والزيف والحماقة

وكان هذا الفكر دافع جديد لقيام مناقشات إسلامية مسيحية من جديد. ومن ظهر ظاهرة المد البيزنطي في العالم الإسلامي ومن وقتها عرف الغرب ضعف المسلمون السياسي ، الذي دفعهم إلى إعلان الحرب عليهم سياسياً وحضارياً ،حتى وصل الحال بالمسلمين أن يتناثروا ويضعفوا وتحكم الدولة الحمدانية (293- 460 هـ / 905-1068م) شمال سوريا، والعراق ، المتاخم للإمبراطورية البيزنطية ، وهذه دولة على الرغم من ثقلها الحضاري ، إلا أنها دولة فقيرة من الوجهة السياسية أمام البيزنطيين. ومن هنا اشتد النزاع الإسلامي المسيحي في عام 964م والتي حدث أن قتل من أهل المصيصة في شمال سوريا ، العديد وأسر ما يقرب من 200 ألف شخص إلى القسطنيطنية. وامتد الإمبراطور البيزنطي نفقور فوقاس Nacfor Vocuas (913-969م) أذاه إلى طرابلس بلبنان في عام 968م ، الذي دمر أرباضها. ولم يكتفي بهذا المسيحيين بل فرضوا الجزية على الدولة الحمدانية في شمال العراق في عام 974م ، في عهد الإمبراطور البيزنطي حنا زمسكيس Hanna Xemaksis (924-976م) الذي لم يكف أذاه سوى الوفاة في عام 976م. ولم يتوقف هذا المد حيناً من الزمن إلا هزيمة نهر العاصي في عام 994م على يد الفاطميين بقيادة منجوتكين على الإمبراطور باسيل الثاني. وما مرت به الإمبراطورية البيزنطية من اضطرابات استمرت لفترة طويلة حتى عام 1059م.

حتى ما عادت الحرب المنظمة من جديد التي كانت لصالح المسلمين بعد هزائم دامت ما يقرب من 118 عاماً ، وهو سيطرة السلاجقة على تركيا ، وضمها لحظيرة العالم الإسلامي مع حلول عام 1071م ، حتى ما أتى المد الجديد الذي يؤكد على ظهور حضاري جديد بعد الصراع الطاحن ما بين الإسلام الممثل في الدولة العباسية ، والمسيحي الممثل في الدولة الرومانية الشرقية ، التي تهالكت ولم يعد لها جدوى ، بعد فشلها الذريع أمام المسلمين في عام 994م. حتى وصل الحال بأن ظهر السلاجقة كقوة تعيد الحصار على عاصمتها القسطنطينية الذين أخذوا في حصارها ما بين عامي 1091-1092م. فاقتنعت الدولة البيزنطة في أن صراعها مع المسلمين كان عبارة عن تناحر حضاري ، لم تستطع مقاومته، فعرفت كفاح الغرب الأوروبي الذي سيأتي في هذه اللعبة ، ويعلن الحروب الصليبية ، بعد أن رأت نجاح الإسبان بعد الثورة الدينية العامة لها ، في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي ، وطرد المسلمين من سويسرا ، وفرنسا ، وإيطاليا عام 1090م ، لذلك اقتنعت بدورهم التاريخي والحضاري في المواجهة. فلما آن لدورة التاريخ أن تدور ، طرد النصارى المسلمين من الأندلس ، حاربوهم الحروب الصليبية وأخذا يطعنون في دينهم ونبيهم طعنا كله فحش وكذب وافتراء ، ونسوا في فحشهم ما بلغ محمد عليه السلام في أحاديثه ، وما بلغ القرآن في الوحي الذي نزل عليه من رفع مقام عيسى عليه السلام إلي المستوي الذي رفعه الله إليه. لذلك دخل العصر الصليبي الذي أعلن الحرب ما بين الإسلام والمسيحية ، في جميع مناحي الحياة السياسية والعسكرية والحضارية.

لقد صنعت أوروبا – في عصورها الوسطي – كل ذلك الافتراء على الإسلام ورسوله وقرآنه وأمته وحضارته، لتأجيج نزعة الصراع وثقافة الصدام التي تشحن الوجدان العربي ، وتجيش الجيوش للحملات الصليبية (489 – 690 هـ / 1096 – 1291 م) التي دامت قرنين من الزمان ، والتي لم تفلح لغتها الدينية في إخفاء مطامعها المادية ومقاصدها الاقتصادية حتى في خطاب البابا الذهبي " أوربان الثاني " Uraban II (1088 – 1099 م)الذي أشعل تلك الحروب .. والذي وجهه إلي فرسان الإقطاع الديني . وقال فيه:

" يا من كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا .. لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم حتى الآن تستخدمنها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن .. هي في حق الله عينه .. وليست هي لاكتساب مدينة واحدة .. بل هي أقاليم آسيا بجملتها ، مع غناها وخزائنها العديمة الإحصاء .. فاتخذوا لحجة القبر المقدس ، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين ، وأنتم املكوها لذواتكم - فهذه الأرض حسب ألفاظ التوراة – تفيض لبنا وعسلا.. ومدينة أورشليم هي قطب الأرض المذكورة والأمكنة المخصبة المشابهة فردوسا سماويا .. اذهبوا وحاربوا البربر – يقصد المسلمين – لتخليص الأراضي المقدسة عن استيلائهم وهذا هو الحين الذي فيه أنتم تكفون عن كثرة الاغتصابات التي مارستموها عدوانا.. ومن حيث أنكم صبغتهم أيديكم بالدم ظلما فاغسلوها بدم غير المؤمنين – أي المسلمين!.

لقد أعطي البابا الذهبي " الفرسان اللصوص " مفاتيح الجنة ليحاربوا المسلمين ، وليغسلوا أيديهم المصطبغة بالدماء في حروبهم الإقطاعية ، يغسلوها ويطروها بدماء المسلمين.. وليمتلكوا كل أقاليم آسيا الخصبة ، التي تدر لبنا وعسلا ، والتي تشبه – في الخصب – فردوسا سماويا.. وذات الخزائن التي تعز على الإحصاء.

ولقد استفزت هذه الغزوة الصليبية الأولي روح الجهاد الإسلامي ، لتحرير القدس وفلسطين فقامت دول الفروسية الإسلامية – الدولة الزنكية (521 – 648 هـ 1127 – 1250 م) والأيوبية (567 -648 هـ - 1711 -1250 م) والمملوكية (648 -922 هـ - 1250 – 1517 م) – قامت لتقذف بالقلاع والحصون والجيوش الصليبية إلي حيث أتت .. ولتعيد – بالجهاد الإسلامي – تحرير الشرق ثانية من الاستعمار الصليبي الاستيطاني. حيث جاءت الحملات الصليبية الغريبة (489 – 690 هـ 1096 – 1291 م) لتحول المسجد الأقصى إلي إسطبل خيل وكنيسة لاتينية ، منتهكة حرمة هذا الحرم المقدس الشريف. الذي هو – عند المسلمين – أولي القبلتين ، وثالث الحرمين ، وأحد المساجد الثلاثة التي تنفرد بأن تشد إليها الرحال..جاء الصليبيون فحولوه إلي إسطبل خيل وكنيسة لاتينية لما يقرب من تسعين عاما (492 – 587 هـ 1099 – 1183 م)..حتى حرره صلاح الدين الأيوبي (532 -589 هـ 1137 – 1193 م).

اكاذيب العصر الصليبي

لقد نسب المبشرون – " المنصرون الأوروبيون " – نجاحات الأمم الأوروبية إلي الدين المسيحي مثلما عزوا إخفاق العالم الإسلامي إلي الإسلام فصورت المسيحية على أنها بطبيعتها ملائمة المتقدم وقرن الإسلام بالركود الثقافي والتخلف وأصبح الهجوم على الإسلام على أشد ما يكون وبعثت حجج العصور الوسطي بعد أن أضيف إليها زخارف عصرية . وبفضل الصحافة والأدب الشعبيين وكتب الأطفال أخذت هذه النظرية تتسرب إلي عقول الجماهير الغفيرة من الأوروبيين ولم تخل من تأثير على العلماء أنفسهم وخصوصا حين كانوا ينبرون لتقديم النصح إلي أولئك الذين كانوا يوجهون سياسات الحكومات الاستعمارية

هكذا ورثت الإمبريالية الغريبة في صراعها مع حضارة الإسلام أكاذيب العصر الصليبي وغدا هذا الميراث الكاذب " علما" يقدمه " العلماء" الذين خدموا وزارت المستعمرات لاساطين السياسة الاستعمارية الغربية في العصر الحديث ... عصر العلم والعقلانية والتنوير!.

صور غريبة مريضة

فلقد حدث " في نظر الأوروبيين في مطالع العصور الوسطي " تحول في القوى والأقسام البعيدة من الشرق وقام شعب هائج وهم العرب أو الراسانة " البدو" عرف بالسلب والنهب .. قام هذا الوباء الموجع فاجتاح وخرب أراضي واسعة وانتزعها من قبضة المسيحية.

كما حدث أن الكتاب اللاتين الذين اخذوا بين سنة 1100 وسنة 1140 م على عاتقهم إشباع حاجة الإنسان العامي يوجهون اهتمام العامة نحو حياة محمد دون أي اعتبار للدقة فأطلقا العنان " لجهل الخيال المنتصر" فكان محمد – في عرفهم – ساحرا ، هدم الكنيسة في أفريقيا وفي الشرق عن طريق السحر والخديعة وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية.. فهو كبير الهه الراسنة.. والصنم الرئيسي في الثالوث الذي يعبده المسلمون .. تصنع تماثيله من مواد غنية وذات أحجام هائلة

وغير شهادة " مكسيم رودنسون " Maxim Rodeson تشهد المستشرقة الألمانية " سيجريد هونكة Segeard Honker " على فظاعة الصورة التي صنعها الغرب العرب والمسلمين ودينهم ورسولهم – صلي الله عليه وسلم – ليشحن بها وجدان العامة في الصراع ضد حضارة الإسلام . فتقول:

"لقد استقر في أذهان السواد الأعظم من الأوروبيين : الازدراء الأحمق الظالم للعرب الذين وصمهم جهلا وعدوانا.. بأنهم رعاة الماعز والأغنام الأجلاف لابسو الخرق المهلهلة.. عبدة الشيطان ومحضرو أرواح الموتى والسحرة وأصحاب التعاويذ وأعمال السحر الأسود الذين حذقوا هذا الفن واستحوذ عليهم الشيطان ، تحرسهم فيالق من زبانيته من الشياطين وقد تربع على عرشهم الصنم الذهبي " لما هومد " – " مخيميد " – وقد ركعت تحت أقدامه قرابين بشرية يذبحها اتباعه قربانا وزلفي إليه .. فهم خلق غريب غير متحضرين متطفلون على الحضارة الهللينية الإغريقية مستبعدون من العالم الهلليني.. وأقصي القول في هؤلاء المحمديين الدنيئين : انهم ديدان حقيرة.. وسفلة أوغاد .. أعداء الله.. وأعداء المسيح لأنهم يعبدون الدرك الأسفل من الشياطين.. وعالمهم هو عالم الخرافات والأساطير وبلادهم بلاد الأضاحي البشرية من أجل صنم ذهبي اسمه محمد تسهر على سلامته عصبة من الشياطين.

لقد حررت الفروسية الإسلامية القدس وفلسطين من الغزاة .. ولكنها - بسماحة الإسلام – أبقت المدينة المقدسة مفتوحة لكل أصحاب المقدسات .. وأعلن ذلك صلاح الدين الأيوبي (532 – 589 هـ 1137 – 1193 م) في رسالته إلي الملك الصليبي " ريتشارد قلب الأسد " Richard II

(1157 م – 1199 م) فقال : " القدس إرثنا كما هي إرثكم .. من القدس عرج نبينا إلي السماء .. وفي القدس تجتمع الملائكة.. لا تفكر بأنه يمكن لنا أن نتخلى عنها كأمة مسلمة أما بالنسبة إلي الأرض ، فإن احتلالكم فيها كان شيئا عرضيا، وحدث لأن المسلمين الذين عاشوا في البلاد حينها كانوا ضعفاء ، ولن يمكنكم الله أن تشيدوا حجرا واحدا في هذه الأرض طالما استمر الجهاد "..

فالجهاد الإسلامي هو سبيل التحرير لهذه الأرض المقدسة ، لا لتكون احتكارا المسلمين وحدهم .. كما احتكرها الرومان ، في عهد وثنيتهم وفي عهد نصرانيتهم .. وكما احتكرها الصليبيون عندما احتلوها قرابة التسعين عاما (492 – 538 هـ 1099 – 1187 م).. وكما يحتكرها اليوم – الصهاينة - وإنما يحررها الجهاد الإسلامي ، ليشيع قدسيتها بين جميع أصحاب المقدسات ، لأن الإسلام وحده هو الذي يؤمن ويعترف بأنبياء وشرائع مقدسات كل أصحاب المقدسات!.

ومن هنا كانت الحرب الصليبية ، حرب مقدسة ، بالنسبة للشعوب المشتركة ، فيها ويكفيك أول حرب إعلامية حقيقية ، بعد انتصارات صلاح الدين الأيوبي ، في طرد الصليبيين ، حيث صوروا السيد المسيح عليه السلام، وجعلوا معه، صورة رجل عربي يضربه بعصا ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح ، وقالوا هذا المسيح، يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله.

وهذا يؤكد أن الغرب أخذ يشبع ذاته في الصراع الحضاري بعد أن نهل الغرب مع أواخر القرن الثاني من الحضارة الإسلامية ، لكي يعرف ماهية أسرارها ، ثم يطور ذاته بإنشاء الجامعات الغربية والتنظيم المؤسساتي لها مع حلول القرن الثالث عشر الميلادي. ووجد الغرب نفسه في عام 1216م أن يعيد الهراطقة إلى الكنيسة الكاثوليكية من خلال الوعظ والتبشير ، وضرب المثل الحي في التقوى والورع والزهد. حتى يتطور به الحال أن يصفي القارة الأوروبية من الوجود الإسلامي بإظهار محاكم التفتيش في عام 1227م.

فلما تحالفت الصليبية الغربية مع الوثنية التترية ضد الإسلام وأمته وحضارته .. وهددت الغزوة التترية الوجود الإسلامي.. وأرسل " هولاكو" (614 – 663 هـ 1217 – 1265 م) إلي حكام مصر – المماليك – إنذاره المزلزل الذي قال فيه – مخاطبا الملك المظفر قطز (658 – 1260 م)

" أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه.. ولقد فتحنا بغداد ، وقتلنا فرسانها ، وهدمنا بنيانها ، وأسرنا سكانها.. فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، وتقدموا على الأخطاء. فنحن لا نرحم من بكي ، ولا نرق لمن اشتكي، وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا بالطلب ، فأي أرض تؤويكم ؟ وأي طريق ينحيكم ؟ وأي بلاد تحميكم ؟ أن كنتم في الجبال خسفناها ، وأن كنتم في الأرض خسفناها ، فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، قلوبنا كالجبال ، وأعدادنا كالرمال ، فمن طلب حربنا ندم .. فالحصون معنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع فاتعظوا بغيركم ، وسلموا إلينا أمركم .. ولقد أعذر من أنذر "

فلما أرسل " هولاكو" – المتحالف مع الصليبية الغربية – هذا الإنذار المزلزل ، الذي جعل البعض يحسبون – من هوله – " أن القيامة قد قامت " ألما حدث ذلك استنفر الجهاد الإسلامي طاقات الأمة ومعدنها النفيس .. فأذاقت هذه الغزوة التترية المدمرة أول هزائمها التاريخية في "عين جالوت" (658 هـ 1260 م) .. ثم كان الجهاد الإسلامي – الفكري – الجهاد الكبير بالقرآن الكريم " وجاهدهم به جهادا كبيرا " (الفرقان 52) الذي هدى هذه القوة المدمرة إلي الإسلام.. وحولها إلي سيف من سيوف الجهاد الإسلامي في سبيل حضارة الإسلام ودار الإسلام!.

ومن خلال هذه العوامل التي مر بها الغرب تطور الحال مع المسيحيين أن ظهرت فلسفة في الغرب تدعى الاسمانية على يد القديس الفرنسي روسلان (1050-1120م) Rosslian والتي دعت إلى المادية وتعتبر بذلك أول حركة للاتجاه المادي في الفلسفة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي والتي تأثر بها كل القديسين والتي أثارت جدل مع الكنيسة الغربية في محاولة للخروج منها ، والتي أثارت الكنيسة الغربية في أن تعقد مجمع ديني ، من أجل هذه الحركات في عام 1215م التي اعتبر مهرطقة ورفض أي نظام للرهبنة والديرية من خلاله ، واعتبر البابا إينوسنت الثالث (1161-1216م) Innocent III وقتها أن السلطة الروحية ، تعلو أي سلطة زمنية للحكام ، على الرغم من أنها هذه المنظمات تقوم بعود الملحدين إلى الكنيسة الغربية ، إلا أنها أثارت جدلاً بعد ذلك ، في الحياة الفكرية في أوروبا ولكن كانت المسيحية في ازدياد تعصبها ضد الإسلام لحمايتها نفسها من أي غزو فكري ، أو ثقافي ، أو سياسي فمن الحقيقي ، أن الغرب بعد الحملات الصليبية استبعد الهجوم من جديد من الوجهة السياسية لكنه لم يستبعد غزو فكري جديد كما فعل ابن رشد لذلك قامت موجة

التشنيع ضد الإسلام

إن محمد صلى الله عليه وسلم كان رجلا عاش حياة داعرة وتجاوز خبثه حدود الدناءة والانحطاط ولم يتورع خيالهم عن الادعاء بأن رسول الإسلام كان في الأصل كاردينالا كاثوليكيا تجاهلته الكنيسة في انتخابات البابا ، فقام بتأسيس طائفة ملحدة في الشرق انتقاما من الكنيسة واعتبرت أوروبا المسيحية في القرون الوسطي محمدا المرتد الأكبر عن المسيحية الذي يحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية!

أما الأكبر فلاسفة الكاثوليكية – القديس الإيطالي توما الاكويني " Thomas Aquicans 1225 – 1274م " فإنه يتحدث عن رسول الإسلام – صلي الله عليه وسلم فيصوره للثقافة الكاثوليكية بقوله : لقد أغوى محمد الشعوب من خلال وعودة لها بالمتع الشهوانية وحرف جميع الأدلة الواردة في التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التي كان يتلوها على أصحابه ، ولم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من البشر الذين كانوا يعيشون في البادية!!.

مؤسسات الهيمنة الغربية

تلك هي الصورة التي صنعتها مؤسسات الهيمنة الغربية للإسلام أمته ورسوله وعالمه وشحنت بها – كما تقول المستشرقة الألمانية " سيجريد هونكة " – " أذهان السواد الأعظم من الأوروبيين" وهي صورة لا تزال بقاياها حية في الكتب المدرسية الأوروبية والغربية وفي أفلام هوليود وفي الإعلام الغربي حتى القرن الواحد والعشرين!

وإذا كانت الملاحم الشعبية قد مثلث – في العصور القديمة – ما يمثله الإعلام في عصرنا الأوسع في الانتشار والأشد في التأثير.. فإن " ملحمة رولاند " – التي نظمها الشاعر القسيس " كونراد Conrad " في ريجنزبورج " سنة 1300 م – قد أشاعت في أذهان الجماهير الأوروبية لعدة قرون الصورة التي تصف المسلمين بأنهم: " الشعب الذي لا يروي تعطشه لسفك الدماء والذي لعنه رب السماء . فهم كفرة وكلاب .. وخنازير فجرة .. وهم عبدة الأصنام التي لا حول لها ولا قوة .. لا يستحقون .. إلا أن يقتلوا وتطرح رممهم في الخلاء فهم إلى جنهم بلا مراء.

صورة الشاعر الحاقد

وفي هذه الملحمة يخاطب الشاعر القسيس الشعب المسلم فيقول :

أن نحمت .. قد أرسلني إليك لأطيح رأسك عن كتفيك واطرح للجوارح جثتك وامتشق برمحي هامتك، ولتعلم أن القيصر قد اثر كل من يأبى أن تعمده الكنيسة ليس له إلا الموت شنقا أو ضربا أو حرقا.. فهم جميعا دون استثناء حزب الشيطان اللؤماء خسروا الدنيا والآخرة حل عليهم غضب الله فبطش بهم روحا وجسدا وكتب عليهم الخلود في جهنم أبدا!.

تلك لمحة خاطفة من " ثقافة الكراهية السوداء " التي صنعتها وأشاعتها مؤسسات الهيمنة الغربية للإسلام ورسوله أمته ، وفي صراعها الصليبي ضد عالم الإسلام والحضارة الإسلامية

وإذا كانت الإمبريالية الغربية – في العصر الحديث – قد ورثت الأطماع الاستعمارية الغربية في ثروات الشرق فأنها قد توسلت في صراعها ضد الإسلام وحضارته بالكثير من الأكاذيب التي صنعها أسلافها الصليبيون للإسلام والمسلمين.

ويشهد على ذلك المستشرق الفرنسي " مكسيم رودنسون " فيقول :

لقد كانت الظاهرة التي لعبت الدور الأكبر في تحديد طبيعة النظرة الأوروبية إلى الشرق وخصوصا بعد منتصف القرن التاسع عشر هي الإمبريالية وكان من المحتم أن يؤدي ذلك إلي تشجيع التمركز حول الذات وهي صفة طبيعية في الأوروبيين كانت موجودة دائما لكنها اتخذت الآن صبغة تتسم بالازدراء الواضح الآخرين. والذي شجع هذه النظرة هو أن توجه في محاور عدة منها في القرن الرابع عشر الميلادي ، وهو الرغبة في التحرر الفكري ، فقد ظهرت النهضة الأوروبية مع حلول القرن الرابع عشر الميلادي ، وظهر الفن الإباحي ، الرافض للفن ، المحتشم الإسلامي التجريدي، ثم ظهرت نظرية ماركو بولو Marco Polo ، الداعية إلى الاستعمار ، والرغبة في التوسع والخروج عن الدين المسيحي على يد وليم أوف أوكام William of Ocham الذي دعا إلى الخروج عن الكنيسة الغربية ، على العموم والتي حركت حركات الإصلاح الديني. والتي من بينها أتى جون ويكلف معلناً في عام 1377م أن صكوك الغفران من البدع المسيحية ، التي استحدثت من قبل رجال الدين الكاثوليك لكي يستغلوا جمع الأموال الوفيرة من المسيحيين ، وإيهامهم بأن تلك الصكوك تمحو ما تقدم من ذنبهم وما تأخر ، وتدخلهم جنات النعيم ، وهو في ذلك متأثر بالفلسفة الإسلامية ، التي غزت أوروبا بعد نهاية الحروب الصليبية وبالحركة الإريجنية ، التي كانت في ايرلندا في القرن التاسع الميلادي. وكذلك الانشقاق العظيم الذي جعل الكنيسة الكاثوليكية كنيسة إيطالية ، وفرنسية ، في وقت واحد في عام 1378م.

ثم خالفت المسيحية ذاتها عندما خرج جون هس Jhon Huss وهو من مؤسسي الحركة البروتستانتية في أوروبا قبل حركة مارتن لوثر Martin Luther وقال في عام 1408م برفض الشروح والتفاسير والعودة إلى الكتاب المقدس المفسر حسب أهواء علماء الدين المسيحي. ولكن التعصب الكاثوليكي الخوف من الانقسام من جديد كما كان الحال في القرن السادس الميلادي هو الدافع للتعصب ضد الإسلام ، والذي ولم تكتف هذه " النزعة الصراعية " لدى مشروع الهيمنة الغربية بهزيمة الجيوش الصليبية وإزالة قلاعها الحربية وكياناتها الاستيطانية من الشرق الإسلامي (690 هـ 1291 م) ، وإنما استمرت في صور متعددة : صليبية .. وإمبريالية فمنذ إسقاط " غرناطة " في سنة 897 هـ يناير سنة 1492 م .. بدأت حملات الالتفاف حول العالم الإسلامي ، تهميدا لضرب قلب الوطن العربي – لاحتواء عالم الإسلام.

لـذلك فكرسـتوفر كـولمبس Cristphoe Coloumbs (1451 – 1506 م) يجمـع الـذهب مـن " الـدنيا الجديـدة " – القـارة الأمريكيـة – ليطلـب مـن البابـا " اسـكندر السـادس " Askender (1492-1503م) تجييش " خمسين ألفـا مـن الجنـود المشـاة " وخمسة آلاف فارس لفتح الديار المقدسـة " كمـا يطلـب – هذا الـذي نعلمـه لأبنائنـا باعتبـاره مجرد مكتشف جغرافي .. من ملكي إسبانيا الصليبيين ، اللذين اقتلعا الإسلام مـن الأنـدلس ، واجتثا جذوره بالقتل والحرق والتنصير يطلب " كـولمبس " مـن " فردينانـد " Fridand (1479 – 1516 م) و " إيزابيلا " Isbella I (1474 – 1504) تجييش حملة صليبية لانتزاع بيت المقدس من جديد فهدفه – كمـا قـال : " هو فتح الـديار المقدسـة ، خـلال ثـلاث سنوات ، لاسترداد الضريح المقدس بمدينة القدس " لأن القدس وفلسطين كانت دائمـا هـي رمز هذا الصراع التاريخي ، فإن " كولمبس " قد كتب إلي "سيديه الأكثر تدينا " : " الملك فردينانـد " (1479 – 1516 م) والملكـة " ايـزابيلا " (1474 – 1504 م) كمـا جـاء فـي يومياته 26 ديسمبر 1492م – يقول : إن هدفـه هو " العثور علـى الـذهب بكميـات كبيـرة ، حتى يتسنى للملكين أن يفتحا الديار المقدسة خلال ثلاث سنوات .. فقد أعلنـت لسمو كمـا أن كل المغانم التي سيدرها مشروعي هذا سوف تنفق علـى فتح القدس .. وقـد ابتسمتما – يـا صاحبي الجلالة – وقلتما : إن ذلك يسركما "

وبعد أن تعددت رحلات " كولمبس" إلي أمريكا " وجمـع الـذهب بكميـات كبيـرة " فلم ينس أن المقصد الأصلي والأساسي والأعظم لمشروعه هو القدس وفلسطين .. فكتب إلي القيادة الصليبية – الممثلة يومئذ فـي الملكين " فردينانـد " و " إيـزابيلا " " الرسـالة – الوثيقة " التـي تؤكد علـى ضرورة توجيـه الحملـة الصليبية لانتـزاع القدس وفلسطين مـن أيدي المسلمين .. وفي هذه " الرسالة – الوثيقة " التي كتبها (907 هـ 1501 م) يعلن أن هدف رحلتـه الأصلية – فـي أغسطس 1492م– والتـي كـان هدفها المعلن الطواف حـول إفريقيا ، والذهاب إلي جزر الهند الغربيـة ، لتحويـل تجـارة الشـرق عن الطريـق الإسـلامي ، لإضعاف العالم الإسلامي اقتصاديا .. إنما كان – الهدف – أكبر وأخطر ، وهو تطويق العـالم الإسلامي ، للانقضاض على فلسطين ، واغتصاب القدس من جديد " القدس التـي سبق أن حررهـا صـلاح الـدين الأيـوبي (532 – 589 هـ 1137 – 1193 م) مـن الأسـر الصـليبي (583 هـ 1187 م) أي أن مشروع " كولمبس " لإعادة الاحتلال الصليبي للقدس قد بدأ بعد ثلاثة قرون من تحرير صلاح الدين الأيوبي لها من أسر الصليبيين القدماء

وعـن هـذه المقاصـد العليـا والأكبـر والأخطـر – " حملـة صـليبية لاسـتعادة اخـتلال القدس " – يتحدث " كريستوفر كولمبس " وكـأنه قسيس صليبي ، في خطابه فيقول :

"صاحبي السمو ، الأكثر تدينا والأعلى مرتبة .

إن فهمي وإدراكي لمسألة استرداد الضريح المقدس بمدينة القدس لصالح الكنيسة المقدسة عسكريا سوف أقوم بتوضيحه فيا يلي .. لقد ارتحلت إلي كل مكان يمكن الإبحار إليه حتى الآن.. وبإلهام من الرب ، أبحرت من بلادي إلي الهند . كما ألهمني الرب أن أمثل أمام جلالتكم.. لقد تجسد الدين والإيمان والإخلاص في جلالتكم.. ومن ذا الذي يستطيع أن يشك في أن هذا الإلهام قد جاء من الروح القدس ومنى ؟ وأنه الرب الذي يشعرك بالراحة عبر النور المدهش ، والوضوح المستمد من خلال كتابه المقدس والسامي ، الذي يتصف بالطهارة والصفاء ، مع الكتب الأربعة والأربعين للعهد القديم ، والأناجيل الأربعة ، وثلاثة وعشرين رسالة إنجيلية للحوار بين المقدسين كل ذلك ألهمني بأن أتقدم وأتابع عملي ، كما قام بتشجيعي لأن أثابر على هذا العمل ، وأن أقوم به بهمة وسرعة كبيرة دون توقف وأراد بنا أن يكشف المعجزة الأكثر وضوحا في تلك الرحلة البحرية باتجاه الهند من أجل أن يواسيني وآخرين ، عن المسألة المتعلقة باسترداد الضريح المقدس بمدينة القدس .

لقد مكثت سبعة أعوام في بلاطكم الملكي ، مناقشا الأمر مع العديد من الرجال " أن ما حدث هو الذي سبق أن قال به يسوع المسيح المخلص ، وذكره من قبل عبر رسالة المقدسين ، ولهذا فيجب علينا أن نؤمن بأن أمر القيام بحملة صليبية لاستعادة مدينة القدس ، لهو أمر سوف يتحقق بالفعل لقد قلت أنني سوف أتحدث عن فهمي واداركي لمسألة استعادة الضريح المقدس بمدينة القدس إلي أحضان الكنيسة الكاثوليكية.

" فاسكو دي جاما " Vasco de Gama(1469 – 1524 م) بعد التفافه حول أفريقيا – يذهب لمحاربة المسلمين على شواطئ الهند (910 هـ 1504 م) معلنا : " أننا جئنا لهدفين اثنين : المسيحية والتوابل.

وماجلان Magalan (1480- 1521) – الذي تعلم الثقافة المغشوشة أبنائنا أنه مجرد رحالة ومكتشف جغرافي – هو الذي قتل على شواطئ الفليبيين (927 هـ - 1521 م) وهو يحارب المسلمين .. لتبدأ منذ ذلك التاريخ حلقات تنصير الفليبين المسلمة ، والتي كانت عاصمتها يومئذ " أمان الله " ثم سميت بعد التنصير " مانيلا "!

على الرغم من ظهور الإصلاح الديني من جديد في عام 1520م بعد إعدام جون هس بمائة عام على يد المصلح الديني السويسري زوينجلي Zewingly (1484-1531م) الذي لغي في سويسرا كل التعاليم الدينية الخارجة عن الكتاب المقدس. ثم تأثر بالفلسفة الإسلامية في رفضه لتقديس الصور والأيقونات ، التي تزخر بها الكنائس ، مع حلول عام 1523م ، وقد قام بعد ذلك في زيورخ أن ألغى فكرة الاعتراف ، وعدم الوساطة بين المسيحي والمولى سبحانه وتعالى ، ولكنه مات بعد ذلك على يد القوات الألمانية الموالية للبابا ، ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك ، ولم تعد لصالح المتعصبون الكاثوليك ، بعد أن أعلن هنري الثامن (1491-1547م) Henry VIII انفصاله الديني عن إيطاليا ، وتأسس أول تجمع للبروتستانت في إنجلترا عام 1535م.

ولم يكن الخلاف الديني الذي مزق أوروبا من هذا الوقت مفيد للمسلمين ، فالغرب كله كان يخشى تقدم العثمانيين ، منذ أواخر الثمانينات في القرن الخامس عشر الميلادي حتى أن العثمانيين ، هم أنفسهم الذين أرجئوا حرب الإمبراطورية الرومانية المقدسة ضد تنظيم البروتستانت الذي أقيم في شيير بألمانيا عام 1529م. وهذا ما دفع

الاستعمار والدعوة ضد الاسلام

وقد عاون الاستعمار الغربي أهله على الاستمرار في الحملة التي أثاروها على الإسلام وعلى محمد ، ودعاهم ليقولوا ما قال أهل مكة حين أرادوا أن يحملوا النصرانية عار هزيمة هرقل والروم أمام فارس ، فقد قالوا ولا يزال الكثير منهم يقولن إن الإسلام هو السبب في انحطاط الشعوب الآخذة به وفي خضوعهم لغيرهم . وهذه فرية ، يكفي لإدحاضها ، أن يذكر قائلها أن الشعوب الإسلامية ظلت صاحبة الحضارة الغالبة وصاحبة السيادة على العالم المعروف كله قرونا متوالية ، وأنها كانت محط العلم ، والعلماء وموئل الحرية ، التي لم يعرفها الغرب ، إلا من أمد قريب . فإذا أمكن أن ينسب انحطاط طائفة من الشعوب إلي الدين الذي يؤمن به فلا يكون هذا الدين الإسلام ، وهو الذي حفز بدو شبه جزيرة العرب ، وآثارهم ، ومكن لهم من حكم العالم. وقد تطور الأمر في الصراع بين المسيحية والإسلام ليس مجرد الدفاع أو حركة الصليبية أو التمدد المسيحي ، كما هو قبل ظهور النظرية الاستعمارية ، في القرن الرابع عشر الميلادي ، بل امتد إلى أن يكون عقيدة للاستعمار الغربي ، الذي بدأ بالسيطرة على المغرب العربي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي ، حتى ظهور الأتراك في شمال أفريقيا محاربين للإسبان منذ عام 1512م وهذا ما دفع مارتن لوثر أن يقول هذا الرأي.

رأي مارتن لوثر

أما رأس البروتستانتية " مارتن لوثر " "1483 – 1546م " فهو القاتل عن القرآن الكريم : " أي كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن ، المليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع " وهو القائل عن رسول الإسلام – صلي الله عليه وسلم

أنه خادم العاهرات وصائد المومسات وعلى القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد حتى يزداد المسيحيون عداوة له وأيضا ليقوي إيمانهم بالمسيحية ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب – ضد الأتراك – ويضحوا بأموالهم وأنفسهم!!

وهكذا تأسست في الثقافة الأوروبية أكاذيب الكراهية السوداء ضد الإسلام وكتابه ورسوله – عليه الصلاة والسلام – على الرغم من التكريم والتعظيم الذي جاء به الإسلام عن رموز النصرانية وغيرها من الشرائع السماوية.

على الرغم من اعتراف الغرب بالمذهب الجديد في مؤتمر أوجزبزج بألمانيا في عام 1555م المذهب البروتستانتي وعلى الرغم من تقدم الفلسفة في الغرب ، بعد ذلك وانفصالها ، عن الدين إلا أن ، هذا لم يمنع التعصب من الغرب ضد الإسلام.

ففيلسوف التنوير الغربي " فولتير" Voltaire (1694 – 1778 م) الذي قدمه الغرب.. وقدمه المثقفون العلمانيون في بلادنا باعتباره نموذج الشجاعة الفكرية.. المستعد للموت في سبيل حرية الآخرين – هو الذي كتب عن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم مسرحيته(التعصب أو محمد الرسول) ، فجعل فيها من رسول الله نموذجا للتعصب ، رغم اعتراف الرسول بكل الآخرين ، حتى الذين ينكرون نبوته ويكفرون بدينه " وتقنينه " " أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وعلى المسلمين ما عليهم ، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".

كما أخفي " فولتير" في هذه المسرحية جبنه أمام الكنيسة ، وخوفه من مهاجمة المسيحية أو نقدها ، بالهجوم على الإسلام ورسول الإسلام ".

وفي نهاية الأمر فأن التعصب موجود ضد الدين المسيحي بسبب غزو الإسلام السياسي، والعسكري ، والفكري ، والثقافي ، منذ منتصف القرن السابع الميلادي ، على الرغم من استفادة الغرب من الفكر الفلسفي الإسلامي ، في فترة الحروب الصليبية ، والذي دفعهم إلى التقدم في الأفكار السياسية الجديدة التي خدمت الدين المسيحي ، في حركات الإصلاح المتنوعة والتي انتهت بظهور مذهب جديد في المسيحية في منتصف القرن السادس عشر الميلادي.

الفصل الثالث

على الرغم ما مر به الإسلام من أزمة سياسية وفكرية بعد موضوع خلق القرآن الكريم في القرن التاسع الميلادي ، إلا أننا لن نجد أن المسلمون يتشددون بعد ظهور الدراسات الصحيحة التي قوت من القرآن ، والسنة فهنا الفارابي في مقدمة كتابه السياسة يقول "بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي إلا بالله الغرض من الرسالة ، قصدنا في هذا القول ذكر قوانين سياسة يعم نفعها جميع من استعملها من طبقات الناس في متصرفاته مع كل طائفة من أهل طبقته ومن فوقه ومن دونه على سبيل الإيجاز والاختصار على أنه لا يخلو قولنا هذا من ذكر ما تختص باستعماله طائفة دون طائفة وواحد دون واحد منهم في وقت دون وقت ومع قوم دون قوم إذ الواحد من الناس لا يمكنه أن يستعمل في كل وقت مع كل أحد كل ضرب من ضروب السياسات.

وهذا أول كتاب في علم السياسة الإسلامي. ومن بعده يأتي أبو حيان التوحيدي في كتابه البصائر والذخائر يحلل علاقة الإنسان بالإله وماهية هذه القضية في هذا الصدد. ثم ظهور أعظم مدارس الفلسفة الإسلامية في الأندلس على يد ابن باجة ، وتلامذته أبو بكر بن طفيل ، وابن رشد ، وموسى بن ميمون ، حتى ما ظهرت مقدمة ابن خلدون ، التي جمعت الحضارة العربية الإسلامية ومن وقتها توقف الفكر الإسلامي ، أن يصب في معينه ، والذي ساعد على ذلك هو ظهور التيارات المشتددة التي أخذت في رفض الفكر العلماني ، داخل الدولة الإسلامية فلم يخرج من هذا القبيل ما يستحق في الفكر الإسلامي.

ولكن بعد أن أتت حملة نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte (1769–1821 م) على مصر والشرق (1213 هـ - 1798م) لتبدأ مسلسل ضرب قلب العالم الإسلامي .. وهو المسلسل الذي تتبدل في مراحله – القيادات والإمبراطوريات الغربية مع بقائه حلقات متوالية ومتصلة في هذه الممارسات الصراعية الغربية ضد عالم الإسلام وحضارته.

وأبان الحملة الفرنسية التي قادها " بونابرت " (1769 – 1821 م) على مصر (1213 هـ 1789 م) دنست جيوشه – جيوش الثورة الفرنسية الرافعة لأعلام الحرية والإخاء ، والمساواة- دنست الأزهر الشريف – أقدم وأعرق الجامعات الكبرى وأحد المساجد الشهيرة في تاريخ الإسلام ، ومزقت وداست الجنود والخيول للقرآن الكريم وكتب السنة النبوية المطهرة .. وسكر الجنود وبالوا.. وتغوطوا على هذه المقدسات ، في الأزهر الشريف.. ولقد وصف مؤرخ العصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي (1167 – 1237 هـ 1754 – 1822 م) هذا الذي اقترفه جنود الحملة الفرنسية فقال :

" لقد دخل أولئك الوعول (التيوس) إلي الجامع الأزهر ، وهم راكبون " الخيول " وداس فيه المشاة بالنعالات ، وهم يحملون السلاح والبندقيات ، وأخرقوا في صحنه ومقصوراته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا في الأروقة والحجرات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع ، والودائع والمخبآت بالدواليب ، والخزانات دشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا بالمسجد وتخطوا ، وبالوا وتغوطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه ، والقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ، ومن ثيابه أخرجوه ، ووجدوا وفي بعض الأروقة إنسانا فذبحوه ومن الحياة أعدموه. ولم يبالي المتعصبون الغرب بل استمروا على عنادهم لأنه كما يقال في

كتاب المسيحية ومحمد

جاء في موسوعة لا روس La Rose الفرنسية خلال العرض لآراء كتاب المسيحية إلي النصف الأول من القرن التاسع عشر ممن نالوا من محمد شر نيل ما يأتي " بقي محمد مع ذلك ساحرا ممعنا في فساد الخلق لص يناق ، كاردينالا لم ينجح في الوصل إلي كرسي البابوية ، فاخترع دينا جديدا لينتقم من زملائه ، واستولي القصص الخيالي والخليع على سيرته ، وسيرة باهومية (محمد) تكاد تقيم أدبا من هذا النوع . وقصة محمد التي نشرها رينووفر انسيسل ميشيل سنة 1831 م تصور لنا الفكرة التي كانت لدى أهل العصور الوسطي عنه ، وفي القرن السابع عشر نظر بيل في تاريخ أبي القرآن نظرة تاريخية ، ومع ذلك ظلت مقررات ظالمة ثابتة في نفسه عنه على أنه يعترف مع ذلك بأن النظام الخلقي والاجتماعي الذي إقامة لا يختلف عن النظام المسيحي لولا القصاص وتعدد الزوجات".

وإن واحدا من المستشرقين الذين عرضوا الحياة محمد بشيء من الإنصاف – ذلك هو الكاتب الفرنسي أميل درمنجم – ليذكر بعض هذا الذي كتب أخواته في الدين فيقول(44) : " لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلاف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلي أشد الخلاف. فمن البيزنطيين من أوقروا الإسلام احتقارا من غير أن يكلفوا أنفسهم – فيما خلا جان داماسيين مؤونة دراسته ، ولم يحارب الكتاب والتطامون مسلمي الأندلس إلا بأسخف المثالب فقد زعموا أن محمد لص نياق وزعموه متالكهاً على اللهو ، وزعموه ساحراً ، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق بل زعموه قسا رومانيا مغيظا محنقا أن لم ينتخب الكرسي البابوية .... وحسبه بعضهم إلها زائفا يقرب له عباده الضحايا البشرية وأن جبيردنوجين نفسه وهو رجل ليذكر أن محمد مات في نوبة سكر بين ، وأن جسده ملقي على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير ،

---

(1) راجع كتاب إميل ورمنجم ، حياة محمد ، ص 135 وما بعدها

وذلك ليفسر السبب الذي من أجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان . وذهبت الأغنيات إلي حد أن جعلت محمد صنما من ذهب وجعلت المساجد الإسلامية برابي ملأي بالتماثيل والصور !! وقد تحدث واضع أغنية إنطاكية حديث من رأي صنم " ماحوم " مصنوعا من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء. لقد احتل الغرب الأغريقي الروماني ...والبيزنطي الشرق –وقهره سياسياً ودينياً وحضارياً..ونهبه اقتصادياً ، عشرة قرون ، من الاسكندر الأكبر Alexander (356-323 ق.م.) - في القرن الرابع قبل الميلاد - وحتى هرقل Hercules (575-641م) في القرن السابع للميلاد ، عندما ظهر الإسلام ، وحررت فتوحاته الشرق من هذا الاستعمار الغربي القديم.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت في الفكر الغربي الديني والسياسي والثقافي نزعات تشويه الإسلام والافتراء على رسوله صلى الله عليه وسلم والازدراء بشعوبه وحضارته..وذلك لشحن الوجدان الغربي بثقافة الكراهية السوداء التي تحرض على إعادة اختطاف الشرق من الإسلام. أما أغنية رولان التي تصور فرسان شارلمان يحطمون الأوثان الإسلامية فيزعم أن مسلمي الأندلس يعبدون ثالوثا مكونا من أبوللين Apollin ويترفاجانت Tervagant ومحمد Mohamed وتحسب " قصة محمد " أن الإسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج ".

وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية مشبته بالحياة فمنذ رودلف دلوهيم إلي وقتنا الحاضر قام نيكولا دكيز وفيفس ، ومراتشي ، وهموتنجر ، ووبيلياندر ، وبريدو وغيرهم ، فوصفوا محمدا بأنه دجال والإسلام بأنه مجموعة من الهرطقات كلها وأنه من عمل الشيطان ، والمسلمون بأنهم وحوش ، والقرآن بأنه نسيج من السخافات ، وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجد في أمر هذا مبلغ سخافته ، مع ذلك فإن بيير المحترم (ثنرابل) مؤلف أول رسالة غريبة ضد الإسلام قد ترجم القرآن في القرن الثاني عشر إلي اللاتينية ، وفي القرن الرابع عشر كان بيبرباسكال Pascal من الذين توسعوا في الدراسات الإسلامية ، وقد وصف إينوسنت الثامن Innocent VIII محمدا يوما بأنه عدو المسيح ، أما القرون الوسطي فم تكن تحسب محمد إلا هرطيقا ، وكان لريمون ليون Leon في القرن الثامن عشر ولغليوم ستل Still في القرن السادس عشر آراء وأحكام مختلفة على أن الكونت بولنفيليه Beauville وشول Sholl وكوسان برستال Perstal ودوزي Duzzy وسبرنجروبا Springroba وبارتلمي Partilimi سانتيليرود Santilourd كاستري Castri وكارليل Caryle وغيرهم يظهرون على وجه الإجمال انصافا للإسلام ونبيه ، ويشيدون في بعض الأحيان بهما مع ذلك فإن دروتي Dorty يتحدث في سنة 1876م عن محمد قائلا " هذا الأعرابي المنافق القذر" كما طعن عليه فوستر Fauster من قبل ذلك سنة 1832م وما يزال " للإسلام حتى اليوم محاربون متحمسون"

أرايت الحضيض الذي هوت إليه الطائفة من كتاب الغرب ؟ أرايت إصرارهم مع توالي القرون على الضلال وعلى إثارة العداوة والبغضاء بين أبناء الإنسانية؟! ومن هؤلاء من جاءوا في العصور التي يسمونها عصور العلم والبحث والتفكير الحر وتقرير الإخاء بين الإنسان والإنسان ، قد يخفف من أثر هذا الضلال قيام أولئك المنصفين إلي حد ما ممن أشار إليهم درمنجم ، ومنهم من يقر بصدق إيمان محمد بالرسالة التي عهد الله إليه تبليغها عن طريق الوحي ، ومنهم من يشيد بعظمه محمد الروحية وبسمو خلقه ورفعه نفسه وجم فضائله ، ومن يصور ذلك في أقوي أسلوب وأتمة روعة وأن بقي الغرب مع ذلك ينال من الإسلام ونبيه أشد النيل ، ثم تبلغ منه الجرأة حتى يبث المبشرين في أنحاء البلاد الإسلامية يذيعون مثالبهم الوضيعة ويحاولون صرف المسلمين عن دينهم إلي المسيحية.

وقال الشاعر الألماني الشهير " جوته" Gothe (1749 – 1832 م) عن هذا القران الكريم " إنه الكتاب الذي يكرر نفسه تكرارات لا تنتهي ، فيثير اشمئزازنا ، دائما كلما شرعنا في قراءته ". ولم يكتفي الغرب المتعصب في الهجوم على الإسلام بل أضافوا إليه.

وكان جوته أول من نادى بحرية الرأي وعدم احترام الأنبياء والقديسين فقام في ديوانه الشعر والحقيقة باعتراف أن المسيح عليه الصلاة والسلام في النار.

الذاكرة العربية

فقد كانوا ذوي ولع بالشعر عظيم و لما كانت الرسائل لتحري ما يفيض عن شعرائهم في غير تناول اليد ، فقد اعتادوا أن ينقشوا هذه القصائد ، كما كانوا ينقشون ما يتعلق بأنسابهم وقبائلهم علي صفحات قلوبهم بذلك نمت عندهم ملكة الذاكرة غاية النحو ، ثم تناولت القرآن بكل ما أدت إليه يقظة الروح إذا ذاك من حرص وإقبال، ولقد بلغ بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من قوة الذاكرة ودقتها ، ومن التعلق بحفظ القرآن واستذكاره ، حدا استطاعوا معه أن يعيدوا بدقة يقينية كل ما عرف منه إلى يوم كانوا يتلونه.

وعلى الرغم من هذه القوة التي امتازت بها الذاكرة العربية فقد كنا في حل من ألا نولي ثقتنا مجموعة ذلك كل مصدرها . لكن لدينا من الأسباب ما يحملنا علي الاعتقاد أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم دونوا أثناء حياته نسخاً شتي لأجزاء مختلفة من القرآن وان هذه النسخ سجلت القرآن ، سجلته كله تقريبا. وهذا الذي دفع المستشرقين في عام 1864م متزعمهم تيودور نولدكه بأن يثيروا الشكوك حول الشعر الجاهلي ولكن عباس العقاد يرد في هذه النقطة ويقول أن الذين وضعوا القدر من الشعر الجاهلي حرصوا على أن يقلدوا خصائص الجاهلين اللغوية والمعنوية واللفظية ، وهكذا يظل هذا الشعر المنحول يدل على ما يدل عليه الشعر الثابت ، من تصوير للحياة في بلاد العرب قبل الإسلام (عباس العقاد، مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية، دار الهلال ، القاهرة ، 1968م ، ص 48-49). والذي دعم دليلهم على الانتحال أن حركة التصنيف بدأت منذ ستينات القرن الثامن الميلادي ، وأول من أهتم بجمع الشعر العربي كاملاً هو حماد الرواية الذي توفى في عام 155هـ / 772م. أي بعد زوال الشعر الجاهلي بمائة وستون عاماً أي لا يجمع الشعر في وقته لأنه اعتمد على الذاكرة.

وكان الشعر الجاهلي قد تطور مع حلول العشرينيات من القرن السادس الميلادي عندما تأسست حركة المعلقات السبع على يد امرؤ القيس والتي علقت على أستار الكعبة الشريفة في النصف الأول من العشرينيات من القرن السادس الميلادي زمن حكومة عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم والذي كان مطلعها الآتي

قفا نبك من ذكري حبيب وموئل بسقط اللوى

من الدخول فحومل

على الرغم من وجود حركات في الغرب مضادة لهذا الفكر مثل وليم موير في حياة النبي محمد حيث يقول : كان الوحي المقدس أساس أركان الإسلام فكانت تلاوة ما تسير منه جزءا جوهريا من الصلوات اليومية عامة أو خاصة ، وكان الصيام بهذه التلاوة فرضا وسنة ويجزي من يؤديها جزاء دينيا صالحا . ذلك كان جماع الرأي في السنة الأولى و هو ما يستفاد كذلك من الوحي نفسه . لذلك وعت القرآن ذاكرة كثرة المسلمين الأوليين أن لم يكونوا جميعا وكان مبلغ ما يستطيع أحدهم تلاوته بعض المميزات الجوهرية في العهد الأول للإمبراطورية الإسلامية وقد يسرت عادات العرب هذا العمل.

وهذا ما دفع أن يرد الحيادين من المسلمون بعد النهضة العربية التي قامت على أكتاف الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية في الرد على هؤلاء المتعصبين. وهذه الحيادية التي رغب فيها المسلمين لإظهار الجانب المتحضر كان يجب أن يوازيها كما في الماضي حركات متشددة تدافع عن الإسلام. فلم يكشف حقيقة هذا الذي جعلوه فيلسوفا للحرية والتنوير سوى رائد اليقظة الإسلامية الحديثة جمال الدين الأفغاني (1254 – 1314 هـ 1838 – 1897 م) الذي كتب عن " فولتير " و " روسو " Rousseau (1712 – 1778 م) فقال :

" لقد زعما حماية العدل ومغالبة الظلم والقيام بإنارة الأفكار وهداية العقول ، فنبشا قبر " أبيقور الكلبي " Apicour dogmatic(341 – 270 ق . م) وأحييا مل بلي من عظام الدهريين ، ونبذ كل تكليف ديني ، وغرسا بذور الإباحية والاشتراك ، وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية ، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنساني ، وجهر كلاهما بإنكار الألوهية ، ورفع كل عيقرته بالتشنيع على الأنبياء (برأهم الله مما قالا) وكثيرا ما ألف " فولتير " من الكتب في تخطئة الأنبياء والسخرية بهم والقدح في أنسابهم وعيب ما جاءوا به ولكن هذا لم يقنع الغرب بوصفه غرباً استعمارياً في هذا الصدد فقام من جهته وعلى الرغم من مدح نبي الإسلام وجعله عظم العظماء من قبل توماس كارليل (1795 – 1881) رأيناه يقول عن القرآن الكريم " إن محمدا شيء والقرآن شيء آخر فالقرآن هو خليط طويل وممل ومشوش جاف وغليط باختصار ، هو غباء لا يحتمل " وخاصة أن كارلايل سيطرت عليه فكرة في عام 1821م هو عدم حب الله سبحانه وتعالى ومن ثم أتى بما هو أشد وهو اعتبار الدين خرافة كبيرة في عام 1826م. ومن هنا أخذ في الطعن في الكنيسة الكاثوليكية وفي صحة الإنجيل والاعتراف بأن محمد نبياً ولكنه لم يعترف بالقرآن الكريم ، وقد انقلب نهائياً في عام 1857م على المسيحية.

فنحن إذن – بازاء عداء لقدس – أقداس الإسلام – رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وقرآنه الكريم ، وله عداء له تاريخ قديم وثابت وطويل. " وهذا ما دفع جمال الدين الأفغاني[45] أن يؤسس الحركة الأصولية من جديد في القرن التاسع عشر الميلادي عندما عرض موضوع

تجارة العقول والموت

وأن هذه الرأسمالية الغريبة المهيمنة توظف 90% من العقول العلمية بشكل مباشر أو غير مباشر في صناعة السلاح والدمار ومتعلقاتها!

ذلك هو المشهد الاقتصادي العالمي البائس الذي يريدون – بمحاربة الإسلام – الحفاظ عليه . وتكريسه وجعله "نهاية التاريخ" لأنهم أن يعلمون اليقظة الإسلامية التي يسمونها "الأصولية" تسعى منذ نشأتها في القرن التاسع عشر على يد جمال الدين الأفغاني
"1245 – 1314 هـ 1838 – 1897 م " إلي تحرير اقتصاديات العالم الإسلامي من هذا الاستغلال الغربي.. وهي قد أعلنت – على لسان الأفغاني-.. قبل مائة وخمسين عاما أن غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية هي :

أهداف قديمة جديدة

- ثروة المسلمين للمسلمين
- وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها ، وليست لأهل الغرب يستنزفونها.
- ونفض اليد من رءوس المال الغربية ، والاستعاضة عنها برءوس مال إسلامية.
- وتحطيم نواجذ أوروبا ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ،وذلك بعم تجديد الامتيازات في البترول ، الفوسفات وغيرها من المواد الأولية للصناعة والكهرباء.

---

[45] ارتكزت مبادئ دعوة الأفغاني للإصلاح على أن المسلمين وحدهم مسئولون عن مستقبل الإسلام وعليهم أن يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم . وكان المثل الأعلى له حالة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين وما كانوا عليه من وحدة وأخوة ونظام سياسي وخلقي رائع.

وهاجم الأفغاني بكثير من العنف ، البدع والخرافات والمبلغات الموجودة في الإسلام وكذلك أخطاء الحكومات الإسلامية. وطالب الشعوب الإسلامية بأن تظهر نفسها من مهادنات الاستعمار كما طالب علماء الإسلام بالإطلاع على تيارات الفكر الحديث فقد كان يحلم بحكومة إسلامية واحدة ، وآمن بالسلام ، وجعل مسئولية تحقيقه على الشعوب وطالبها بعصيان الدعوة الظالمة من حكامها للحروب وسفك الدماء والالتجاء بدلاً من ذلك لإعمال العقل على الخلافات على أساس من العدل.

ومن تقديره لدور العقل أن دعا للتفريق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الجبر وسلب فكرة حرية الإنسان في اختيار وصنع أفعاله وطالب بإطلاق سراح العقل من القيود خاصة قيود الأوهام ، ورؤيته الإصلاحية تبدأ بمحاربة المستعمر وتنتهي ببناء جامعة إصلاحية تجمع بين شعوب العالم الإسلامي وتأسيس الإسلام على قواعد تلك الجامعة التي لم ير في دعوته إليها أي تناقض مع الدعوات القومية لدي شعوب الأمة الإسلامية خاصة أنها لم تحمل مضموناً طائفياً وكان يقصد بها تحرير الأراضي الإسلامية المحتلة خاصة مصر والهند ومنع التدخل الأوروبي وإعطاء الفرصة لرؤوس الأموال الإسلامية بدلاً من رؤوس الأموال الغربية وإزالة قبضة الغرب على موارد المسلمين الطبيعية من معادن وغابات.. إلا أن مشروع الجامعة الإسلامية لم يكتب له النجاح إذا ناهضه السلطان العثماني والاستعمار الغربي.

- فمنذ فجر الصحوة الإسلامية الحديثة التي يسمونها " الأصولية" كان تحرير ثروات العالم الإسلامي من الاستغلال الغربي هدفا رئيسيا من أهدافها .. أما "الدروشة" والوقوف عند التدين الشكلي ، بإطالة اللحي، وتقصير الثياب ، واستفراغ الطاقات ، والأوقات في الجزئيات والثانويات .. فهو ما يسعد به ويتعايش معه هؤلاء الذين يشنون الحرب الصليبية على الإسلام ، لأنهم يدركون المقاصد الحقيقية للصحوة الإسلامية.

ومن بعده أتى الشيخ محمد عبده لكي يعدل ما بين التيارين فواصل مسيرة الإصلاح التي بدأها جمال الدين الأفغاني واهتم بان يكن إصلاحا روحيا وسياسيا للجماعة الإسلامية..فدافع بقوة عن حقوق الشعب ضد الملكية المستبدة وتحرير المرأة وتعليمها.

اتبع منهج الإصلاح المتدرج القائم على تربية المواطن ، وتحريره من الجمود ، ومما يعوق العقل ، والقدرة على التطور الاجتماعي والثقافي .. نادي بفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والعودة لينابيعه الأولى واحترام الحقائق الثابتة.. وإصلاح أساليب اللغة العربية في الكتابة سواء في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة أو فيما تنشره الجرائد أو المراسلات بين الناس.

كما طالب بتحقيق مبدأ العدالة والطاعة الذي جعل غيابه سببا للوهن والضعف بسبب التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.

ولم يغفل أن يؤكد أهمية غرس معني المواطنة وآدابها من حب وانتماء وولاء من خلال وضع القائمين على التربية لمناهج في الأدب السياسي وهكذا يمكن

اختصار منهج الشيخ محمد عبده الإصلاحي في خمس نقاط

1- تطهير الإسلام من التأثيرات والعادات الفاسدة.
2- إصلاح التعليم العالي الإسلامي.
3- إعادة وضع أسس العقيدة الإسلامية بعيدا عن منازعات الفرق الإسلامية.
4- الدفاع عن الإسلام ضد المؤثرات الأوروبية.
5- فصل العقائد الدينية عن النزاع السياسي.

وقد تأثر بمنهج الإمام محمد عبده الكثير ليس في الشرق الأدنى ومصر فقط بل في سائر الدول الإسلامية.

ولم يكتف التعصب على الرغم من خفة حدته في القرن الثامن عشر الميلادي بعد دخول عصر التنوير في الغرب الأوروبي لأن الغرب ما زال يرغب في استعمار الدول العربية وهذه بريطانيا ترث فرنسا ويقوم المارشال اللنبي (1861-1936م) Allenby الذي استولي على بيت المقدس في سنة 1918م باسم الحلفاء وقد قال مثل هذه العبارة إذ نادي عند هيكل سليمان ، اليوم انتهت الحروب الصليبية وقال الدكتور بيترش سميث Peterish Smith في كتابه عن "سيرة المسيح" ، أن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حربا صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها ، ولقد يكون من الحق أن هذا الاستيلاء لم ينجح بمجهود المسيحيين وانما نجح بمجهود اليهود الذين سخروهم ليحققوا حلم إسرائيل القديم فيجعلوا ارض المعاد وطنا قوميا لليهود ، حيث كانت فرنسا في احتلالها للجزائر (1830-1963م) لا تتوانى عن تعذيب الشعب الجزائري وتتفنن في فتك الجرحى. والفتك بالأطفال والشيوخ والنساء ، والاتجار بأعضائهم المبتورة وحليهم ومتاعهم الغارق في دمائهم ،هذا الميل لم يجد في كل الذي رويت لك طرفا منه ما يشبعه أو يرضيه ، فأخذ الفرنسيون يتفننون في ابتكار وسائل أخرى لم يسمع بها تاريخ البشرية ، على كثرة ما أمتلئ به هذا التاريخ من الفظائع والآثام.

فهدتهم أخيرا غريزة التدمير والتخريب النامية عندهم إلى طريق أسموها هم أنفسهم " بجهنم "، وخلاصة هذه الطريقة : أن يسد الجنود الفرنسيون باب الكهف أو المغارة التي يلجأ إليها الجزائريون بنسائهم وأطفالهم ومواشيهم فرارا بأنفسهم من الموت والقتل والحرق ، ثم يشعلوا في بابها نارا كبيرة ، فيختنق القطيع " البشري " داخل المغارة مع قطعان الماشية التي صاحبته إلى جوفها ، فإذا انبلج نور الصبح ، ذهب الفرنسيون ليروا آثار ما قدمت أيديهم.

وإليك وصف ما رأوه في أحد تلك الكهوف :

" في مدخل الكهف انتشرت هياكل ثيران وحمير وخراف حدث بها الغريزة صوب مخرج الكهف بحثا عن الهواء الذي عدم في الداخل ، وتكدست بين هذه الحيوانات ومن تحتها جثث رجال ونساء وأطفال ، وشوهد رجل ميت وهو جاث على ركبتيه وقد أمسكت يداه قرت ثور محترق ، وبجواره امرأة تحتضن بين ذراعيها طفلها الميت ، مما يدل على أن هذا الرجل قد اختنق وهو يدافع عن امرأته وطفله – اللذين اختنقا أيضا – شر هجوم الثور عليهما".

وتتكرر ذات الفعلة تدنيس الأزهر الشريف والقرآن الكريم وكتب السنة النبوية المطهرة – على يد الاستعمار الإنجليزي (1338 هـ / 1919م) فلقد حاول الإنجليز – إبان ثورة الشعب المصري سنة 1919 م – إغلاق الجامع الأزهر في 2 إبريل سنة 1919م لكن شيخه الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي (1263 – 1346هـ 1847 – 1927م) رفض فاقتحموه ودنسوه في 11 ديسمبر سنة 1919م ولقد وصف ذلك المؤرخ الحجة عبد الرحمن الرافعي (1306 – 1386 هـ 1889 – 1966 م) فقال : " لقد وقع في يوم 18 ربيع الأول سنة 1338 هـ /11 ديسمبر سنة 1919م حادث اهتزت له أرجاء القاهرة ، وأثار عاصفة من السخط والاستنكار في أنحاء البلاد ، وهو اقتحام الجنود الإنجليزية ، الجامع الأزهر ، لقد دخلوه بنعالهم وأسلحتهم مطاردين للمتظاهرين – واعتدوا على من صادفوه بالضرب والإيذاء ، فحدث هرج ومرج في الجامع ، واقتحم الجنود مكاتب الإدارة ، وحاولوا كسر الأبواب ، ففزع الموظفون ، وحدثت ضجة كبيرة داخل الجامع وخارجه. ولم يكن هذا فقط بل هذه الفظائع المروعة ليست في الصليبية الغريبة سجية محدثة ، أن القوم يسيرون على النهج الذي سلكه آباؤهم قبل ، فالخلف والسلف على اختلاف الأمكنة والأزمنة ، تحركهم طبائع واحدة ، وتحدوهم غاية واحدة ، أنهم مع خصومهم لا يعرفون للحرب أدبا ، ولا للرحمة موقعا ، إلا إذا تكافأت القوي ، وخافوا الثأر العاجل ، فهم عندئذ يعاملون العدو بحذر ، اتقاء العقوبة لا اتقاء لله ، أما إذا آمنوا الثأر فلن يتوقع منهم إلا بطش الجبابرة.

◆ **هل استخدم القنبلة الذرية[46] يوماً إلى ذرة من الحس الإنساني ؟**

أن هذا القنبلة تنزل فتحصد المقاتلين ، ثم تحصد معهم الشيوخ الفانين ، وجماهير النسوة والأطفال ممن لا شأن لهم بالحرب أبدا ، ثم قطعان البقر والغنم والدواجن التي تعيش لسوء حظها مع هؤلاء! بل الحشرات ، وأنواع النبات! أنها تجتث الحياة اجتثاثا حيث تنزل بلعنتها الماحقة ، ومع هذا الشر المستطير فإن الأمريكان أنزلوه بمدينتين يابانيتين في الحرب الأخيرة ،

---

46 ولقد هلك قائد الطائرة الأمريكية B 29 الجنرال آن بول تيبيتس Paul Tebitis (1915-2007م) عن عمر يناهز ال 92 عاماً في منزله بمدينة كولومبوس الأمريكية. تلك الطائرة التي ألقيت في يوم 6 أغسطس 1945م أول قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما اليابانية..خلال الحرب العالمية الثانية أسفرت عن تدمير 90% من مبانيها..وحصد أرواح أكثر من مائة ألف إنسان..وإصابة مثلهم وبعدها ثلاثة أيام فقط ألقت الولايات المتحدة الأمريكية بالقنبلة الذرية على مدينة نجازاكي اليابانية..فقتلت 9 آلاف فرد وشوهت الآلاف ..وقبل وفاة الجنرال آن بول هذا السفاح الإرهابي أوصي أصدقائه عدم إقامة جنازة له ولا يضعوا على قبره لافتة باسمه خوفاً من أن يتخذها معارضو القنبلة الذرية مقراً لتنظيم الاحتجاجات.

وكان أخطر القرارات التي اتخذت خلال الحرب العالمية الثانية 1939-1945م قرار إلقاء القنابل الذرية فوق هيروشيما ونجازاكي باليابان ، وكان صاحب هذا القرار هو الرئيس الأمريكي هاري ترومان Hary Turman ، وكان قد = =خلف الرئيس روزفليت Roosevelt الذي توفى أثناء الحرب العالمية الثانية حيث كان ترومان نائباً له ، وفي عهده أيضاً شاركت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب الكورية سنة 1950م ، وكذلك مساعدته واعترافه بدولة إسرائيل سنة 1948م.

وهو نوع من القتال لم يعرفه أدب الحروب من بدء الخليقة ، ولولا أن سر الذرة فضح ، وعرفه الآخرون لاستخدم هذا التفوق في قهر الناس / وتغليب الهوي : .
{فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} (251) سورة البقرة

إن وحشية الفرنسيين في الجزائر لا تزيد ولا تنقص عن وحشية غيرهم في شتي المستعمرات ، وخاصة التي يعيش فيها مسلمون ، وهي تجديد للأساليب القديمة التي اتبعها آباؤهم في إبادة الأجناس ، واستئصال المخالفين في الرأي والعقيدة وهل محي الإسلام من الأندلس محوا إلا بالحديد والنار ، وما سجله التاريخ لمحاكم التفتيش من همجية وعار ؟ هل حدث مثل ذلك أو بعضه أو شيء منه في تاريخنا ؟

كتب الأستاذ " محمد شاهين حمزة " يروي مخازي هذه العهود : " لم تقم في الشرق محاكم مثل محاكم التفتيش التي قامت في بلاد عديدة من أوروبا ، مثل أسبانيا وإيطاليا وفرنسا والبرتغال وألمانيا لسجن حرية العقيدة والفكر ومطاردة الضمائر والعقول .... ، وإصدار أحكام تتقزز النفس منها اليوم وهي تقرأها في صحائف التاريخ السود ، أحكام منها الأمانة حرقا في أحفال عامة يحضرها الملوك والوزراء والأعيان ..، والدفن بالحياة بوضع المحكومة عليهم في مقابر تترك فيها فتحات صغيرة ليراهم الناس منها وهم يدنون من الموت رويدا رويدا ..! أجل ليتفرج الناس جميعا على أولئك الذين يحرقون! وهؤلاء الذين يدفنون أحياء ، ليعذبوا بهذا الاختناق! والويل لمن ينظر ثم يتأفف أو يتحسر.

فإذا كان المحكوم بموته امرأة ، عريت وشدة إلي مقبرة وتركت ليلا ونهارا حتى تموت أو تجن .. أما حين تكون في طور التحقيق فإنها تعرض لكلاليب ذات رؤوس حادة تسحب الثديين من الصدر.

كانت هذه المحاكم تستعين في تحقيقاتها للحصول على إقرارات صحيحة أو مزيفة بوسائل عديدة من التعذيب منها :حرق الأقدام ....واستعمال السياط في الأفقية ...والتعليق في السقف مع ربط كل يد وكل قدم إلى حبل يشدها في اتجاه مضاد وغرز المسامير في الرؤوس .....وسل اللسان من الحلق بآلات خاصة .....وتهشيم الأسنان بأجهزة معينة .....ووضع الأقدام في أحذية حديدية عرضت للنار حتى حميت وأحمرت ....والكي في أي مكان من الجسد .....

واستعمال أحذية ذات مسامير داخلية حادة ، يؤمر المتهم بلبسها والمشي فيها ،أو الجري والسوط من خلفه.. ومشانق تشنق المتهم نصف شنق.. وتسديد حربتين إلى عيني المتهم تنفذان من مؤخرة الجمجمة ...وتوجيه حربة إلي القلب ، وأخرى إلى المعدة أو الأمعاء.. وطي الجسم وكسر عظامه بالآت خاصة .... وحلق الرأس وتعرضه لآلة تسقط الماء البارد عليه نقطة نقطة .....وسلق مواضع من الجسم أو سلخها بوضع إسفنج مغموس في ماء مغلي.. عليها وتعريض الرؤوس لمطارق ثقيلة ساحقة.. وصب الماء في الجوف من الفم أثناء الوخز بالدبابيس في الأعصاب والشرايين.. ووضع آلة على فم المعذب حتى لا يخرج أنينه ، فإذا أغمي عليه أنعش بشراب معين ، ثم أعيد إلى التعذيب من جديد ، وإذ ا مات في أثناء التعذيب ألقي به بين المعذبين الآخرين زيادة في ايلامهم وإرهابهم "

هل صنع في الشرق مثل هذا ؟ إن الإنسان لم ينحط في الشرق قط كما انحط في الغرب في أزمنة مختلة ، وفي دورات متعددة من التاريخ ، ولا علا فيه جانبه الحيواني المفترس ، كما علا في ربوع الغرب ، واستبد وسيطر

وكانت سلطة ديوان التحقيق أو محاكم التفتيش هذه مطلقة لا حد لبطشها ولا لجبروتها في كل الأمم التي قامت فيها ، ولكنها في أسبانيا – حيث كثر المسلمون – كان افظع منها في أي دولة أخرى ، وبلغ المنفيون من أرضهم في بلاد الأندلس مليوني يهودي ، وثلاثة ملايين مسلم ، أما عدد الذين أعدموا والذين سجنوا والذين عذبوا في معتقلاتهم فقد كانوا مئات الألوف.

ويقرر التاريخ أن هؤلاء المسلمين كانوا نخبة أهل الأندلس مقدما ، وأمهرهم صناعة ، وأغزرهم علما ، وكان ما حدث لهم سببا من أسباب النكسة التي أصابت الحضارة في ذلك العصر.

وما يعني الصليبية من ازدهار الحضارة أو اندثارها ؟ إن الذي يعنها أولا وآخراً هو التنفيس عن سخائمها الوبيلة ، تلك السخائم التي التقت فيها وحشية الجنس بوحشية المبدأ ، والتي جعلت قتل عداها إجابة لشهوات النفس ، وسيلة لمرضاة الله! في وقت واحد ..... وقد تم إفناء المسلمين في " أسبانيا" بهذه الأساليب ، واستراحت الصليبية بعد ما خلالها الجو !! وهي اليوم تكرر المأساة القديمة في " الجزائر " ، غاية ما هنالك أن محاكم التفتيش كانت السلطات الرسمية تعقدها وتقدم المتهمين إليها ، أما الفرنسيون الذين استوطنوا الجزائر ، فهم يكونون المحاكم من تلقاء أنفسهم ، ثم يصدرون أحكام الإعدام وينفذونها. وقد حدث في أعقاب الحرب العالمية الثانية أن ثار الجزائريون مطالبين بحريتهم، ففي 8 مايو سنة 1945 تبودل إطلاق النيران في " سطيف " بين المتظاهرين والبوليس الفرنسي أثناء العرض الذي أقيم احتفلا بالانتصار في الحرب ، وأعلنت الأحكام العرفية على أثر ذلك ، وأقبل الطراد " ديجوداي – تروان " ، فأمطر مدينة " خزاطة " وابلا من قنابله الثقيلة ، وقامت قوات الجيش بالحملات التأديبية ، وشنق الوطنين من غير محاكمة ، ورأت الحكومة أن تلزم الصمت بازاء هذه الحوادث ،

وأوفدت لجنة للتحري سرا عن أسباب المظاهرات ومصدرها ، بيد أنها لم تلبث أن أصدرت الأوامر بوقف أعمال اللجنة بعد مضي ثمان وأربعين ساعة من بدئها.

فلم يستفد الغرب المتعصب من النهضة العربية والإسلامية المذكورة التي بدأها الشيخ محمد عبده في مصر وفي الأزهر الشريف وفي الإصلاح الديني الجديد مما دفع أن تقوم أجيال محايدة تدرس اللغة العربية لغة القرآن الكريم كعلم صرف مما يؤكد الاتجاه المحايد عند المسلمين الراغب في الاستفادة من الغرب ولكن الغرب المتعصب هيهات ...هيهات لن يبتعد عن تعصبه بل استمر في ذلك ومن رواد هذا الفكر هو الدكتور زكي مبارك[47]

---

[47] الدكتور زكي مبارك من مواليد 5 أغسطس 1892م ، في سنتريس بالمنوفية ، من أسرة ميسورة الحال ، توجه إلى دراسة القرآن الكريم في الكتاب ، وهو طفل صغير حتى أتمه ، وهو في السادسة عشر من عمره وجوده كذلك. وهنا توجه إلى الأزهر في عام 1908م ، وهو في حالة من الفقر ، بعد أن أشعلت النيران في بيت أهله وهو صغير ، فتبدل الحال من الثراء إلى الفقر. في عام 1914م تعرف على الشيخ سيد المرصفي الذي رأى فيه علامات النجابة والنبوغ كما كان من قبل طه حسين وقال: أن الأزهر سيخسر هذا الطالب النجيب. وقد تأثر به زكي الشاب الصغير وتأثر كذلك بالإمام العلامة الشيخ محمد عبده. مما دفعه أن يكون عضواً في الخطابة ، في عام 1915م برعاية الشيخ محمد حسين العدوي وكيل الجامع الأزهر. ولكن الشاب الصغير لم يستهويه العلم الديني ، بل توجه إلى العلم المدني ، فترك الأزهر في عام 1917م ، وتوجه إلى كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، بعد أن حذق اللغة الفرنسية ، وبدأ هنا أول ملاحم الصراع بينه وبين طه حسين ، لأن زكي مبارك متسم بالغرور والصلف. المهم أنه توقف عن الدراسة ، بسبب أحداث ثورة 1919م ، التي شارك فيها واعتقل، وظل في المعتقل حتى أكتوبر من عام 1920م. وعندما خرج من المعتقل ، أخذ الليسانس في الآداب في اللغة العربية عام 1921م فتوجه إلى البحث العلمي وكتب في الإمام أبو حامد الغزالي واختار موضوع الأخلاق الذي انتهى منه ، حاصلاً على أول دكتوراه له في عام 1924م من جامعة القاهرة. ولكن لخلافه مع طه حسين ، وكذلك اتهام البعض له بالكفر ، والزندقة ، في هذه الرسالة تم تعيينه مؤقتاً في الجامعة بعقد ،ولم يكن تعيين نهائياً. لذلك عمل في الصحافة ، فعمل في جريدة البلاغ، في مقال تحت عنوان حديث ذو شجون وقد اكتشف فيه العديد من الدراسات العربية الخاصة بعيون الأدب العربي. فلم يكتف بذلك بل توجه إلى العمل كمراسل في جريدة البلاغ في فرنسا مستغلاً ، ذلك للحصول على الدكتوراه من السوربون بفرنسا، وكان الموضوع هو النثر الفني في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أراد بها أن يرد على شكوك المستشرقين ، وأن يدحض هذه الشكوك بأسلوب علمي لا يرقى إليه أي شك. ولم يكن هذا فقط بل قسم أعوام الدكتوراه نصفين نصف في فرنسا يناقش المستشرقين والعلماء ونصف آخر يعمل في الجريدة ذاتها في مصر. وفى عام 1931 استطاع أن يحصل على الدكتوراه الثانية ، وكم كان شجاعا ورائعا وهو يقول للجنة لمناقشة : «لقد جئت لكم لأصحح أخطاءكم ومفاهيمكم فأرجو أن تعترفوا بالخطأ وأن تمنحوني الدكتوراه»، ورغم هذه الحدة فقد اعترفوا له بالفضل ومنحوه الرسالة بدرجة مشرف جداً .. وعند مناقشته للدكتوراه في السوربون قال (مسيو ماسينيون M.Masenoiun) «أنني حين أقرأ بحوث طه حسين أقول هذه بضاعتنا ردت إلينا، وحين أقرأ بحوث زكى مبارك أشعر بأنني أواجه شخصية جديدة تماماً» . كما قال المشرف على رسالته للدكتوراه البروفسيور مرسيه Marcie «أخشى لو حصل زكى مبارك على الدكتوراه أن يأتي لي مع السفير المصري ويطلب كرسي الأدب في السوربون». وكان هذا هو الاتجاه الذي ظهر في الثلاثينات من القرن العشرين ، هو الدفاع عن الإسلام بالشكل العلمي ، أي المناهضة بالغرب بالتيار الغربي وليس السلفي بذاته والذي عدله في مصر الشيخ محمد عبده. ولكن هذا الاتجاه اختلف أصحابه على أنفسهم بسبب مصالح شخصية ، وهذا ما حدث لزكي مبارك من طرده من الجامعة المصرية كأستاذاً فيها عام 1934م. فتوجه للبحث العلمي للمرة الثالثة ، وحصل على الدكتوراه الثالثة في عام 1937م في موضوعه التصوف الإسلامي وعندما أنهى الرسالة سافر للعراق وعمل هناك أستاذاً في دار المعلمين العليا في بغداد حتى عام 1938م. ومع ظهور الاتجاه القومي العربي الذي تمخض عنه فكرة قيام جامعة الدول العربية في عام 1945م التي أعادت ولو من بصيص الأمل فكرة الخلافة الإسلامية بمنظور عربي قبل سقوطها على أيدي العثمانيين ، قام زكي مبارك بجولات في العراق ، وسوريا ، ولبنان ، وفلسطين ؛ مما جعل السمة الأساسية لكل معاركه هي الدفاع عن أصالة الأدب العربي ، وعراقة الثقافة العربية ، وتأصيل الفكر العربي ، والمناداة بالوحدة العربية.. ولم تكن العروبة لديه فلسفة ذات شعارات ، بل كانت واقعاً يتعايش به وفيه

حيث قال في كتابه النثر الفني في القرن الرابع الهجري الذي أخذ به الدكتوراه من السوربون في باريس عام 1927م"......... فليعلم القارئ أن هذا شاهدا من شواهد النثر الجاهلي يصح الاعتماد عليه وهو القرآن ، ولا ينبغي الاندهاش من عد القرآن آثر جاهليا ، فإنه من صور العصر الجاهلي : إذا جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره..

وهو – بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرده بصفات أدبية لم تكن معروفة في ظنهم عند العرب – يعطينا صورة للنثر لجاهلي ، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي صلى الله عليه وسلم من الكتاب والخطباء .....

ويستمر في قوله " القرآن شاهد من شواهد النثر الفني ، ولو كره المكابرون فأين نضعه من عهود النثر في اللغة العربية ؟ أنضعه في العهد الإسلامي ؟ وكيف والإسلام لم يكن موجودا قبل القرآن حتى يغير أوضاع التعابير والأساليب فلا مفر إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطي صورة صحيحة من النثر الفني عهد الجاهلية ، لأنه نزل لهداية أولئك الجاهلين ، وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون .. "

ومنطلقاً للتفكير والوحي .. وقد هاجم زكى مبارك دعاة حضارة الشرق أوسطية ، وقد عادوا الآن مرة أخرى؛ مما يجعلنا في أشد الحاجة لإعادة اكتشاف زكى مبارك . كما هاجم الدعوة إلى استخدام العامية . وقد كان الاتجاه العروبي لديه نزعة سلوكية والتزاماً أدبياً وأخلاقياً يؤكد به انتماء مصر للعروبة وفى ذلك يقول للقارئ : «وأنت تعرف أنى وقفت لأعداء العروبة والإسلام بالمرصاد فمزقت أوهام الخوارج على العروبة والإسلام شر ممزق ودحرت من سولت لهم أنفسهم أن يتطاولوا على ماضي الأمة العربية وكنت دليلك إلى التعرف إلى مآثر العرب في المشرقين والمغربين» .

وكان زكى مبارك يرى في اللغة العربية قدس أقداسه وحبه الذي لا يساويه حب آخر ويقول عنها «اللغة العربية في مصر أرسخ من اللغة الفرنسية في فرنسا ومن الإنجليزية في إنجلترا ومن الألمانية في ألمانيا ، لأن تلك اللغات بصورتها الراهنة لم تعش في بلدها ربع المدة التي عاشتها اللغة العربية في بلدنا ، والفرق بيننا وبينهم أنهم سلموا من الدسائس وابتلينا نحن بها». وما أصدق قول زكى مبارك بأننا قد ابتلينا بالدسائس فوجدنا من ينادى بسقوط سيبويه كناية عن أوهامه أو أمنياته بسقوط اللغة العربية .. وقد كان زكى مبارك على يقين بأن مصر هي اللغة العربية ، وأن اللغة العربية لن تلقى أبداً مصير اللاتينية .. وهذه (العروبية المتطرفة) لدى زكى مبارك تدعو إلى التأمل لأنه أنقذ نفسه من (فيروس التغريب) وهو الذي عاش في فرنسا سنوات طويلة ولكنه يزيل أي عجب عندما يجيب على كل التساؤلات بقوله «لم أتعلم في فرنسا لأتفرنس وإنما تعلمت هناك لأحصل على المنهج في طريقة التأليف» .

وفى إطار دفاعه عن الثقافة العربية هاجم بعنف الدكتور أحمد أمين عندما كتب خمس مقالات عن «جناية الشعر الجاهلي على الأدب العربي» فرد عليه في اثنتين وعشرين مقالة تحت عنوان «جناية أحمد أمين على الأدب العربي» . كما هاجم سلامة موسى بعنف لأنه انتقد الأدب العربي. ولكن في نهاية المطاف غلب الحزن على أديبنا زكي مبارك حيث ألف ألحان الخلود في ديوان شعري قائلاً فيه عن نفسه " إن نغمة الحزن تتوهج في أشعاري وليس لي إرادة في كتابة الشعر الحزين فما أعرف أن الله ابتلى أحدًا بالحزن كما ابتلاني .. والحزن ليس مصدر ضعف كما يتوهم البعض وإنما هو مصدر قوة لأنه دليل على شعورنا بقيمة ما نفقد من الناس ومن الأشياء". وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير 1952 سقط زكى مبارك في شارع عماد الدين بالقاهرة فشج رأسه شجاً كبيراً ليموت بعد ساعات قليلة . وقد ظل حتى آخر يوم في حياته يشكو الظلم ويعتد إلى أقصى درجة بما يكتبه، وكانت آخر كلماته قبل رحيله «إن كلمة طيبة تضاف إلى كلمة طيبة أشرف وأعظم من كنوز تضاف إلى كنوز .. وإن جود الله بالفكر والروح على بعض من يصطفيهم من عباده لهو أطيب الهبات وأكرم الأرزاق هل رأيت الله تخلى عن أديب سليم القلب .. قوى الروح .. لقد أقسم الله بالقلم فقال تعالى: «ن والقلم وما يسطرون ونحن بالله مؤمنون».

وقـال أيضـا : " والخلاصـة أن القرآن نثر ، وأنـه دليل علـى أن العرب كان عندهم نثر فني قبل الإسلام ، فكان لهم بذلك وجود أدبي متين قبل أن يتصلوا بالفرس واليونـان".

وفي هذا قضاء على أوهام من زعموا " أن أول كاتب في اللغة العربيـة هو ابن المقفـع الفارسـي الأصل وأن العرب لـم يكونـوا يعرفـون مـن النثـر غيـر الخطب والأسـجاع والأمثال.."[48]

وقال أيضاً " ...لا يمكن الوصول إلى يقين في تحديد العناصر الأدبيـة التـي يحتويهـا القـرآن إلا إذا أمكـن الوصـول إلـي مجموعـة كبيـرة مـن النثـر الفنـي عنـد العرب قبل الإسلام ، تمثل من ماضيه نحو ثلاثة قرون ، فإنه يمكن حينذاك أن يقال بالتحديد ما هي الصفات الأصلية في النثر العربي ، وهل القرآن يحاكيها محاكاة تامة ، أم هو فن من الكلام جديد ... "

ويسـتمر فـي القـول :" ونحـن مـع هـذه الحيـرة لا نسـتطيع الفـرار مـن الاقتنـاع بـأن القرآن أثر عربـي صرف ، لأن الرسـول صلـى الله عليـه وسـلم الـذي تلقاه وبلغه عربي ، ولأنه نشأ في بيئة عربية وبلسان عربي مبين ، ولـيس أمامنـا أي دليل على أنه متأثر تأثراً محسوسا بآداب أخرى أجنبية ، وأن كان هذا ممكنـا ، لأن العرب قبل الإسلام كانوا على اتصال قليل أو كثير بمن جاورهم مـن الأمـم .... " " ..... ولو تركنا المشكوك فيـه من الآثـار الجاهلية وعدنا إلـي نـص جـاهلي لا ريب فيه وهو القرآن لرأينا السجع إحدى سماته الأساسية ، والقرآن نثر جاهلي – كما أوضحنا ذلك من قبل – والسجع فيه يجري علـى طريقـة جاهليـة حين يخاطب القلب والوجدان ... "

وقـال أيضـا :" النسـيب مـن الموضـوعات التـي احتكرهـا الشـعر عنـد العرب. وتلك نزعة طبيعيـة : فـإن النسيب والغزل من أرق ألحـان الغنـاء ، وذلـك يفرض أن يؤدي تلك المعاني في كلام مقفى مـوزون ، ولـم نجد فـي المجموعـات الأديبـة مختـارات نثريـة فـي النسيب ، لأن مصنفي المجموعات كـانوا يفهمـون أن الغزل لا يخرج عن الأنفاس الشعرية. غير أننـا نجد في النثر لأقدم عهوده نمـاذج غزلية ، كالذي وقع فـي القرآن وصفا للحور والولـدان – نحو : " وحـور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون "

---

48 ليس المقصد في أن القرآن الكريم نثر أي فرع من فروع الأدب الجاهلي أي أن الدكتور زكي مبارك ينكر نـزول القرآن من عنـد الله ولكن الدكتور زكي مبـارك يرد علـى فريـة تحريـف القرآن التي عند الغرب بأسلوب علمي كدارس للغة العربية في جامعة القاهرة متزامن هذا الأسلوب مع ظهور التيار الغربي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي والدليل على ذلك في كلامه "وإن لم يمكن الحكم بـأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي صلى الله عليه وسلم من الكتاب والخطبـاء". فهو يؤكد أن النبي مرسل من عند الله وأن القرآن ليس بقول بشر علـى الرغم من أنـه نـزل فـي بيئـة لا تعرف سوى النثر والشعر وهذا لأن معجزة القرآن الخالدة أي أنه نزل بلسان العرب أي أنـزل عند أنـاس لا يعرفـون سوى كلمـة الشعر ديوان العرب. عبارة "لأنه نزل لهداية أولئك الجاهلين" تؤكد على أن القرآن منزل من عند الله فلم ينكر الرجل هذا. ولكن يجب أن يخاطبوا بما يفهموا. وهو يرد بذلك عن عدم إنكار أن القرآن الكريم هو أول كتاب نثر عربي وهذا شرف لنا ضد إدعاء الفرس أن الكتابة العربية على يد الأديب الفارسي ابن المقفع المقتول في العراق عام 759م.

ونحو : " يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين " وكما جاء في سورة الواقعة : " أنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكارا * عربا أترابا" فهذه كلها أوصاف تدخل في باب النسيب

وقال :" وقد تناقل الناس أن أبا العلاء المعري (363هـ- 448هـ /973-1057م) وضع كتابا في معارضة القرآن ، فقيل له : أن كتابك لجيد ، ولكن تنقصه حلاوة القرآن فأجاب : حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون وليس المهم هنا أن نعرض لهذا الرأي برفض أو قبول ، ولكن المهم أن نسجل أثر الترديد والتقليب في حياة البلاغات " ماذا يطلب أعداء الإسلام أكثر من هذا ؟ وأين تبلغ أهداف الصليبية الغازية بعد هذا ؟ هذه العبارة المليئة بالمطاعن والأكاذيب هي أثر الغزو التبشيري الذي شنه الاستعمار علينا.

والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي تلقي فيه صورة الوحي الإلهي كاملة غير منقوصة وهو أنقي ينبوع لهدايات الله ، كما تنزلت على رسله الأكرمين ، وكما بلغها أمام الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهو المعجزة التي حاول المغزورون أن يتعرضوا لها ، فارتدوا على أعقابهم يتبعهم الخزى ، وتتناول أقفيتهم الصفعات ومحاولة المستشرقين وأذنابهم أن ينالوا منه ، ليست محل اكتراثنا ، وليس هنا مجال تفنيدها ، كشف دخلها ودغلها[49].

وكل ما يعنينا هنا إبراز الصلات الفكرية بين طراز من الأدب قدمه لنا بعض الناس وبين غايات الهجوم الصليبي الذي لقح هذا الطراز ونماه واحتضن أصحابه ومهد لهم في المحافل ولا ندري هل رجع الدكتور زكي إلي الله بعد هذا الكفران المبين ، أم مات على زيغه ؟ لقد كتب بعد ذلك كتابات حسنة في التصوف[50] ، إن كان الرجل ظل يدمن الخمر حتى سرى السكر ، وقضي على حياته وهو نشوان.

---

[49] ولا نعدو نقول عن الرجل شيء فقد اعترف بالإسلام والجاهلية الجهلاء وأرجعها إلى القرن الرابع الميلادي ومن الممكن الباحث الموسوعي أن يعودها إلى أواخر القرن الثالث الميلادي إبان أزمة القرن الثالث الميلادي التاريخية المعروفة - التي أظهرت العرب في الدولة الرومانية- وقال أنه لو استطعنا تحديد النثر قبل الإسلام سنحدد القرآن هل يشابهه أم أن القرآن شيء مختلف عنه وهذا ليس عجيب فالقرآن شيء والأدب العربي شيء والقرآن أتى وهذا شرفاً للعرب لنشر الدين الإسلامي وتعريف العالم بالحضارة العربية قبل الإسلام ولا يوجد فضل لا أحد علينا سوى من المسلمين كانوا عجماً أو نصارى بل هي حضارتنا...حضارتنا.

فهو في نهاية الأمر يدرس القرآن من الوجهة الأدبية ولا يمنع ذلك وهذا دفاع آخر عن أن القرآن كلام من الله من مسلم مستنير ظلمه الناس فبعد ثلاثة أيام احترقت القاهرة (26 يناير 52) لينشغل كل الناس في الهم السياسي وتتراجع ذكرى زكى مبارك الذى تآمر عليه خصومه بعد رحيله فأهالوا عليه ستائر النسيان. وعندما تذكرته وزارة الثقافة لتقيم له احتفالية بمناسبة مرور ربع قرن على رحيله فى عام 1977 انفجرت انتفاضة الشعب ضد السادات فى 17 ، 18 يناير فتم تأجيل هذه الاحتفالية وكأن الظلم يطارده حياً وميتاً .

[50] وزكي مبارك هذا له كتاب في التصوف الإسلامي اسمه " المدائح النبوية في الأدب العربي" وللقارئ الرأي في نقده لقصيدة "بانت سعاد" التي قالها كعب بن زهير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان أحد العلماء لا يستفتح مجلسه إلا بها..لأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام يخبره أنه يحبها..ويرى زكي مبارك في كتابه السابق أن تلك الرؤيا لا تدل على شيء أكثر من اهتمام المتصوفين بتلك القصيدة ، وإيمانهم بأنها حظيت من الرسول بأحسن القبول..ولولا ما في ألفاظها من الصعوبة شاعت في

كتب المستشرق الإنجليزي " باركر " (سير أرنست) Ernest Parker (1874 – 1960 م) عن تجدد هذه النزعة الصدامية في علاقات الغرب بالإسلام وأرجعها إلي تاريخ ظهور الإسلام فقال :

" إن الصدام الذي حدث بين قيادات الغرب المسيحية وشعوبه ومدنيته وبين دين الإسلام ومدنيته وشعوبه هو من أعظمها وأكبرها خطرا . وربما جاز لنا القول أنه بدأ بهزيمة " هرقل " (610 – 641 م) "أول الصليبيين" في موقعة اليرموك 636 م أمام قوات الخليفة عمر بن الخطاب فالصدام الصليبي مع الإسلام ، بدأ برأي "باركر" منذ ظهور الإسلام وتحريره الشرق من هيمنة الرومان ثم يتحدث " باركر " عن استمرارية هذا الصدام بين الحضارتين .. بل ويتساءل هل له نهاية ؟! .. فيقول :

" لكن ، من يدلنا على تاريخ نهاية ذلك الصدام ؟! لقد كان في وقت من الأوقات دينيا بالدرجة الأولي ، وفي وقت آخر ذا مسحة سياسية غالبة كان نضالا بين شعوب مختلفة.. ولكنه بقي على الدوام صراعا مختلطا اشتركت فيه حضارتان بصورة رئيسية .. وكانت الحروب الصليبية صفحة من صفحات ذلك النزاع، بدأت في 1096 م وانتهت في 1291 م – إذا ما حددنا ختامها بفقدان الصليبيين آخر معقل مسيحي في أرض سوريا – أما إذا نظرنا إلي الآثار المتخلفة عن بواعث الحروب الصليبية ، فقد يصح لنا القول أنها استمرت حتى ظهور الملاحة البرتغالية واكتشاف كولمبس العالم الجديد .... "

فبواعث هذا الصراع وهذا الصدام الذي بدأ بظهور الإسلام – مستمرة – كما يقول " باركر " – حتى الغزوة الصليبية التي بدأت بإسقاط غرناطة.. وهي الغزوة التي لا يزال العالم الإسلامي يواجه تحدياتها حتى هذه اللحظات!

وعلى الرغم من هذا التفسير الصليبي لقضية الاستعمار في العالم العربي إلا أنه العديد من المحايدين مثل الأستاذ عباس محمود العقاد (1889 – 1964م) المفكر الفيلسوف والمؤرخ والشاعر والناقد الأدبي – والكاتب الروائي – العربي المصري / مجدد حركة التحليل التأملي في الفلسفة الإسلامية الأول – في العصر الحديث (تطويرا لما بدأه جمال الدين الأفغاني ومختلفا معه كيفيا ، وفي توافق مواز لما قدمه الشيخان الكبيران مصطفي عبد الرازق وأمين الخولي في ضوء الأسس الفقهية التي أرساها الإمام محمد عبده في كل من التفسير والأصول)، وهو قرين طه حسين – ونقيضه معا في تجديد حركة النقد الأدبي العربي ويضاف إليهما محمد حسين هيكل في تجديد وإعادة كتابة التاريخ الإسلامي (العربي أساسا في ضوء المعرفة الحديثة الغربية)

البيئات الصوفية..كذلك يرى زكي مبارك أن الجزء الأخير من قصيدة البردة للإمام= =البوصيري لا يخلو من صدق ، والصدق من أهم عناصر البيان والجزء الأخير هو

يا أكــرم الخــلق من ألوذ بـــه　　　سواك عنـد حلول الحادث العمم

يا رب واجعل رجائي غير منعكس　　　لديك واجعل حسابي غير منخرم وللقارئ التعليق والفهم

وهو " قائد" حركة التجديد الأدبي الأولي في الشعر خاصة – في تاريخ الأدب العربي الحديث ضد النزعة التقليدية الجديدة (التي أرساها البارودي وصبري وترسخت لدي أحمد شوقي وحافظ إبراهيم) والتي أسس بقيادته لها – بالفكر النقدي النظري و بالإبداع معا – معالم الحساسية الشعرية الجديدة – (من خلال جماعة الديوان مع إبراهيم المازني وعبد الرحمن شكري)

والتي كان طه حسين قد مهد لها الطريق وبنقده للتراث الشعري العربي ، إضافة إلي تأسيسه للنزعة "الفردية – النفسية " في كل من فلسفة التاريخ السياسي والتاريخ الثقافي (أو تاريخ الأفكار) والنقد الأدبي في الثقافة العربية الحديثة – وذلك من خلال " عبقرياته" المشهورة – التي كتبها كتراجم لحياة نحو 14 شخصية كبري في التاريخ الإسلامي والعربي ، بدءا من الرسول صلى الله عليه وسلم وحتى الخلفاء وبعض الصحابة والقادة والفلاسفة والشعراء ثم من خلال عدة تراجم أخرى لشخصيات بارزة من ثقافات أخرى (غاندي ، أتاتورك ، صن يات صن ، هتلر وموسوليني) وشخصيات مصرية أو عربية معاصرة (محمد عبده ، سعد زغلول .. الخ) ثم عن طريق هجومه الساحق على النظم الشمولية المعاصرة (النازية والشيوعية) ثم من خلال كتبه النقدية (الديوان ، ابن الرومي)[51]

---

[51] ولد عباس العقاد في أسوان لأسرة من صغار الموظفين والتجار ، وبدأ تعليمه في "كتاب" الحي ودخل المدرسة الابتدائية وحصل على " شهادتها" عام 1903 وكانت شهادة يعتد بها في الوظائف الحكومية أيامها فبدأ حياته العملية والثقافة الخاصة ، ولم يتجاوز – في تعليمه الرسمي – هذه " الشهادة " -وكانت أقرب المدارس الحكومية إلي أسوان – في المرحلة الثانوية التالية على بعد نحو 350 كيلو مترا (في قنا) وأصبح " أستاذا لنفسه" كما قال بعد ذلك حتى أصبح أحد أشهر أساتذة عصره وأشهر " أساتذة أنفسهم " ، في هذا العصر ، ساعده على ذلك تمكنه من اللغة العربية – الأمر الذي ساعده على قراءة كل ما كان متاحا – في عصره – من عيون التراث العربي – الفلسفي والأدبي والديني ، اللغوي ، ثم تمكنه من اللغة الانجليزية الأمر الذي أتاح له قراءة أصول الثقافات الغربية وخاصة من تراث الفلسفة المثالية الألمانية والنظرية الأديبة الرومانتيكية في ألمانيا ، ونظيرتها الإنجليزية إضافة إلي نظرية المعرفة – الوضعية الفرنسية والإنجليزية وعلم الاجتماع الفرنسي والفلسفة التطورية (أو : النشوئية) في إنجلترا وفرنسا وألمانيا

ولمدة السنوات الأربع التالية لتوقفه عن التعليم عمل موظفا بعدة جهات حكومية قبل أن يحترف الكتابة للصحف ، فعمل في صحف الدستور (مع فريد وجدي) وفيها أجرى أول حديث صحفي في الصحافة المصرية (وكان مع سعد زغلول عام 1908) وهو وزير للمعارف) وفي مجلة البيان – مع محمد المويلحي ، وفي عام 1911 أصدر أول كتبه : " خلاصة اليومية " ثم " الإنسان الثاني " : في الكتاب الأول نشر تأملات فكرية وسياسية حددت – تقريبا – مساره الفكرى طوال حياته ، وفي الثاني تناول قضايا تعليم وعمل المرأة ومساهمتها في " الهيئة الاجتماعية " فكشف عن مفكر تحرري وليبرالي أصيل

ثم عمل في " عكاظ" مع المازني وفي " المؤيد " مع على يوسف ، ولم يستقر في وظيفتين متتاليين في الرقابة على الصحف ثم في المدارس الحرة سوى أشهر معدودة ، وفي عام 1919 أصبح كاتبا " معينا" في جريدة الأهالي ثم في الأهرام قبل أن ينضم إلي لجان الوفد ويصبح أحد أقطاب مفكري الحركة الوطنية – سياسيا وفكريا – عند اندلاع ثورة 1919، وفي عام 1922 أكمل نشر أول كتبه النقدية : " الديوان في النقد والأدب " وفيه شن هجومه على نزعة أحمد شوقي التقليدية وبشر بما أصبح " الحركة الوجدانية " في الشعر المصري والعربي الحديث وتعرف على ميخائيل نعيمة (قرينه في زعامة الحركة في المشرق العربي) وكتب عنه كتابه " الغربال " وفي نفس الفترة نشر كتابه : " الفصول " الذي بشر فيه بقيمة " حرية الضمير الإنساني " وبمبدأ " المسئولية الفردية " بوصفه جوهر الحرية الاجتماعية والسياسة والعقيدية وأوضح قيام الإيمان في الإسلام على هذا المبدأ : " وكل إنسان ألزمناه طائرة في عنقه"

تميزت إنتاجات العقاد بالتنوع فانتج في الفكر الفلسفي الخالص – القريب من الميتافيزيقا – مع تبصر واضح بالخلفية الثقافية الحضارية لتأملاته المجردة (خلفية إسلامية – عقيدته وعقلانية) تبصرا قربه من منهج الجاحظ وابن رشد رغم اقترابه من مصطلح الأشراقيين ، الكندي وابن سينا خصوصا ، ومستفيدا من تجريدية كانط Cante المتوازنة ومن منظور الإرادة عند شوبنهاور أحيانا ، ومن مبدأ الحدس العقلاني عند نيتشه أحيانا أخرى (كما نري في كتبه الفلسفية الأساسية : " الإنسان في القرآن" و : " الفلسفة القرآنية " حتى : " عقائد المفكرين في القرن العشرين " و : " التفكير فريضة إسلامية " وهناك أيضا دراساته الفكرية الاكتشافية التحليلية والنقدية عن : " الله " حول نشأة وأساس العقيدة الإسلامية والتوحيد – وعن " الشيخ الرئيس ابن سينا " و " ابن رشد " و : " الغزالي " وهي كتب تجمع بين الاستبصار التاريخي للخلفية الاجتماعية السياسة المعرفية لمن يكتب عنه العقاد وبين تحليليه لتكوين كل مفكر ، نفسيا وخلقيا من خلال مواقفه المعروفة إزاء عصره . وفي كتبه الفلسفية لم يرفض نظرية النشوء والارتقاء (أو :

ومن بعده يأتي دور شيخ الأمناء الشيخ أمين الخولي[52] (1317 – 1385 هـ 1895 – 1966 م)

التطور البيولوجي) ولا مبدأ : " الانتخاب الطبيعي " ونجح في التوفيق بينهما وبين الإيمان : وكتب في التاريخ الإسلامي من خلال " الأبطال " بدءا من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقدمه من زاويتين متكاملتين في رأيه : زاوية اصطفاء الله تعالي له وعنايته بـ " تأديبه" ثم زاوية إنسانيته وتكوينه الشخصي وأسلوبه الخاص في أداء الرسالة " نبيا وقائدا ومشرعا ومؤسسا لدولة وأبا وزوجا وذا رحم يصله وصديقا وصاحبا في السلم أو في الحرب وخصما وحكما " غير أنه في عبقرياته اختار منهجاً يجمع بين المنظور النفسي والمنظور الاجتماعي فيما أسماه " مفتاح الشخصية" لكي يصوغ علاقة الفرد (البطل) بالجماعة في إطار التاريخ الذي يتولي البطل تغير مساره أ طبعه بطابعه إلي أن " ينبطح مجراه ويتسطح " فيأتي بطل أخر يعيده إلي عمقه واندفاعه ووضوح اتجاهه. وهو منظور يتضح فيه تأثر العقاد بكل من " علم التاريخ " العربي التقليدي الذي يتركز فيه السرد التاريخي على – أو حول – شخصيات بارزة وبفكر توماس كارلايل الإنجليزي صاحب كتاب الأبطال وبنفس المنهج تعامل مع المبدعين الكبار (خاصة في كتابه التاريخي عن : ابن الرومي : وكتابه المتميز عن أبي نواس الحسن ابن هاني) فحلل الإبداع الشعري لغويا وفنيا ولكنه يعطي البعد النفسي للمكانة الأولي من منظور نفسي اجتماعي في آن ، ولعل هذا المنظور نفسه هو ما أقام عملية بناء – وفكرة – روايته الوحيدة " سارة " وسعي فيها إلي اختبار "فكرته الثنائية " عن العقل / الجسد ، أو الروح / البدن، الإيداع / الحب، الرجل/ المرأة غير أن العقاد شاعرا يعد ظاهرة فريدة : فهو شاعر تقليدي من حيث البناء = =الشعري (أقرب في تقليديته إلي قدامي المحدثين -كأبي تمام وأبي الطيب و-أبي العلاء) ولكنه في نسيجه يكاد يكون أقرب إلي الشعراء الميتافريقيين الإنجليز (الكسندر بوب Alexnder Pop وجون دون Jhon Don) منه إلى الشعراء الرومانسيين الذين تبني مناهجهم النقدية – ومزجها بالتحليل النفسي – الفردي والجماعي ، وهو ما يجعل شعره أقرب إلي الشعر الحديث (خصوصا عند إزراباوند Ezerpound وأودين Odiun ومالكنيش Macniush) وذلك رغم أنه رفض ثورة الشعر الحديث العربية واتهمها بالنثرية (لخروجها على تكامل بحور العروض التقليدية للشعر العربي) مع أن إنتاج الشعراء الثائرين أقرب إليه في النسيج والصياغة وإعلاء قيمة الصورة المعبرة عن الرؤية (الفكرة أو الدلالة) يقترب هذا التناقض من تناقض موقفه إزاء جمال عبد الناصر رغم " إيمانه" بدور البطل (الذي جسده في كتب عبقرية) ومع ذلك فقد منحه جمال عبد الناصر جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 1965 وكان قد أصبح كاتبا متفرغا في الأخبار وعضوا في مجمع اللغة العربية وفي المجلس الأعلى للفنون والآداب ومقررا للجنة الشعر فيه (التي اشتهر فيها موقفه المستهجن للشعر التفعيلي الحديث) : مع ذلك فإن المحصلة النهائية الموضوعية لانتاجه (نحو 92 كتابا) – كانت دفعة قوية كتيار الاستنارة العقلانية والحرية السياسية للمواطن والوطن – والتأصيل الواعي للثقافة العربية المعاصرة على أساس " مصطلحها " الخاص وقواعدها الفكرية المتميزة وعلى أساس مواكبتها للمكتسبات المعرفية الحديثة الرئيسية.

52 أمين الخولي من مواليد 1 مايو 1895م بقرية شوشاي بمحافظة المنوفية ، وهو خريج مدرسة القضاء الشرعي لم يتخل أبداً عن الزي الرسمي لرجال الدين ، كان مؤلفاً مسرحية لفرقة أولاد عكاشة ، فألف عدد من المسرحيات من أشهرها مسرحية " الراهب المتنكر" ، التي عرضت في مسرح الأزبكية قدمت على خشبة الأوبرا بغير اسم مؤلفها ، فقد اختار الشيخ لنفسه اسم " كاتب متنكر" لأنه لم يكن في استطاعة شيخ من قضاة الشرع أن يكتب للمسرح أو يكتب اسمه في إعلانات مسرحية.

وهذا الشيخ المعمم أصبح إماماً للمفوضية المصرية بروما ، وإماماً للسفارة المصرية في برلين ، وتعلم الإيطالية والألمانية وكان ذلك بين عامي 1923 ، 1927م عندما عاد إلى مصر مدرساً في مدرسة القضاء الشرعي، حتى عين مدرساً بكلية الآداب في جامعة القاهرة في 3 نوفمبر 1928م بعد أن أغلقت مدرسة القضاء الشرعي أبوابها".

" ثم كان العمل العظيم الذي قام به الشيخ في حياتنا المعاصرة ولخص فكرته في مناهج التجديد..وظل طوال حياته يدعو إلى تأصيل هذه المناهج في دروسه الجامعية ودراساته " وهناك قضيته أهم وأخطر..كان للشيخ فيها رأي..وهي قضية تجديد الإسلام ، وكان آخر كتبه هو كتاب "المجدودن في الإسلام".

والشيخ هو صاحب منهج تجديد الدراسة القرآنية على أساس علمي عصري وصاحب منهج تحديد "البلاغة والنحو" . وكانت جماعة الأمناء التي أنشأها الشيخ أمين الخولي في عام 1944م برئاسته وعضويته أبنائه وتلاميذه من طلبة كلية الآداب قسم اللغة العربية قد لعبت دوراً مؤثراً في الأربعينيات ، والخمسينيات والستينات ، ولا يشك أحد أن مجلة الآداب التي صدرت في إبريل عام 1956م عن جماعة الأمناء ، قامت بفتح آفاق النشر أمام أجيال جديدة بالفعل من الأدباء الشبان أو الصاعرين ، وكان الشيخ أمين الخولي بأفعاله وأقواله نموذجاً لرجل الدين المستنير.

الذي تتلمذت على يديه أجيال من كبار الأساتذة ..والذي يحظى بالاحترام والتقدير لدى كثير من العلمانيين – لأمين الخولي كتيب صغير -" عن القرآن الكريم " كتبه في الأصل تعليقا على مادة " القرآن "- في دائرة المعارف الإسلامية – التي كتبها المستشرقون – ولقد أعدت نشر هذا الكتيب وقدمت له في سلسلة " في التنوير الإسلامي "

لأن بعضا من أحفاد " مسيلمة الكذاب " بل وبعضا من الذين يتمسحون في أمين الخولي – يغرفون بما لا يعرفون حول القرآن الكريم ، فإن من المفيد أن نضع أمام أعينهم - أن كانوا يبصرون- ما كتبه هذا الشيخ الجليل عن القرآن.

لقد تحدث أمين الخولي عن مقاصد الترتيب، للقرآن وفلسفة هذا الترتيب ، فقال : " إنه ترتيب متفرد ، ينبغي أن يقدر ما فيه من القصد إلي أن يكون – أولا ، وقبل كل شيء ، ومع كل شيء – كتاب هداية نفسية خلقية اجتماعية ، تتناسب مع عموم الدعوة الإسلامية ، وتوجيهها إلي الإنسانية جمعاء ، في كل زمان ومكان تتناسب مع دوام الدعوة الإسلامية ، واستمرارها إلي آخر الدهر ، وعلى مدى الزمن ، مادامت على هذه الأرض حياة كما تناسب كذلك مع ختم هذه الدعوة لرسالات السماء إلي الأرض ، واستطاعة الدينا أن تكتفي بها ، وتلتقي عندها

فالقرآن يمس دائما الأصول الكبرى ، والأسس العامة ، والقواعد الكلية ، في إطار من الشعور الديني المؤمن ، والفضيلة الخلقية المصلحة لنفوس البشر ، المهيئة لهم أن يكونوا – في نشاطهم العملي وجهادهم الحيوي – أناسا أخيارا ، أطهارا ، أبرارا ، غير متكالبين ، ولا متناحرين ، ولا متباغضين.

وإذا ما مس القرآن شيئا من التفصيلات تطلبها واقع الحياة فلنكون كذلك مثلا عامة ، يرجع إليها الناس فيما أمرهم به من التبصر والاعتبار بمثل قوله : " فاعتبروا يا ولي الأبصار "(الحشر 2) وبذلك يمضون على تغير أحوالهم ، وتطور شئونهم ، واختلاف بيئاتهم ، وتنوع مشكلاتهم وهم دائما أولئك المراقبون لربهم ، المحكمون لضمائرهم ، المقدرون لمسئولياتهم.. يدبرون من أمورهم المتجددة ما تصلح به حياتهم.. في ظل تلك الخشية من قلوب وجلة ، ونفوس مطمئنة لا تنسي نصيبها من الدنيا ، وتذكر مع ذلك اليوم الآخر ، والحساب المرتقب.

ومن هذا الترتيب الذي توزعت في جميع أجزائه وآياته مواضع العبرة المهمة ، نجد الهداية المرجوة في كل قطعة منه ، وكل بيان وكل قصة ، وكل موعظة .

وفي الجامعة حيث عمل مع طه حسين يقول " كنا نفهم أن البيئة الجامعية هي بيئة الدرس المبتكر الموصول بالحياة مصلاً إيجابياً ، فكنا نعمل على تحقيق ذلك ، وعلى إرساء ، فكرة الدرس الحر المتجدد وفي نفوس طلابنا".

كذلك كتب هذا الشيخ الجليل العلامة ، عن تدوين القرآن – لحظة نزوله وعن جمعه ، فقال : " لقد كانت للرسول صلى الله عليه وسلم عناية بنشر الكتابة في مجتمعه.. وكان له كتبه وحي يكتبون بين يديه القرآن ، ويكتبون رسائله ، وقد بلغ عددهم إلي بضعة وعشرين شخصا ورأي عليه السلام لبعضهم أن يتعلموا من اللغات غير لغتهم العربية . وكذلك كتب القرآن أولا بأول ، مع حفظ ما ينزل منه كذلك أولا بأول..

إن القرآن حينما تم نزوله مفرقا ، كان يحفظه نفر من أصحاب الرسول ، منهم من حفظه كله بأجمعه، ومنهم من حفظ ما تيسر منه ، وكان قد كتب الكتابة التي مكنت منها الظروف.. وهذا ما يمكن أن نسميه الجمع الأول للقرآن ، إذا اجتمع به في صدور حفاظ أقوياء الحافظة.. واجتمع في مكتوبات ، وأن لم تأخذ صورة الصحف، والكتاب كما نفهمها اليوم، لتفرق المواد التي كانت عليها الكتابة واختلاف أنواعها.

هكذا تحدث الشيخ أمين الخولي – ..شيخ الأمناء.. وخريج الأزهر ..ومدرسة القضاء الشرعي وأستاذ الجامعة وعضو مجمع اللغة العربية.. وأحد شيوخ التحقيق للتراث.. والمؤلف المتميز.. وأحد عقول العصر وبلغائه ..هكذا تحدث عن المقاصد الإلهية لترتيب آيات القرآن الكريم..وعن التدوين والحفظ لهذا القرآن ، على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أنجز الرسول وصحابته وعد الله سبحانه : " إنا علينا جمعه وقرآنه " ولقد مضي الشيخ أمين الخولي في حديثه عن القرآن الكريم فعرض لعدد من القضايا.. ولعدد من الشبهات التي يثيرها خصوم هذا القرآن ".

عرض الحديث عن الجمع الذي قام به الصحابة – على عهد أبي بكر الصديق – والذي كان – في الحقيقة – جمعا للصحائف التي كتب فيها القرآن على عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم فقال شيخنا : " إن هذا الجمع الذي تم في عهد أبي بكر كان الجمع الذي يحقق المعني المادي للجمع والضم – " فكأنه جمع الملازم في كتاب " والحال التي تم فيها وبها هذا الجمع تهيئ من الاطمئنان إلي المجموع ما لا يكاد يتوافر مثله على التاريخ لما حفظت البشرية من نصوص وأصول.

وبعد هذا القطع من هذا العالم المحقق – بأن القرآن قد حظي – في التدوين والجمع – بما لم يحظ به نص من النصوص على امتداد تاريخ البشرية قاطبة .. عرض لما يثار حول هذا التدوين والجمع للقرآن من شبهات فقال : " أما الأخبار التي تلقي ظلالا على هذه الحقائق ، فإننا لا نشعر بحاجة إلي الوقوف عند شيء منها ، لغير سبب واحد يقضي بالانصراف عن ذلك".

فهـي أخبـار أحـاد لا يسـهل فحـص أسـانيدها ، وهـي مـع ذلـك عرضـة ، للتـأثر بـأهواء ذوي الهوى من أصحاب العصبية الدينيـة ، والخصومة الاعتقاديـة في كل حين – روجها في القديم من روجهـا مـن هؤلاء ، ويثير الغبـار بهـا أشبـاه لهم في هذا العصر ، من ذوي الأغراض السياسية والاعتقاديـة المحتـرفين ذلـك ، وهـي ، مـع كـل ، لا تمـس القـرآن مـن بعيـد أو قريـب لـو تمثـل الواقفـون عنـدها الظروف والملابسات التي جمع فيها القرآن هذا الجمع الثاني زمن أبي بكر ، فحال الناس آنذاك ، ومدى معرفتهم للقرآن ، وحال من قام بهذا الجمع ، وقدرته عليـه ، وقـدر الرقابـة العامـة علـى مـا يـتم من عمل فـي ذلـك ، والطاقـة الإنسـانية الممكنـة ومثـل هـذا الجمـع ومـا تهيـأ منهـا البشـرية كـل حـين فـي حفـظ مثـل تلـك النصـوص الدينيـة أو الدنيويـة ، ومـا يتصـل بكـل ذلـك مـن معـان واعتبـارات كبـري – تعطـي ضمانات لمثل هذا العمل يكون الوقوف بعدها عند مثل الأخبار المتناقلة عن طريقـة الجمع وأحواله ، مما يدور عبثا لا طائل تحته.

حتـى فتح هـذا عين المستشـرقين مـن جديـد أو المتعصـبون أن يعـالجوا الأمر من جديد فقد قام في مواجهة الهجمـة ، بـل الهجمـات الغريبـة علـى الإسـلام ، وبالذات على القرآن الكريم ، تصدي المستشرق الحجـة" مـونتجمري وات " الـذي درس الإسـلام علـى امتـداد ثلـث قـرن ، وأنجـز دراسـاته العليـا – الماجسـتير و الـدكتوراه – فـي الفكـر بالفلسـفة الإسـلامية – تصـدي لهـذه الهجمـات الظالمـة ، خاصة في كتابه " الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر" الذي كتبه سنة 1969م فكتب عن القرآن الكريم يقول :

" إن الوحي الإسلامي لابد من تناوله بجدية إن القرآن صادر عن الله ، وبالتالي فهو وحي ، وليس كلام محمد بأي حال من الأحوال ، ولا هو نتاج تفكيره ، إنمـا هو كـلام الله وحده ، قصد بـه مخاطبـة محمـد ومعاصرته، ومـن هنـا فـإن محمدا ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلي أهل مكة أولا ، ثم لكل العرب ، ومن هنا فهو قرآن عربي مبين " وهناك إشارات في القرآن إلـي أنـه موجه للجنس البشري قاطبة. وقد تأكد ذلك عمليا بانتشار الإسلام فـي العـالم كلـه ، " وقبله بشر من كل الأجناس تقريبا ، إن القرآن يحظى بقبول واسع بصرف النظر عن لغتـه ، " لأنـه يتنـاول القضـايا الإنسـانية إننـا نـؤمن بصـدق محمـد وإخلاصـه عنـدما يقـول إن كلمـات القـرآن ليسـت نتيجـة أي تفكيـر واع منـه .. إن القـرآن لا ينبغي النظر إليـه باعتبـاره نتـاج عبقريـة بشـرية وأن التجربـة النبويـة مـع الـوحي يمكن إيجاز ملامحها الرئيسية فيما يلي :

● محمد يشعر ، وهو فـي حالـة وعـي ، أن هنـاك كلمـات بعينهـا تلقـي فـي روعة ، أو تحضر في قلبه أو عقله الواعي.

● وأن هـذه الكلمـات والأفكـار لـم تكـن أبـدا نتيجـة أي تفكيـر واع مـن جانبه.

● أنه يعتقد أن هذه الكلمات التي ألقيت في روعة من قبل " مندوب" أو " مبعوث" خارجي يتحدث إليه كملك.

● أنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله تعالي.

وعندما يتحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التي أحيت ، إليه كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدي ، لأن السور التي تلاها محمد هي من عند الله ، وما كان البشر أن يتحدى الله وليس من شك في أنه ليس من قبيل الصدفة أيضا أن كلمة " آية " تعني علامة على القدرة الإلهية وتعني أيضا فقرة من الوحي.

وعندما تمت كتابة هذا الوحي شكل النص القرآني الذي بين أيدينا.. وفي الحديث عن جمع القرآن ، نجد أن كلمة " جمع " قد استخدمت في آيات قرآنية مهمة " لا تحرك به لسانك لتعجل به أن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرأنه ثم أن علينا بيانه " (القيامة 16 – 19) ومن الممكن أن يكون التفسير الطبيعي لهذه الآيات أن محمدا مادام يتبع تلاوة من يتلو عليه " جبريل " فإن الله يتكفل بجمع الآيات المتفرقة ، أو التي أوحي بها في أوقات مختلفة، ليجعلها في سياق واحد.

وإذا لم يكن محمد هو الذي رتب القرآن بناء على وحي نزل عليه ، فمن الصعب أن نتصور أن الصحابي الجليل زيد بن ثابت (11 ق.هـ. – 45هـ/ 611 – 665 م) أو أي مسلم آخر يقوم بهذا العمل ومن هنا فإن كثيرا من السور قد اتخذت شكلها الذي هي عليه منذ أيام محمد نفسه.

أن القرآن كان يسجل فور نزوله .. ولقد تبوأ القرآن دائما – في حياة المجتمع الإسلامي – مكان المركز ، أو القطب ، أو المحور ، وصنع نسيج الحياة الإسلامية والنظرة العقلية للعالم والكون.

تلك شهادة المستشرق الإنجليزي الحجة " مونتجمري وات " للقرآن باعتباره وحيا إلهيا مباشرا وصادقا إلي رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ولصدق هذا الوحي الإلهي وصدق الرسول الذي نزل عليه الوحي.. ولمكانة القرآن لكريم دائما وأبدا في المجتمعات الإسلامية.. وفلسفة النظرة الإسلامية للعالم والكون ولأنه كذلك فلقد تعرض لتهجم الجهلاء.. ولكنه حظي بإنصاف العلماء ويضيف قائلاً" لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة " مودة " تقديم القرآن للقارئ الأوروبي باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية بالإضافة لقليل من الزيادة المحددة ومعني هذا انتفاء الجدة والأصالة.

والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التي سادت فترة الحروب الصليبية عندما كان على أوروبا الغربية التي كانت ترتعد فرائضها من جيوش الإسلام – أن تقوى دفاعاتها – برسم صورة زائفة عن الإسلام.

ومع الأسف الشديد كانت الحيادية مثار جدل بين المثقفين العرب

فقد اتجه طه حسين [53] إلى الحيادية بشكل متطرف فإن هذا الرجل كان بوقا عاليا لآراء المستشرقين ودسائسهم العلمية

---

[53] أشهر مفكر مصري وعربي في العصر الحديث وصاحب أعمق وأوسع تأثير في مختلف فروع العلوم الاجتماعية ، داخل المؤسسة الأكاديمية المصرية والعربية ، وفي الفكر السائد بين منتجي الثقافة العربية طوال الجزء الأكبر من القرن العشرين سواء بالاتفاق أو بالاختلاف مع أفكاره وأعماله التي امتدت لتشمل مجالات الأدب واللغة والنقد الأدبي والفلسفة والتاريخ والنقد الثقافي والاجتماعي والفكر السياسي والتعليم.

ولد طه حسين لأسرة متواضعة من المزارعين في إحدى قري محافظة المنيا من الصعيد الأوسط في مصر في عام 1889م ، وفقد بصرة وهو طفل في نحو السادسة من عمره ولكنه واصل الدرس في كتاب القرية بحفظ القرآن وتعلم مبادئ اللغة حتى لحق بشقيق له ليدرس في الأزهر حيث بقي لمدة تزيد على ثماني سنوات اختتمها بدراسة المنطق والبلاغة والأدب والفقه إلي أن فصل لاختلافه مع اساتدته المتزمتين فالتحق في نفس العام 1908 بالجامعة الأهلية عند افتتاحها مباشرة ليدرس الآداب. وفي عام 1914 قدم أول رسالة علمية تناقشها الجامعة المصرية عن " أبي العلاء العري " وهي الرسالة التي نشرها في أول كتاب له في العام التالي بعنوان :" ذكرى أبي العلاء " وفي العام نفسه حصل على بعثة دراسية من الجامعة إلي فرنسا ليدرس الأدب ، ولكنه تحول إلي على الاجتماع والتاريخ وحصل على ليسانس السوربون ثم على الدكتوراه من جامعة مونبلييه وكانت رسالته أول دراسة يكتبها عربي على الإطلاق عن عبد الرحمن بن خلدون وفلسفته الاجتماعية وصدرت ترجمتها العربية في القاهرة عام 1925، وعاد إلي مصر في عام 1919 لعين أستاذا للتاريخ القديم أو الكلاسيكي أي اليوناني واللاتيني بكلية الآداب في الجامعة

في سنوات تكوينه العلمي والفكري الأساسي نضجت معرفته بأسس كل من الثقافتين العربية الإسلامية والغربية ، فقد درس في الأزهر علوم اللغة والفقه والتاريخ والمنطق في مناهج عربية تقليدية وارتبط أثناء ذلك بشيوخ عرفوا باتساع الأفق وتفصيل الجانب العقلاني في الثقافة التراثية العربية، وفي الجامعة المصرية حيث كان يتولى التدريس عدد من كبار المستشرقين تعرف من ناحية على التصور الغربي الاستشراقي للثقافة العربية الإسلامية – وارتبط بالأستاذين سانتيلانا ونيللينو- وهو التصور الذي اكتملت صياغته في القرن التاسع عشر ورأي أن تلك الثقافة في اكثر جوانبها العقلانية تطورا= =هي امتداد طبيعي للثقافة اليونانية التي أتاحت العقل العربي البدوي بعد أن تعرف على الرياضيات والمنطق وعلوم اللغة- أن ينتج علومه على نفس الأسس (علوم النحو والعروض والبلاغة في اللغة والآداب والفقه) بفروعه في الدين والقانون ثم الفلسفة والمنطق – كل هذا على أساس من مزيج من أفكار أفلاطون الميتافيزيقية والأخلاقية وامتدادها السكندري أي الأفلاطونية الجديدة وأرسطو ومنطقه الشكلي والقياسي الشامل) وتعرف من ناحية ثانية على أول ما أنتجه العقل العربي الحديث في مصر – يعد تأثره الأولي بالمعرفة الغربية – من تصور عن تاريخ العقل العربي وتكوينه وذك من خلال دروس الشيخ طنطاوي الجوهري الذي كان يدرس له الفلسفة الإسلامية والمنطق جنبا إلي جنب سانتيلانا الذي درس عليه أصول وتاريخ تلك الفلسفة وتطورها ، وفي فرنسا اكتمل " التكوين " في الاتجاه نفسه بدراسة اللغتين اليونانية اللاتينية (القديمتين) وتراثها الأدبي والفلسفة فتعمق التصور عن الجذور اليونانية للعقل العربي الإسلامي ثم بدارسة علم الاجتماع والتاريخ في مناخ سيطرت عليه المدرسة الوضعية الفرنسية (ومؤسسها إميل دوركايم الذي كان المشرف على رسالة طه حسين قبيل موته) وهي الدراسة التي أمدته بإدراكه الاجتماعي والتاريخي للثقافة وإدراكه التطوري للمجتمع بينما أمدته دراسته الأولي في مصر بتصوره عن العلاقة العضوية بين العقلين العربي والغربي – وجذورهما المشتركة كما أمدته بمنظوره النقدي للثقافة العربية الإسلامية دراسته على أيدي أوائل العقلانيين الجدد في الأزهر والجامعة وعلاقته بنظرائهم الكبار في مراكز التأثير الثقافي الفكري والسياسي في مصر مثل أحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل ومصطفي وعلى عبد الرازق).

أصدر طه حسين نحو مائة كتاب – بين مؤلف ومترجم – إضافة إلي محاضرات لا تحصي لم تجمع ولم تسجل في الجامعة وغيرها ، ربما كان أشهرها وأقلها أهمية من الناحية العلمية الآن هو كتاب " في الشعر الجاهلي " عام 1926 – الذي أظهر فيه الشك في صحة نسبة غالبية شعر الجاهلية إلي شعرائها – الذين شك في وجود بعضهم أصلا على أساس أنه من وضع الرواة بعد الإسلام لدوافع قبائلية وسياسية ودينية وأنه لا يعكس الحياة الثقافية والاجتماعية في الجاهلية قبل الإسلام ، ولا الوضع اللغوي الذي ساد حسب معلوماته آنذاك – في الجزيرة العربية (وامتد في الكتاب شكه في الصحة التاريخية لبعض ما ورد في القرآن الكريم من وقائع وأسماء شخصيات دينية كإسماعيل وإبراهيم عليهما السلام) وقوبل الكتاب بعاصفة فكرية وسياسية وعلمية ، بين أغلبية معارضة وأقلية مؤيدة ، وأحيل طه حسين للتحقيق بمعرفة النيابة التي حفظت التحقيق وأخلت سبيله لعدم توافر نية جنائية ، ولكن الكتاب سحب من التوزيع ، وبعد عام واحد أعاد طه حسين نشره بعد تعديل بسيط فيما يتعلق بالنصوص المقدسة ، ولكن مع تعمق واستفاضة فيما يتعلق

بالشعر نفسه ، ورغم أن البحوث والدراسات الحديثة أثبتت خطأه فيما يتعلق باللغة واللغة الأدبية السائدة والوضع الحضاري في الجاهلية ، وتفسير النصوص الشعرية نفسها وعلاقتها المؤكدة بأديان القبائل وثقافتها ، رغم ذلك فإن الكتاب تظل له قيمته الفكرية من حيث تشجيعه للموقف النقدي من التراث الأدبي والبلاغي واللغوي العربي والكشف عن خضوع هذا التراث كغيره لقانون التطور التاريخي ويلي هذا الكتاب في الأهمية رسالته عن ابن خلدون التي بينت " حالة" عقلانية وتاريخية مهمة للعقل العربي يضع فيها العالم الاجتماعي والمؤرخ العربي تصورا وضعيا للتطور الاجتماعي والسياسي للمجتمع الإنساني، تليه في الأهمية كتابات طه حسين عن التاريخ الإسلامي (على وبنوه، الفتنة الكبرى ، مرآة الإسلام والوعد الحق ، الشيخان)التي أسس فيها المنظور الاجتماعي لإعادة كتابة التاريخ القومي الذي كتب عادة من قبل من منظور ديني وعشائري فقط (باستثناء كتابات محمد حسين هيكل الموضوعية الوطنية والمعاصرة لطه حسين) وفي كتاباته عن الشعر العربي من الجاهلية إلي العصور المتتالية وشعرائها الكبار من المرقش وذو الرمة وامرؤ القيس (في كتبه حديث الأربعاء) حتى المتنبي والمعري .. الخ (في كتبه عنهما) وحتى أحمد شوقي وحافظ إبراهيم (في كتابه عنهما) ارسي أسس النقد الاجتماعي اللغوي والنفسي والدلالي لشعر لكي يؤسس " حساسية " شعرية جديدة مهدت لتطورات كبري فيما بعد في هذا النوع الإبداعي الرئيسي في الثقافة العربية وفي كتبه عن الحياة الثقافة العربية، قبل الإسلام وفي صدره (على هامش السيرة ، الحياة الأدبية في جزيرة العرب .. الخ) ارسي أسس البحث الميثولوجي والأنثروبولوجي التاريخي النقدي ومادته : النصوص، في هذا المجال التأسيسي بالنسبة للثقافات الإنسانية عامة ، وفي كتبه الفلسفية (منارة الفكر ، مرآة الضمير الحديث ، من بعيد ، نقد وإصلاح ، إضافة إلي العديد من فصول " حديث الأربعاء " وفصول من الأدب والنقد ، وترجمة كتاب : نظام الاثينين لأرسطو .. الخ) حدد معالم مدرسة مصرية في الفلسفة والتاريخ الثقافي والحضاري ربطت بين تطور العقل العربي وتفاعله مع التراث الغربي القديم والحديث : وهو ما يتجلي في الفصول الأولى من كتابه الشهير : " مستقبل الثقافة في مصر " الذي كتبه عام 1938 كتقرير لوزارة المعارف ، أكد فيه تصوره عن ذلك التفاعل مع الغرب اليوناني الذي أثري العقل العربي الفلسفي والحضاري في رأيه. وتعد أعماله الروائية مثل : شجرة البؤس ودعاء الكروان والمعذبون في الأرض ، وأديب ، ومذكراته (الأيام) نماذج في الأدب الواقعي الرومانسي والأخلاقي والنقدي.

شغل طه حسين العديد من المناصب الهامة الأكاديمية والثقافة والصحفية والسياسة قبل ثورة يوليو وبعدها كما أسس العديد من المؤسسات العلمية الهامة في مصر : أستاذ التاريخ القديم في الجامعة، وعين وانتخب عميدا لآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) ثلاث مرات (28و30و1936) ومراقبا ثم مستشاراً لوزارة المعارف (39و1940) أسس وأدار جامعة الإسكندرية (1942) ونائبا عام 1961 ثم رئيسا مرتين للمجمع اللغوي المصري (63و 1967 و ،كتب في صحف الجريدة والسياسة وكوكب الشرق وغيرها (مع انتقاله من حزب الأحرار الدستوريين إلي حزب الوفد) كما كتب في مجلات الرسالة والثقافة والهلال ، والرسالة الجديدة ، وأسس مجلة الكاتب المصري وشارك في تأسيس المجلس الأعلى للفنون والعلوم الآداب في مصر (المجلس الأعلى للثقافة الآن) والمجلس الاعلى للجامعات وترجم أعمالا نقدية ومسرحية عديدة على رأسها مختارات من نصوص الدراما الإغريقية =

= وحصل وعلى جوائز الدولة في الآداب عام 1949 ، وأول من حصل على جائزة الدولة التقديرية للآداب عام 1958 وقلده جمال عبد الناصر قلادة النيل ، كما منحته فرنسا وسام اللجيون دونير ، وحصل على جائزة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان قبل وفاته بيوم واحد حيث توفى يوم 23 أكتوبر 1973م.

غير أن تأثير طه حسين الأوسع والأعمق على الحياة الاجتماعية العامة في مصر (إضافة إلى تأثيره الثقافي والفكري الشامل) يرجع إلي دوره في نظام التعليم العام في مصر ، لا يضاهيه دور آخر في العصور الحديثة ، سوي دور لجنة الخمسين التي صاغت دستور 1923، ودور عبد الرزاق السنهوري الذي صاغ القانون المدني وشرحه. ففي كتابه " مستقبل الثقافة في مصر " وضع تصورا عن " مناهج " التعليم العام ، وخصوصا في علوم اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا (العلوم التي تصوغ وجدان الأمة وشعورها بالانتماء الوطني والحضاري) كما وضع تصورا عن نظام التعليم ونشر المدارس وتدريب المعلمين وحتى مستويات رواتبهم وبدأ بتنفيذ " برنامجه" بعد أن عين مستشارا لوزارة المعارف عام 1942، (وأنشأ فيها حينذاك إدارة الثقافة العامة التي كانت أساسا لوزارة الثقافة فيما بعد وغالبية مشروعاتها في مختلف مجالات النشر والمسرح والموسيقي وغيرها) ولكن تأثيره الأعظم تحقق حين استصدار قرار بمجانية التعليم العام حتى المستوي الثانوي (العادي والفني) وذلك مع توليه وزارة المعارف عام 1950 ، وهو القرار الذي مهد لأوسع " حراك اجتماعي" لطبقات المجتمع المصري في العقود التالية وكانت له نتائج سياسية واجتماعية وثقافية لا تقل عن آثار " ثورة اجتماعية وفكرة كاملة.

، وضغائنهم الدينية وأني أعترف بأني كنت مخدوعا في تفرق أدبائنا – منهم الدكتور طه حسين- إذ حسبت شرودهم عن النهج السوي ضربا من حيرة الباحثين في اكتشاف الحقيقة ، ولونا من الاجتهاد في تلمس الصواب ، قد يعذر صاحبه في النتائج التي يصل إليها ، وإن خرج على العرف ، وأبعد عن المذهب. وسر خدعتي ، أني رجل لا أعرف غير اللغة العربية ، ولم أقف على كتابات المستشرقين الكثيرة بلغاتهم الأخرى.

فلما تكلم النقاد ، وأماطوا اللثام عن المواطن الأولي للأفكار التي هاجمتنا ، والتي تناولت الإسلام بالهمز واللمز ، بل الطعن والتجريح ، عرفت أننا أمام عصابة مأجورة للشيطان ، وأن المسألة ليست خطأ الأذكياء في نشدان الحقيقة... نعم ، لقد كنا أمام دواب ناشطة في نقل المطاعن على القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ناشطة في تهوين التراث الإسلامي كله ، وصرف المسلمين عن إعزازه والأخذ به ..... ناشطة في إخراج أمه جديدة يحتقر تاريخها الماضي ، ورسالتها الكبرى وترمق المدنية الغربية بدهشة المعجب ، وفقر المتسول لم يكن إلحاد هؤلاء الكتاب وليد عقول أعياها التفكير فضلت ، بل كان إلحادهم وليد اتباع لتوجيهات السادة المستعمرين ، وتلقينات الأساتذة المستشرقين.

فإذا لم يسيروا وراء المستشرقين على نهج واحد ، ساروا في محاذاتهم بحيث لا يبعدون عنهم في طريقة ولا غاية ولقد نقلنا لك عبارات الدكتور زكي مبارك الناقد الأدبي وهو يصف القرآن ، وقبل أن تنقل لك عبارات الدكتور طه حسين المماثلة ، نضع أيدينا على المصدر الذي نقل منه هذا وذاك ، كما حدده وأوضح معالمه الدكتور محمد البهي قال :

هناك صورتان تعرض فيهما فكرة " بشرية القرآن "

1- الصورة الأولي : أنه " انطباع " في نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، نشأ عن تأثره ببيئته التي عاش فيها ، بمكانها وزمانها ، ومظاهر حياتها المادية والروحية.
2- والصورة الثانية : أنه " تعبير " الحياة التي عاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم بما فيها المكان ، والزمان ، وجوانب الحياة الاقتصادية ، والسياسية ، والدينية ، والاجتماعية.

وطه حسين هنا يعبر في تأثره بآراء المستشرقين على شيء من الحيادية المبالغة وهي فكرة بشرية القرآن التي تقوم على صورتان

الصورة الأولي

ولا أريد هنا أن أنقل لأي مستشرق عبر عن بشرية القرآن ، بل سأتخير واحدا يعد مثلا للاتزان بينهم ، وهو المستشرق الإنجليزي جب Gebb أستاذ الدراسات العربية بجامعة هارفادر بأمريكا الشمالية ، وسنري من النصوص التي تنقلها عنه هنا من كتابه " المذهب المحمدي" أنه أثر الصورة الأولي بأسلوب يبدو فيه تجنب الألفاظ النابية ، والصراحة المكشوفة

وملخص ما يقوله "جب Gebb" حتى الآن هو :

أن مكة كانت فيها حضارة ، وزعامة ، ولم تكن أرضا جرداء ، ولم يكن سكانها حفاة غلاظا ، بل كانت لديهم فطنة ، وملكة في السياسة ، ومعارف واسعة بالناس والمدن وأن حياة محمد صلى الله عليه وسلم حياة مكية خالصة ، بما فيها نشأته ، ودعوته ، وصراعه ، فهي حياة محدودة ، ودعوته عندئذ ليست دعوة عامة ، بل لأناس معينين ، واختياره الدعوة بأن تكون دينية ، ثم اختياره هذه الدعوة الدينية بأن تكون في صورة حكومة إلهية من تحديد عوامل الحياة المكية وما دار فيها من اتجاهات سياسة ، واقتصادية ، ودينية

وأن القرآن ليس جديدا كله على العرب (المكيين) ، وأن ما فيه من مسيحية لا يتعدى المسيحية الشرقية السريانية ، وما فيه من يهودية لا يتعدي اليهودية المعروفة في "المدينة".

وليست معارضة المكيين له بسبب تمسكهم بالقديم ، أو بسبب الإيمان كما يذكر القرآن في قوله تعالي :

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ {22} وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ {23} قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ {24} سورة الزخرف"

بل تلك المعارضة كانت بسبب المنافسة في الزعامة السياسة ، والخوف من انهيار حياتهم الاقتصادية

والقرآن ، إذن الآن ، ليس عمل إنسان أي إنسان ، بل هو إنسان معين ، عاش في حياة خاصة تبلورت حياته الخاصة فيما قاله فيه

الصورة الثانية

أما الصورة الثانية للرأي القائل ببشرية القرآن ، وهي أنه تعبير عن الحياة التي وجد فيها " الرسول" صلى الله عليه وسلم ، وهي حياة ما قبل الإسلام فيحكيها في حركة " التجديد والمجددون في الفكر الإسلامي"

■" فكرة كتاب الشعر الجاهلي " للدكتور طه حسين

هذا الكتاب يقوم على فكرة واحدة ، هي : أن الشعر الجاهلي لا يمثل حياة العرب قبل ظهور الإسلام ، أي لا يمثل الحياة التي عاش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، بما لها من جوانب وأجواء ، إذا هو شعر مصطنع مفتعل ، ولذا لا يعبر عن حقائقها.

فهو في جملته يعبر عن حياة جاهلية فيها غلظة وخشونة ، وبعيدة عن التمرس السياسي ، والنهضة الاقتصادية ، والحياة الدينية الواضحة – مع أن حياة العرب في الجاهلية كانت حياة حضارية. هاجمه رجال الدين ، وطالب المشايخ من أعلى المنابر بحرقه ، أو بشنقه رحمة به. لكن تحرك ثلاثة : طالب بالأزهر هو الشيخ خليل حسنين وتلاه عضو بمجلس النواب عبد الحميد البنان وأخرهم شيخ الأزهر : تقديم الثلاثة ببلاغات مكتوبة طالبوا بالتحقيق ومحاكمة المؤلف جزاء ما اقترف في حق الدين الإسلامي

وكتاب الشعر الجاهلي موضوع القضية هو كتاب في تاريخ الأدب والنقد الأدبي وتاريخ اللغة وهو محاولة من المؤلف لاثبات أن الشعر الجاهلي منتحل أي ملفق وموضوع في عصور متأخرة عند ظهور الإسلام ونسب إلي الجاهلين القدماء من قبائل العرب المختلفة لتحقيق أهداف دينية وسياسية وفي سياق تدليل المؤلف على قضيته تعرض لبعض المسائل الدينية حيث شكك في وقائع تؤكدها نصوص قرآنية.

حاول المؤلف أن يجد لأقواله سندا فقال : اللغة أيام الجاهلية الأولي لم تكن اللغة العربية ولكن لغة أخرى هي التي كانت سائدة ويتعجب المؤلف بقوله كيف يتفق أن يقال شعر عربي فصيح يمتد نسبه الزمني إلي مدة تصل إلي قرون قبل ظهور الإسلام في وقت لم تكن مكة وما حولها تتحدث اللغة العربية لأن العربية انتقلت إليها بعد ذلك بزمن طويل من اليمن. وهذا القول من المؤلف جره إلي مقولة أخرى هي التشكيك في صحة وجود سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل من الناحية التاريخية وأضاف أن قصة انتساب العرب إلي سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم مفتعلة لإيجاد صلة مادية مع اليهود والنصارى ، إذ المعروف أن اليهود والنصارى من سلالة اسحق بن إبراهيم فتكون المحصلة أن إبراهيم هو أب للمسلمين واليهود والنصارى

وقال المؤلف أن المطلوب هو إيجاد سند للدين الجديد بعقد صلة مادية بينه وبين باقي الأديان وفي مجال التدليل على انتحال الشعر الجاهلي أورد المؤلف ملحوظة إذ كيف يتفق أن القرآن الكريم قد أجاز القراءة بسبع قراءات أو تيسيرا على القبائل التي لا تستطيع تغير حناجرها أن تقرأ كل قبيلة بلهجتها الميسرة ، يحدث هذا وفي ذات الوقت نجد الشعر الجاهلي المنسوب إلي هذه القبائل المتباعدة في الجزيرة العربية لم يظهر فيه أي أثر للاختلاف في اللهجات بل كلها لهجة واحدة متفقة وغير مختلفة.

وأنكر الدكتور طه حسين أن للإسلام جذورا أولية في بلاد العرب وأنه يراد إيجاد صلة بين الإسلام واليهودية والنصرانية وانتهي إلي أن الإسلام دين جديد وليس امتدادا لدين إبراهيم كانت التهمة أو التهم ضد الدكتور طه حسين أنه تعدى علنا على أحد الأديان التي تؤدي شعائرها ، وأن التعدي بأحد طرق العلنية المبينة في قانون العقوبات. من ناحيتي أقول لا نستطيع الزعم بأن الدكتور طه حسين صمم على أقواله الثابتة في الكتابة وأيضا وبنفس القدر لا نستطيع القول بأنه تراجع عنها أو اعتذر.

وقال الدكتور طه حسين إن كتابه يهدف إلي وضع أسس للنقد الأدبي ، حيث ينبغي الفحص والبحث والتأمل في النصوص بطريقة علمية بحتة ، وأضاف يقول أن ما يرد في الكتب السماوية لا يقيده ولا يلزمه كحجة وأنه كان مجتهدا وأراد التعرف على اللغة الجاهلية وماذا كانت في العصر الذي ينسب إليه هذا الشعر قرر أيضا أنه أعد مؤلفه للخاصة وليس للعامة، وأكد على أنه مسلم ويؤمن بدينه استمر التحقيق حوالي عام ثم أعدت النيابة مذكرة مطولة شرحت فيها بإسهاب وإطناب رأيها في الموضوع وختمته بالرأي القانوني الذي انتهت إليه.

وبإيجاز نقول : انتقدت مذكرة النيابة كتاب الشعر الجاهلي ونعتته بأنه يتحدث عن النبي الكريم بشكل لا يليق بمن يدين بالإسلام . فضلا عن أنه لا يوجد في بحثه ما يدعوه إلي التعريض بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقالت النيابة أيضا أن ما زعمه من أن الإسلام يحاول أن يربط نفسه بالمسيحية واليهودية بصلة من شأنها تقوية الإسلام ، أنه قول مردود بأنه لا يفرق بين أحد منهم ، أما بالنسبة للمسيحيين واليهود فقد فرق بينهم وجعل الطائفة الأولي هم أقرب الناس إلي المسلمين بينما الطائفة الثانية أشد الناس عداوة لهم وفي أكثر من مجال انتقدت مذكرة النيابة الكتاب ، ووصفت الدكتور طه حسين بأنه كان سيئ التعبير جدا في بعض عباراته لأنه أوردها بحيث تشعر أنه يقصد شيئا آخر بجانب مقصودة

وقالت مذكرة النيابة العامة أيضا أن المؤلف عجز عن تقديم أي دليل على أن أهل مكة لم يكونوا يتكلمون اللغة العربية ، وأدانته في تشكيكه في وجود سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل وقيامهما ببناء الكعبة ، وقالت النيابة أن القرآن الكريم ذكر أنبياء بدءا بإبراهيم وختاما بعيسي فلماذا لم يشكك الكاتب في الوجود التاريخي للأنبياء.. واقتصر دوره في ذلك على سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل

دليل آخر مادي أخذته النيابة من أقواله المكتوبة حيث نقل قول أبي عمرو بن العلاء " ما لسان حمير بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا " إذ أسقط الجزء الثاني وبدله إلي قوله آخر من عنده هو .. ولا لغتهم بلغتنا وكان سند المحقق في ذلك مرجعا تاريخيا هاما هو كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام الجمحي، وهو الذي أورد النص الحقيقي الذي غيره المؤلف.

بنت النيابة العامة قرارها بحفظ التحقيق مع الدكتور طه حسين على الآتي :

قررت النيابة ابتداء أن ما كتبه المؤلف هو مجرد تخيلات وافتراضات واستنتاجات لا تستند إلي دليل علمي أو عقلي ، وكان يتعين عليه لمركزه أن يكون أكثر حرصا في جرأته على ما أقدم بما يمس الدين الإسلامي الذي هو دين الدولة ، فضلا عن أنه دينه أيضا واستطردت النيابة تقول : والبادي أنه تورط في بحثه حتى تخيل حقا ما ليس بحق وسلك طريقا مظلما ، وكان يتعين عليه أن يكون أكثر احتياطا حتى لا يضل وتكون نتيجة عمله كما حدث غير محمودة.

غير أنها عادات فقالت أنه لأجل الفصل في الشكوى لا يجوز انتزاع العبارات من مواضعها والنظر إليها منفصلة.. بل الواجب توصلا إلي تقديرها تقديرا سليما بحثها حيث هي أي في مواضعها من سياق الكتاب وبذلك يمكن الوقوف على قصد المؤلف منها وبالتالي تقدير مسئوليته تقديرا صحيحا وسليما.

وانتهت النيابة إلي نتيجة قانونية : أنه كي يعاقب المؤلف على كتابه فإنه لابد أن يتوافر لديه القصد الجنائي أي لابد أن يثبت في حقه أنه أراد أن يتعدى على الدين الإسلامي ، إذا الثابت من الأوراق أنه أنكر ذلك وبرر ما ذكره وأن ذلك إنما تم منه على سبيل البحث العلمي المجرد ، وأكد أنه مسلم حقا ويقينا وبالتالي ينتفي عنه القصد الجنائي ، وهو أحد أركان الجريمة مما يتعين معه حفظ الأوراق إداريا.

وإذا كان لابد من تعليق فقد أحدث الكتاب ضجة كبيرة ورد عليه كثير من العلماء والفقهاء ويري البعض أن مذكرة النيابة العمومية ولو أنها انتهت بحفظ التحقيق من الناحية الجنائية .. فإنه سيظل محتواها هو أقوى وأبلغ رد على ما آثاره المؤلف طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي.. والموضوع طويل وعريض وعميق وأرجو أن أكون وفقت في جمع شتاته ولم أطرافه في هذا الحيز المحدود

والعرب كما يقول : " لم يكونوا على غير دين . ولم يكونوا جهالا ولا غلاظا ولم يكونوا في عزلة سياسية أو اقتصادية ، بالقياس إلي الأمم الأخرى ، كذلك يمثلهم القرآن وإذا كانوا أصحاب علم ودين ، وأصحاب ثروة وقوة وبأس ، وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة ، متأثرة بها مؤثرة فيها فما أخلقهم أن يكونوا أمه متحضرة راقية ، لا أمة جاهلية همجية وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن ظهر في أمة جاهلية همجية ؟

وبما أن الشعر الجاهلي لا يصح أن يكن مرآة صافية للحياة الجاهلية – وهي الحياة التي نشأ فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقام بدعوته كافح من أجل الدعوة فيها – فالشيء الذي يعبر عن هذا الحياة تعبير صدق ، وموثوق به كل الثقة ، هو القرآن.

■" القرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي "

وإذا رجعنا إلي القرآن – هكذا يستنتج المؤلف – نجده قد صور العرب وحياتهم بما يجعلهم أمة سياسية تنشد أن تكون قوة ثالثة بين الفرس والروم ، كما كانت أمة وسطا بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي . وبذلك كانت مركزا للتجارة " العابرة " وعن هذا الوضع بين الشمال الجنوب أثرت ، نافست في القوة ، كما كان لها دين ومعتقد ناهض ، في ذلك يقول :" لم يكن العرب إذن – كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي – معتزلين ، فأنت تري أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم :

الم{1} غُلِبَتِ الرُّومُ{2} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ{3} فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ{4} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{5} سورة الروم.

فهذا الذي ذكره القرآن في سورة الروم يراه المؤلف " عناية سياسية " أكثر منه تنبأ عن طريق الوحي بمصير الإمبراطورية الرومانية في الشرق – ويستطرد فيقول :

" وهو – أي القرآن – يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السورة المعروفة : " لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ". وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلي الشام – حيث الروم ، والأخرى إلي اليمن حيث الحبشة أو الفرس

وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم تحدثنا : أن العرب تجاوزوا بوغاز باب المندب إلي بلاد الحبشة ، ألم يهاجر المهاجرون الأولون إلي هذه البلاد ؟ وهذه السيرة نفسها تحدثنا بأنهم تجاوزوا الحيرة إلي بلاد الفرس ، وبأنهم تجاوزوا الشام وفلسطين إلي مصر ، فلم يكونا إذن معتزلين – ولم يكونوا إذن بنجوة من تأثير الفرس ، والروم ، والحبش ، والهند وغيرهم من الأمم المجاورة لهم

أرايت أن التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن أنفع وأجدى من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسمونه الشعر الجاهلي ؟

أرايت أن هذا النحو من البحث بغير كل التغيير ما تعدنا أن نعرف من أمر الجاهلين "

ومعني هذا القول : أن القرآن انطباع للحياة القائمة في وقت صاحبه ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ويمثل لذلك بنية خاصة في عقيدتها ، ولغتها ، واتجاهها في الحياة ، وعاداتها ، وهي البيئة العربية في الجزيرة العربية[54].

على أن الهجوم الصريح على القرآن الكريم لم يلبث أن اتخذ أسلوبا آخر ، فإن المصارحة بأن القرآن أثر أدبي من وضع محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أنه صورة للنثر الجاهلي الفني ، أو أنه مرآة وصلت إليه الحياة الجاهلية من ارتقاء ثقافي واجتماعي وسياسي ، كل ذلك لقي أعنف مقاومة من المسلمين ، فقد استيقظ لرده السكران والصاحي ، واجتمع على صده الطائع والعاصي!!.

فلم يجد الغزو الصليبي بدا من الإيعاز لرجاله بمحاربة القرآن على نحو لا يغري بهذه المقاومة المهتاجة ، فلتبق للقرآن قداسته الاسمية ، ولتهجر تعاليمه وتشاريعه ولتضرب الأسوار الغلاظ بين هداه وبين أمته ، حتى لا تكون صلة ما بين ثقافة الأمة وسياستها وشئونها الاجتماعية ، وبين هذا الكتاب الكريم

وقد انصرفت الجهود إلي هذه المحاولة ،فحولت القرآن إلي كتاب يستمع إليه في أحفال الموتى ، ولا يلتفت إليه في أحوال الأحياء.. ومضت سنون ، والأفكار الهاجمة تقتحم كل حصن ، وتبتذل كل قداسة ، حتى اتسعت الشقة بين الواقع والواجب.. ورأينا – ونحن محزونون – كيف تتناول شئوننا الدينية والثقافة والأديبة بكل استهانة.. وكيف أن التيار الطارئ الغريب يريد أن يغير كل شيء في حياتنا الفكرية والعاطفية ، وأن يفصلنا فصلا عن ماضينا الطويل العريق ، وأن يجعل بينا وبين الإسلام بعد المشرقين. ويريد أن يعربد كيفما يشاء في هذه الأمة ويطمس الحقائق الدينية والتاريخية خدمة للاستعمار الصليبي الفاجر.

---

54 **ومضى الدكتور محمد البهي في كتابه الجيد الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار يستشكف ويقارن ، ويضع أيدينا على الأماكن التي نقل منها الدكتور طه حسين أفكاره الجديدة حتى اكتملت في بحثه جميع الأركان التي تتكون منها "السرقة الأدبية" وهي في هذا المجال ليست اقتباساً بلاغياً ، أو توليد شعرياً ، ولكنها مسخ دين ، وهدم أمة.**

ويسرنا أن نجد رجلا كبيرا من قادة الأدب والثقافة في العصر الحديث ، يؤزار القافلة المؤمنة ويهاجم بقلمه الواعي ، هذه الحركات المجنونة في عالم البغال! ، فلنثبت هنا رأي الأستاذ " عباس محمود العقاد " في هذا الموضوع

" في وسعنا أن نجمع اتجاهات الأدب العربي الحديث في اتجاهين شاملين : أحدهما الاتجاه الطبيعي ، والأخر الاتجاه المصطنع ، أو الاتجاه الكاذب بالقول الصريح وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحلال بين والحرام بين ، ويجوز لنا قياسا على ذلك أن نقول أن الاتجاه الطبيعي بين ، والاتجاه المصطنع أو الكاذب بين ، وأن الفرق بينهما يخفي على ناظر يريد أن ينظر ، لأن الكائنات الطبيعية – التي تنمو أمامنا تنمو طبيعيا ، وتتجه أمامنا اتجاها طبيعيا – أكثر من أن تحصي...

أن البيئة الحية تقوم على كيان مستمر لا ينقطع عن ماضيه ، ولا ينفصل عن أصوله وموروثاته ، ولا تزال كل خلية فيه حافظة لسجل الحياة في عصوره الماضية آلافا من السنين ، يظهر منها ما يظهر ويستتر منها ما يستتر..

ومن علامات البنية الحية أيضا : أن تتغير على حسب الظروف ، وأن تشتمل على قدرة متجددة ، تتمكن بها من التوفيق بينها وبين ما حولها ، ولا تستقر فيه استقرار الجماد ولكنها تتغير لتبقي ، ولا تبقي لتمحو وجودها في هذا التغيير .. ولنضرب لذلك شجرة القطن مثلا ، ونضرب لها ما شئنا من الأشجار مثلا بالقياس عليها.

فإن شجرة القطن تتغير حسب المنبت ، وعلى حسب الوسائل الزراعية ، وعلى حسب العناية بتطبيق هذه الوسائل ، ولكنها تبقي " قطنا " بعد هذا التغيير ، ولا تزول منها هذا الصفة " الأصيلة" إلا إذا أذنت كلها بالزوال وعلى هذا المثل يقاس الاتجاه الطبيعي في كل بنية حية ، ومنها آداب اللغات... فهي تتغير – كلما تغيرت – لتبقي لا لتفني ، أو لتنعدم فيها الصفات التي يتحقق بها كيانها.

وكل إنسان يبقي فيه شيء متشابه متقارب بين طفولته وصباه وشبابه وكهولته وشيخوخته ، ولكنه إذا انفصل كل الانفصال بين عهدين فقد زال.. والاتجاه الذي يسمي اتجاها طبيعيا في الأدب العربي واضح من هذه الأمثلة

فمن الواجب " أولا " أن يحافظ على كيان اللغة العربية ، ومن الواجب مع ذلك أن تتصل الوشائج بينه وبين أصوله ، ومن الواجب على الدوام أن يقبل التجدد وأن يكون بنية حية تتغذى بغذاء التربة التي ينمو فيها.

وهكذا اتجه الأدب العربي المطبوع في العصر الحديث ، فإن العناية فيه قد انصرفت قبل كل شيء إلي تصحيح اللغة وأحياء تراثها ، ومتى راجعنا كتابات الأدباء خلال القرن التاسع عشر إلي أوائل القرن العشرين وجدنا الكثير منها قائما على تصحيح العبادات الألفاظ والقواعد وتقديم المأثورات المهجورة أو التعريف بها على حقائقها كما كانوا يدركونها بعد النهضة الحديثة.

ولما شعر الأدباء بمحاسن الآداب الأجنبية أقبلوا على ترجمتها وتعريبها أو صبغها بالصبغة العربية ، وبالغ بعضهم في ذلك فحاول أن ينقلها مسجوعة ، وأن ينقل الأسماء الإفرنجية إلي الأسماء العربية ، ثم تدرجت هذه المحاولة تدرجا – طبيعيا أيضا – حتى اهتدت إلي نهجها القويم.. وتقدمت النهضة فاستفادت من التقدم بعض الثقة أو بعض الأنفة ، وعمدت إلي الابتكار والاستقلال بالرأي بعد الترجمة وبعد الاقتداء والتقليد ، فلا تترجم إذا استطاعت أن تؤلف ، ولا تلقي اعتمادها كلها على الترجمة في جميع الأحوال . هكذا غلفت " ثقافة الكراهية السوداء " الصليبية – الأطماع الاستعمارية في الصراع الغربي ضد الإسلام وحضارته وعالمه.

ولكن الغرب المتعصب حتى بعد وفاة طه حسين المتأثر بالتيار الغربي المنادى بالتطرف الحيادي مع الغرب على عكس تلامذة الشيخ محمد عبده مدرسته الأصلية كعباس محمود العقاد والشيخ أمين الخولي يستمر في عناده وخاصة أن العرب تحرر من الربض الغربي بعد حرب أكتوبر 1973م فأقيم " مؤتمر كولورادو " – الذي انعقد بأمريكا 1398 هـ - مايو 1978 م – لتنصير كل المسلمين .. تعلن المؤسسة الدينية البروتستانتية عن تجذر تناقضاتها وعدائها للإسلام .. فتقول : " إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية .. والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعا وسياسيا.. ونحن بحاجة إلي مئات المراكز، لفهم الإسلام ، ولاختراقه في صدق ودهاء! .. ولذلك ، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين!!ولكي يكون هناك تحول إلي النصرانية، فلابد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس – أفرادا وجماعات – خارج حالة التوازن التي اعتادوها"! وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعة كالقمر والكوارث والحروب ، وقد تكون معنوية ، كالتفرقة العنصرية ، أو الوضع الاجتماعي المتدني.. وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهينة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلي النصرانية .. ولذلك ، فإن تقديم العون لذوي الحاجة قد أصبح أمر مهما في عملية التنصير إن إحدى معجزات عصرنا ، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكامها التي كانت تناهض العمل التنصيري، فأصبحت أكثر تقبلا النصارى.

هكذا أعلنت المؤسسة البروتستانتية الغريبة أنه لابد من " اختراق الإسلام في صدق ودهاء! " لتنصير كل المسلمين وطي صفحة الإسلام من الوجود ، اعتمادا على " معجزة الكوارث المصنوعة " حينا.. وبالقوة في حين أخر.

أما المؤسسة الكاثوليكية فلقد رفعت في الربع الأخير من القرن العشرين شعار " أفريقيا نصرانية سنة 2000م "فلما خيب الله أمالها ، ولم تتحقق أطماعها.. أخرت تاريخ تنصير أفريقيا إلي 2025 م!!..".

وإمعانا في " أدبيات " النزعة الصراعية الغريبة إزاء الإسلام وحضارته يعلن الكاردينال " بول بوبار" مساعد بابا الفاتيكان ، ومسئول المجلس الفاتيكاني الثقافة "

"أن الإسلام يشكل تحديا بالنسبة لأوروبا وللغرب عموما وأن المرء لا يحتاج إلي أن يكون خبيرا ضليعا لكي يلاحظ تفاوتا متزايدا بين معدلات النمو السكاني في أنحاء معينة من العالم ، ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكاني بشكل تدريجي ، بينما يحدث العكس في البلدان الإسلامية.. وفي مهد المسيح ، يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد ، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجا بشكل ما؟! " إن التحدي الذي يشكله الإسلام يمكن في أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف ، في حين أن المسيحيين في أوروبا يميلون إلي تهميش الكنيسة أمام المجتمع ، ويتناسون الصيام الذي يفرضه عليهم دينهم ، وفي الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين في شهر رمضان!!.

ويأتي الكاردينال " جاكومو يبفي Gacomo Pevi" – أسقف مدينة بولوينا – بإيطاليا – ليعلن في رسالته يوم 13 / 9 / 2000 م أنه لا تعايش بين المسيحية والإسلام " فإما أن تتحول أوروبا إلي مسيحية فورا ، وإلا ستكون إسلامية مؤكدا "

وفي العصر الحديث .. بدأت الغزوة " الصليبية – الإمبريالية " دورة أخرى ضد الشرق الإسلامي ، منذ ما يزيد على خمسة قرون .. فبعد أن نجحت الصليبية في اقتلاع الإسلام وحضارته من الأندلس بإسقاط " غرناطة" في ربيع الأول 897 هـ - يناير 1492 م بدأت في أغسطس من نفس العام الغزوة "الصليبية الإمبريالية" الثانية ، وذلك بالالتفاف حول العالم الإسلامي ، تمهيدا لضرب قلب العالم الإسلامي ، والاستيلاء – مجددا – على القدس وفلسطين .. وإعادة الاستعمار الغربي إلي الشرق من جديد .. بدأت هذه الغزوة الصليبية الجديدة 14992م أي في ذكرى مرور قرنين على اقتلاع أخر حصون الغزوة الصليبية الأولي في الشرق الإسلامي – حصن عكا – 1291 م!.

وأما صورة شعوب الأمة الإسلامية في هذه الثقافة الغريبة فأنها تلك التي صنعتها الخيالات المريضة والمغرضة.. وأشاعتها بين العامة والدهماء بواسطة الملاحم الشعبية وبنص عبارة المستشرق الفرنسي " مكسيم رودنسون" "1915 – 2004 م ".

وهكذا استمر التزييف الثقافي سلاحا غريبا في الصراع الحضاري الغربي ضد الإسلام عبر تاريخ هذا الصراع .. ويشهد على ذلك طوفانه الذي انهال على الإسلام وأمته وحضارته بصحبة الحرب الصليبية – الإمبريالية الجديدة التي شنت على الإسلام وعالمه عقب قارعة 11 سبتمبر سنة 2001 م في أمريكا.

الخاتمة

أسباب الخصومة بين الاسلام والمسيحية

1- جهل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبي في مقدمة ما يدعو إلي هذه الخصومة . والجهل ولا ريب من أعقد أسباب الجمود والتعصب وأشدها استعصاء . ولقد تراكم هذا الجهل على مر القرون وقامت له في نفوس الأجيال تماثيل وأوثان يحتاج تحطيمها إلي قوة روحية كبري كقوة الإسلام أول ظهوره على أنا نحسب أن ثمة سببا غير الجهل هو الذي دفع أهل الغرب إلي هذا التعصب وإلي إثارة الحرب الضروس الشعواء التي أثاروها يثيرونها على الإسلام وعلى المسلمين آن بعد آن ، وليس ينصرف ذهننا إلي ما قد يدور بالخاطر من صروف السياسة حب الظفر بالشعوب لاستغلالها فتلك في اعتقادنا نتيجة لا سبب لهذا التعصب المستعصي حتى على العلم وعلى بحوثه. ومن هنا ننصح بالآتي

الاعتماد علي كتاب السيرة من المسلمين

وما ورد في رسالات و مقالات صحفية لكبار الكتاب الإسلاميين أمثال الدكتور محمد عمارة وغيرهم لخصته هنا بالغ في الدلالة علي وجوب هذا الحذر فأول ما يأخذه علي أنني اعتمدت علي المراجع العربية و الإسلامية واتخذتها أساسا لبحثي . ومن الأمور الهامة التي يجادل فيها المستشرقون كذلك بعد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في نبوته هو القرآن الكريم الذي نزل من الروح الأمين جبريل عليه السلام والذي اعتبر المعجزة الخالدة في ذات الكتاب الخالد الذي تعهد الله بحفظه {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**} (9) **سورة الحجر** ولم يتركه لحفظ الناس الذين يجوز عليهم الخطأ والنسيان والضلال. وإذا كانت سنة التدافع بين الحق والباطل هي سنة إلهية عامة ودائمة {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**} (112) سورة الأنعام. فلقد جاء الإعجاز القرآني متحدياً لكل أصحاب العقائد والفلسفات الخارجية عن العبودية لله الواحد في عصر نزوله ....وعلى امتداد الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها الأمر الذي أثار ولا بد أن يثير الافتراءات على هذا القرآن منذ لحظة نزوله وعلي مر العصور انه الإعجاز الخاتم و الخالد لسلسلة النبوات و الرسالات و التحدي الدائم للخارجين عن حظيرة الإسلام ، ومن ثم فان معارضته و الافتراء عليه و محاولات تشويهه هي الأخرى دائمة علي الامتداد العصور .

و لذلك فان الآيات التحدي قد انتشرت في سور القرآن الكريم " **آلم{1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{2} سورة البقرة** ، وقد ذكر في سورة البقرة كذلك ما هو نصه في الآيتان 23 ، 24 **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ{23} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ{24} ، "أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً"{82} سورة النساء ،" مَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{37} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{38}" سورة يونس، مْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{13} فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{14} سورة هود ، الم{1} تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{2} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ{3} سورة السجدة ، "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ{41} لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"{42} سورة فصلت ، "أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ{33} فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ"{34} سورة الطور. "إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ{79} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{80}" سورة الواقعة "بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22}" سورة البروج.**

هكذا تأثرت عشرات آيات التحدي في سور القرآن الكريم ، معلنة استحالة محاكاة هذا الإعجاز لأنه تنزيل من حكيم حميد.عندما تحدي القرآن جميع المكذبين بأنه الوحي المجسد لنبا السماء العظيم و دعاهم – إن كانوا صادقين أن يستجمعوا طاقاتهم و ملكاتهم و يجمعوا شركاءهم و معبوداتهم ليأتوا بعشر سور من مثل القرآن أو بسورة من مثله استخدام مصطلح " المثل " و ذلك لحكمه بالغة لا يدركها إلا البلغاء الذين يعرفون أسرار البلاغة التي بلغت ذروتها في هذا القرآن الكريم ففي التشبيهات و المقارنات هنالك عدة من المصطلحات لكل منها معني محدد في هده التشبيهات و المقارنات . هناك مصطلح " الند" و هي يعني المشاركة في الجوهر فقط . وهناك مصطلح " الشبه " و هو يعني المشاركة و الكيفية فقط . و هناك مصطلح " الشكل " وهو يعني المشاركة في القدر و المساحة فقط

الرجوع إلي العلم

والذين تمسكهم طمأنينتهم الساذجة إلي أقوال هؤلاء المستشرقين عن سؤال أهل العلم من رجال الطب وعن الرجوع إلي كتبه ولو أنهم فعلوا لما تعذر عليهم أن يكشفوا خطأ هؤلاء المستشرقين خطأ مقصودا أو غير مقصود ولتبينوا أن النشاط الروحي والعقلي للإنسان يختفي تمام الاختفاء أثناء نوبات الصرع ، ويذر صاحبه في حالة آلية محضة يتحرك مثل حركته قبل نوبته أو يثور إذا اشتدت به النوبة فيصيب غيره بالأذى وهو أثناء ذلك غائب عن صوابه لا يدرك ما يصدر عنه ولا ما يحل به شأنه شأن النائم الذي لا يشعر بحركاته أثناء نومه فإذا انقضي ما به لم يذكر منه شيئا وشتان ما بين هذا وبين نشاط روحي قوي قاهر يصل صاحبه بالملأ الأعلى عن شعور تام وإدراك يقيني ليبلغ من بعد ما أوحي إليه. فالصرع يعطل الإدراك الإنساني ويترك الإنسان إلي مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس أما الوحي فسمو روحي اختص الله به أنبياءه فيلقي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغوها للناس وقد يصل العلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سننها وأسرارها بعد أجيال وقرون وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهي مع ذلك حقائق يقينية تهتدي قلوب لمؤمنين الصادقين إلي حقيقتها على حين تظل قلوب عليها أقفال جاهلة إياها لغفلها عنها.

قصور العلم أحيانا

كنا نفهم أن يقول هؤلاء المستشرقين : أن الوحي ظاهرة نفسية شاذة في تقدير علمنا وما وصل إليه حتى اليوم فمن المتعذر إذا تفسيرها على طريقته لكن هذا القول إنما يدل على أن علمنا على ما انفسح مداه واتسع افقه لا يزال قاصرا عن تفسير كثير من الظاهرات الروحية والنفسية ولا عيب على العلم وفي هذا ولا عجب فيه فعلمنا ما يزال قاصرا عن تفسير بعض الظاهرات الكونية القريبة ومنا وطبيعة الشمس والقمر وغيرهما من الأفلاك والكواكب ولا يزال أمر العلم فيها عند الفروض والاستنباطات وهذه الأفلاك والكواكب جميعا بعض ما تشهد العين المجردة وما تكشف الآلات المقربة لنا عن كثير من خفاياها وإلي قرن مضي كانت مخترعات كثيرة تعتبر بعض إبداع الخيال فلا سبيل إلي أن تتجسد أمامنا وهاهي ذي قد تجسدت وصرنا نحسبها من البسائط والظاهرات الروحية والنفسية اليوم هي موضع ملاحظة العلماء ، لكنها لم تخضع بعد لسلطان العلم كي يستنبط قوانينها الثابتة وكثيرا ما نقرأ عن أمور شهدها العلماء وأثبتوها ثم اثبتوا معها أنهم لا يجدون لها في السنة الكونية التي استنبطها العلم تأويلا تطمئن إليه قواعده فعلم النفس ما يزال بوجه عام غير ثابت السنن في كثير من الشئون التي تعرض له فإذا كان هذا واقعا في الحياة العادية كان البدار إلي محاولة تفسير ظاهرات الحياة جميعها على الطريقة العلمية محاولة عقيمة وإسرافا معيبا

ولقد كان الوحي بعض ما شهد المسلمون أثناء حياة محمد وكان القران كلما ذكره لهم زادهم به إيمانا وكان منهم أذكياء غاية الذكاء وكان منهم يهود ونصارى طال الجدال بينهم وبين النبي العربي ثم آمنوا برسالته ولم ينكروا عليه من أمر الوحي شيئا ولقد حاول قوم من قريش أن يتهموه بالسحر والجنون ثم اقروا أنه ليس ساحرا ولا مجنون وتابعوه وامنوا بما جاء به أما وذلك ثابت يقينا فما يأباه العلم وتتنزه عنه قواعده إنكار حدوث الوحي والحط من قدر صاحبه ونعته بأوصاف ينكرها العلم ولا يقرها والعلم النزيه القصد إلي الحق لا يستطيع أكثر من أن يقرر أن ما وصل إليه العلم حتى هذا الزمان يقصر دون تفسير الوحي على الطريقة العلمية المادية لكنه لا يمكنه أن ينكر بحال من الأحوال حدوث ظاهرات هذا الوحي مما وصف أصحاب النبي وكتاب الصدر الأول للإسلام فإن أنكرها وحاول تأويلها واتخذ العلم باطلا وسيلة إلي ذلك كان مبطلاً متعنتا والتعنت والعلم لا يتفقان.

الطريقة الصحيحة في البحث

أحسبنا بعد هذا التمحيص الذي نقلناه في شأن القرآن ودقته في حل ما جاء في بعض كتب المستشرقين وخلافهم من الكتاب –وللأسف- هناك بعض الكتاب المسلمون المؤمن بكل ما يكتب المستشرقين عن آيات يزعمونها أنها أضيفت إلي القرآن ، وعن اسم النبي وأنه لم يكن قثم أو قثامة فهذا كلام لم يمله الحق بل أملاه الهوى الذي دعوه تحريف القرآن

ونعود إلي بعض ما يكتبه هؤلاء وغيرهم من المسلمون فهم يذكرون أن مباحث المستشرقين دلتهم على أن النبي كان يصاب بالصرع وأن أعراضه كانت تبدو عليه ، إذا كان يغيب عن صوابه ، ويسيل منه العرق ، وتعتريه التشنجات ، وتخرج من فمه الرغوة ، حتى إذا أفاق من نوبته ، تلا على المؤمنين به ما يقول ، أنه وحي الله إليه ، في حين ، وذلك لكي يطلع الغرب على الإسلام بذاته ولا يتهمه بجهل أو تعصب منه

تفريق الاسلام بين الوثنية والكتابية

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد نزلت فيهم مماثلاً من سورة التوبة هذه الآيات "قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ {29} وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ {30} اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ {31} يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ {32} هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ {33} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {34}

يقف كثير من المؤرخين أمام هذه الآيات من سورة التوبة ختام ما نزل من القرآن يسائلون أنفسهم : هل أمر محمد في شأن أهل الكتاب بغير ما أمر به قبل أثناء سن رسالته ؟ ويذهب بعض المستشرقين إلي القول بأن هذه الآيات تضع أهل الكتاب والمشركين فيما يشبه المساواة وأن محمدا وقد ظفر بالوثنية في شبه الجزيرة بعد أن استعان عليها باليهودية والمسيحية معلنا خلال أعوام رسالته الأولي أنه إنما جاء مبشرا بدين عيسي وموسى وإبراهيم والرسل الذين خلوا من قبل ، قد جعل وجهته إلي اليهود الذين بدأوا بالعداوة فظل بهم حتى أجلاهم عن شبه الجزيرة ، وأثناء ذلك كان يتودد إلي النصارى وتتنزل عليه الآيات تشيد بحسن إيمانهم وجميل مودتهم ، وينزل عليه قوله تعالي : **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُون سورة المائدة الآية** 82، وهاهو ذا الآن يجعل وجهته إلي النصرانية ، يريد بها ما أراد باليهودية من قبل ، فيجعل شأن النصارى ، كشأن الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الأخر ، وهو يصل إلي ذلك ، بعد أن أجار النصارى ، من اتبعه من المسلمين ، حين ذهبوا إلي الحبشة ، يستظلون بعدل نجاشيها ، وبعد أن كتب محمد ، لأهل نجران وغيرهم من النصارى ، يقرهم على دينهم ، وعلى القيام ، برسوم عبادتهم ، ويذهب أولئك المستشرقين ، إلي أن هذا التناقض في خطة محمد ، هو الذي أدي إلي استحكام ، العداوة بين المسلمين ، والنصارى ، من بعد ،وأنه هو الذي جعل التقريب بين اتباع عيسي واتباع محمد غير ميسوران.

لم يكن في حكم المستحيل والأخذ بظاهرة هذه الحجة ، قد يغري الذين يستمعون إليها ، بالميل إلي أنها تصف جانبا من الحق ، أن لم تعزهم بتصديقها ، فأما تتبع التاريخ ، والتوفيق في أحوال نزول الآيات ، وأسبابها – أسباب نزولها – فلا يدع محلا للريب ، البتة ، في وحدة موقف الإسلام ، وموقف محمد ، من الأديان الكتابية، منذ بدر رسالته ، إلي ختامها ، فالمسيح بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلي مريم ، والمسيح بن مريم عبد الله ، أتاه الكتاب ، وجعله نبيا ، وجعله مباركا ، أينما كان ، وأوصاه بالصلاة ، والزكاة ، مادام حيا ، ذلك ما نزل به القرآن منذ بدء الرسالة ، إلي ختامها ، والله أحد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، ذلك روح الإسلام أساس ، منذ اللحظة الأولي ، وذلك روح الإسلام ، مادام العالم ، ولقد ذهب وفدين نصارى نجران إلي النبي يجادلونه في الله ، وفي نبوة عيسي ، من قبل ، أن تنزل سورة التوبة ، بزمن طويل ، ويسألون محمداً : أن عيسي أمه مريم فمن أبوه ؟ وفي ذلك نزل قوله تعالي : أن مثل عيسي عند الله كمثل أدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم

ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين أن هذا لهو القصص الحق وما من اله لا الله وأن الله لهو العزيز الحكيم فان تولوا فإن الله عليم بالمفسدين " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلي كله سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا اشهدوا بانا مسلمين وفي هذه السورة ، سورة آل عمران من 59-64 يتوجه الحديث حديثا معجزا إلي أهل الكتاب يعاتبهم لم يصدون عن سبيل الله ، من آمن ، ولم يكفرون بآيات الله ، وهي التي جاء بها عيسي ، وجاء بها موسى ، وجاء بها إبراهيم ، قبل أن تحرف عن مواضعها ، وقبل أن يوجهها التأويل ، بما تهوي أغراض هذه الحياة الدنيا ، ومتاعها الغرور ، وفي كثير من السور يتوجه الحديث على النحو الذي وجه به في سورة آل عمران وكذلك ليعرفوا أنه

لا نزاع في الاسلام بين الدين والدولة

أن التاريخ يثبت أنه من زمان من الأزمان لم يحدث خلاف من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية أي بين الكنيسة والدولة ، فاتجاه ذلك مما ترك هذا النزاع في تفكير الغرب وفي اتجاه تاريخه ، وترجع نجاة الإسلام من هذا النزاع ، وآثاره ، إلى أنه لم يعرف شيئا اسمه الكنيسة أو السلطة الدينية على نحو ما عرفت المسيحية.

فليس لأحد من المسلمين ولو كان خليفة أن يفرض أمرا على الناس باسم الدين وان يزعم أنه قدير مع ذلك على الغفران لمن خالف هذا الأمر ، وليس لاحد من المسلمين ، ولو كان خليفة ، أن يفرض على الناس غير ما فرضه الله في كتابه ، بل المسلمون ، أمام الله سواسية ، لا فضل لاحد ، منهم على أحد ، إلا بالتقوى ، وليس لولي الأمر ، على مسلم طاعة ، في معصيته ، ولا فيما لم يأمر به الله به ، يقول الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين خطب المسلمين ، يوم بايعوه ، بالخلافة ، أطيعوني ، ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لي عليكم ، ومع آل إليه الأمر في الإسلام ، بعد ذلك ، من ملك عضوض ، ومع ما قام بين المسلمين ، من ثورات أهلية ، لقد أقام المسلمون على تمسكهم بهذه الحرية الذاتية العظيمة التي قدرها لهم دينهم. هذه الحرية التي جعلت العقل حكماً في كل شيء جعلناه حكماً في الدين. وفي الإيمان نفسه ، لقد تمسكوا بهذه الحرية ، حتى بعد أن ادعى أمراء المؤمنين ، انهم خلفاء الله لا خلفاء رسوله على الأرض ، وانهم يملكون من أمر المسلمين ، كل شيء حتى الحياة ، والموت ، يشهد بذلك ما حدث في عصر الخليفة العباسي المأمون ، حين اختلف على القران مخلوق هو ، أم غير مخلوق ، فقد خالف الكثيرون ، رأي الخليفة ، مع علمهم ، بما يستهدف له ، المخالف ، من عقاب وغضب.

ونوع الكلمة الآن في شيء من تفصيل ذلك إلى المغفور/ له الأستاذ الشيخ محمد عبده إذ يقول كتاب "الإسلام والنصرانية" ما نصه :

كان الإسلام دينا عربياً ، ثم لحقه العلم ، فصار علما عربياً ، بعد أن كان يونانيا ، ثم اخطأ ، خليفة في السياسة، فاتخذ من سماحة الإسلام ، سبيلا إلى ما كان يظنه خيرا له ، ظن أن الجيش العربي ، قد يكون عونا لخليفة علوي لأن العلويين كانوا الصق ببيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يتخذ له جيشا من الترك ، والديلم ، وغيرهم ،من الأمم التي ظن أنه ، يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه ، من الملك ، وفي سعة أحكام الإسلام وسهولته ، ما يبيح له ذلك ، هناك استعجم الإسلام وانقلب عجميا، خليفة عباسي[55] أراد أن يصنع لنفسه ، ولخلفه وبئس ما صنع ، بأمته ، ودينه اكثر من ذلك الجند الأجنبي ، أقام عليه الرؤساء منه ، فلم تكن عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة في قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل ، الذي راضه الإسلام والقلب ، الذي هذبه الدين ، بل جاءوا إلي الإسلام ، بخشونة الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الإسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء ، إلي وجدانهم ، وكثير منهم ، كان يحمل إلهه معه ، يعبده ، في خلوته ، ويصلي مع الجماعات ، ليتمكن سلطته ، ثم عدا على الإسلام آخرون ، كالتتار ، وغيرهم ، ومنهم من تولي أمره ، أي عدو لهؤلاء اشد من العلم ، الذي يعرف الناس منزلتهم ،ويكشف لهم قبح سيرهم ، فمالوا على العلم وصديقة الإسلام ، ميلتهم. أما العلم فلم يحظوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيرا من أعوانهم ، أن ينتظموا في سلك العلماء ، وان يتسربوا بسرابيله ، ليعدوا من قبيلة ، ثم يضعوا العامة في الدين ، ما يبغض إليهم العلم ، ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أعزار من باب التقوى ، حماية الدين ، زعموا الدين ناقصا ليكملوه أو مريضا ليعالوه ، أو متداعيا ليدعموه ، ويكاد أن ينقض ليقيموه ونظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه لكنهم نجحوا في إقناع العامة بان في ذلك تعظيم شعائره وتفخيم أوامره والغوغاء عون القائم وهم يد الظالم فخلقوا لنا هذه الاحتفالات وتلك الاجتماعات وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة اركن الناس في الضلالة وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك الإسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة بأنه لا تطر لهم في الشئون العامة وان كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه

---

[55] **يقصد الشيخ محمد عبده بالخليفة العباسي الثامن المعتصم بالله (218-227هـ / 833-842م) الذي قام بإسقاط العرب من ديوان الجند ووضع بدلاً منهم الأتراك في عام 221هـ / 835م. والذي صادف له القدر أن رقم 8 اقترن به فهو الخليفة الثامن من الخلفاء العباسيين ، وامتدت خلافته ثمانية أعوام وثمانية أشهر ، وله ثمانية من الأولاد وثمانية من البنات ، حتى مولده كان في عام 178هـ ولذلك لقب بالمثمن**

وان ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ليس من صنع الحكام وانما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان وانه لا حيلة في إصلاح حال ولا مال وان الإسلام تفويض ذلك إلى الله وما على المسلم ألا أن يقتصر على خاصة نفسه ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك وفي الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم في بث هذه الأوهام وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين وتعاون ولاه الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم وغلا للأيدي عن العمل والعامل الأقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة في الدين وموافقة الهوى أمور اجتمعت أهلكت فاستتر الحق في ظلام الباطل ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم وبيناتها على خط مستقيم كما يقال هذه السياسة سياسة الظلمة وأهل الأثرة هي التي روجت ما ادخل على الدين مما لا يعرفه وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السماوات وأخلدت به إلى يأس يجاور به العماوات فجل ما تراه الآن مما تسميه إسلاما فهو ليس باسلا وانما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج من الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذي ذكرت وعدده دينا – نعوذ بالله منهم – ومما يفترون على الله ودينه فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام وانما هو شيء آخر سموه إسلاما.

2-السبب الثاني هو حركة الاستشراق الذي تحدثنا عنها في الفصل الثالث الإسلام والحيادية التي ظهرت في فترة الستينات في القرن الثامن عشر الميلادي على يد الشاعر الألماني جوته وهنا سنحلل أسباب خطأ حركة الاستشراق.

أسباب خطأ المستشرقين

لكن الخطأ يتسرب إلى كتابهم ومقالاتهم لعدم دقتهم في إدراك أسرار اللغة العربية تارة ، ولما يشوب نفوس طائفة من هؤلاء العلماء من الحرص علي هدم مفردات دين من الأديان ، أو علي هدم مقررات الأديان جميعا ، تارة أخرى وهذا وذاك إسراف كان يجمل بالعلماء أن يجتنبوه . ولقد رأينا مسيحيي دفعهم هذا الإسراف إلى إنكار إن عيسي وجد على التاريخ ، ورأينا آخرين تخطوا حدود الإسراف فكتبوا عن جنون عيسي ، وإنما دعا إلى هذه النزعة في أوربا ما بين الكنيسة والدولة من نزاع أدي برجال الدين و رجال العلم ، كل من ناحيته ، إلى الحرص علي الغلب لاقتناص السلطان والحكم . أما والإسلام برئ من هذا النزاع فليتق الباحثون من أبنائه سلطان هذه الشهوة التي تخضع لها رجال الغرب ، والتي تفسد علي العلماء بحوثهم اكثر الأمر . ويجب عليهم لذلك أن يأخذوا حذرهم حين يطلعون علي ما يصدر عن الغرب من مباحث دينية ، وان يمحصوا كل ما يصوره العلماء علي أنه حق . فالكثير منه يتأثر بمقدار غير قليل بهذا الماضي الذي جعل الخصومة متصلة بين رجال الدين ور جال العلم قرونا متوالية. مما أضفى سبب جديد ألا وهو

المتجنون على الإسلام

فذهبت بعد ذلك قلة من المستشرقين غير مذهبهم وزعموا أن القرآن حرف غير آبهين لهذه الأدلة العقلية التي ساقها " موير" وكثرة المستشرقين والتي أخذوها عن التاريخ الإسلامي والعلماء المسلمين كان ذلك تجنبا على الإسلام لم يمله غير الحق على الإسلام ، وعلى صاحب الرسالة الإسلامية، ومهما بلغ المتجنون من البراعة ، في صياغة تجنيهم ، فلن يستطيعوا ، أن يخلعوا عليه ثوب البحث العلمي النزيه ، ولن يستطيعوا أن يخدعوا به من المسلمين أحداً اللهم إلا الشبان الذين يتوهمون أن البحث الحر يقتضيهم أن ينكروا ماضيهم ، وأن يفتنوا عن الحق بما يزيد لهم من الأباطيل ، وأن يؤمنوا بكل مطعن على هذا الماضي ، ولو لم يكن لهذا المطعن ما يسوغه ، من حقائق العلم ، والتاريخ ولو لم يكفي هذا بل أيدهم الناقد الأدبي الدكتور زكي مبارك وطه حسين من علماء المسلمين الذين تأثروا بحركة الاستشراق وعرفوا في الأدب العربي بحركة التغريب .

انصار المستشرقين والرد عليهم

وهناك بعض المستشرقين الأوربيون الذين طعنوا في الدين الإسلامي أمثال قيل " و جولدزهر Goldther" و " ونولدكي Noldki" وغيرهم ، ولم آخذ بنتائج هذه البحوث ، ولأنني اعتبرت القرآن وثيقة تاريخية ، لا محل لريبة فيها ، مع أن مباحث هؤلاء المستشرقين ، تدل علي انه حرف ، وبعد وفاة النبي ، وفي الصدر الأول للإسلام ، واسم النبي ، بعض ما بدل فيه، فقد كان اسمه "قثّم" ، أو " قثامة" ثم بدل من بعد صار " محمداً" ليتسنى وضع الآية " {**وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**} (6) **سورة الصف** ، إشارة إلى ما جاء في الإنجيل عن النبي الذي يجئ بعد عيسي ، ويضيف الكتاب إلى أقوالهم ، هذه أن بحوث المستشرقين دلت كذلك علي أن النبي كان يصاب بالصرع ، وان ما كان يسيمه الوحي الذي ينزل عليه إنما كان أثرا لنوبات الصرع التي كان يعتريه ، وان أعراض الصرع كانت تبدو علي محمد فكان يغيب عن صوابه ويسيل منه العرق ، وتعتريه التشنجات وتخرج من فيه الرغوة ، فإذا أفاق من نوبته ذكر أنه ، وحي إليه وتلا علي المؤمنين به ما يزعم انه من وحي ربه .

لم أكن لا غنى بهذه الرسالات بتفنيد ما فيها لولا أن كتابها- للأسف - يقولون ما تميله عليهم أهوائهم وما تفضح به شهواتهم .

لكن كُتاب الرسالات والمقالات الصحفية إنما هم مثل لطائفة من شبابنا ورجالنا المسلمين الذين يتقلون كل ما يقوله المستشرقين بقبول حسن ويعتبرونه العلم الصحيح المعبر عن الحقيقة الخالصة . والي هؤلاء اوجه القول هنا لاحذرهم ما يقع المستشرقين فيه من خطا . وبعض هؤلاء المستشرقين مخلص في بحثه علي رغم من خطئه. هذه الحال التي صورها الشيخ محمد عبده أدت إلى ذيوع مبادئ متناقضة نشرها أصحابها على أنها من الإسلام وأنها بعض ما أمر به الله ورسوله من هذه المبادئ ومذهب الجبرية الذي صوره المتأخرون تصويرا يخالف ما جاء في القران. ولكن تصدى لهم تلامذته أصحاب التيار المعتدل بعد غزو الفكر الغربي عباس العقاد وأمين الخولي حتى ستينات القرن الماضي.

3- أما عن السبب الثالث وهو سبب ظهر من ستينات القرن التاسع الميلادي وهو التبشير والذي بدأ للعالم الإسلامي.

المبشرون والجامدون

وبينما يقوم هذا التعاون العلمي الجديد بأن يؤتي خير الثمرات ، إذا بنشاط رجال الكنيسة المسيحية لا يفتر في الطعن على الإسلام ، وعلى محمد طعنا ، لا يقل عما تلوت منه ، فيما سبقت الإشارة إليه. والاستعمار الغربي يؤيد بقوته أصحاب هذه المطاعن ، باسم حرية الرأي ، مع أن أصحاب هذه المطاعن ، قد أجلوا عن بلادهم ، وحيل بينهم وبين ما يسمونه تثبيت الإيمان في نفوس إخوانهم في الدين ، وهذا الاستعمار يؤيد كذلك دعاة الجمود من المسلمين وكذلك تضافر عمل الاستعمار على تأييد ما دس على الإسلام مما يبرأ الإسلام منه ، وعلى سيرة الرسول من خرافات لا يسبغها العقل ولا يقبلها الذوق ، وعلى تأييد الطاعنين على الإسلام وعلى محمد بما دس على الإسلام وعلى سيرة الرسول.

4- أما عن السبب الرابع وهو المصدم والذي لن ينهي هو ظهور الحركات الاستعمارية من بعد الانتهاء من العصر الصليبي والذي بدأ من قبل مملكة قشتالة للقضاء على المسلمين في الأندلس منذ عام 1457م ودخول الإسبان والبرتغال المغرب العربي وذلك لـــ

ثروات المسلمين

أن العالم الإسلامي يمثل في الثروات "العالم الأول " في البترول ، والغاز ، والمنجنيز ،والكروم ، والقصدير ، والبوكسيت وإذا مخزون البترول في الولايات المتحدة الأمريكية وفي النرويج – بحر الشمال – لن يزيد عمره – مقارنا بالإنتاج الحالي على عشر سنوات.. وعمره في كندا ثماني سنوات فأن عمر المخزون في العالم الإسلامي سيجعل هذا العالم هو المصدر الوحيد للطاقة على النطاق العالمي ، في المستقبل من الزمان.. فإن عمر هذا المخزون الإيراني – 53 عاما – وعمر المخزون السعودي 55 عاما – وعمر المخزون في الإمارات العربية المتحدة – 75 عاما وعمر المخزون في الكويت 116 عاما أما في العراق . فعمر المخزون النفطي 526 عاما.

● *وهذا غير بترول عالم الإسلام في بحر قزوين .. وفي السودان ووسط أفريقيا تلك هي " كعكة الطاقة " التي تعض عليها الإمبريالية الأمريكية لتتحكم في عالم القرن الواحد والعشرين!!*

● *كما أن العالم الإسلامي في الثروات الخاضعة لاستغلال الشركات الغربية متعددة الجنسيات يمثل العالم الثاني في النحاس والفوسفات ، والعالم الثالث في الحديد ، والعالم الخامس في الرصاص ، والعالم السابع في الفحم.*

الزراعة والثروة السمكية

● *في العالم الإسلامي : أطول أنهار الدنيا وأقدم.فلاح علم البشرية "فن الزراعة".. والأرض الزراعية الصالحة لتكون سلة غذاء تحرر المليار ونصف المليار مستهلك من التبعية الذليلة للاستيراد والاستهلاك من الغرب.. كما أن فيه من الشواطئ المترامية للبحار والأنهار والمحيطات ما يجعله مصدرا عظيما للثروة السمكية*

● **وفي هذا العالم الإسلامي من الفوائض النقدية .. ومن مصادر التمويل للتنمية الاقتصادية ما يحقق الانعتاق من عبودية الديون الغربية ، التي رهنت وترهن اقتصادات وثروات المسلمين وارداتهم وحريتهم وكرامتهم لدى مراكز الهيمنة الاقتصادية الغربية .. ويكفي أن الزكاة وحدها ، وخاصة " زكاة الركاز" التي تمثل 20 % من الثروات المركزة في الأرض ، وأغلب ثروات العالم الإسلامي مركزة في الأرض.. يمكن أن تتحول إلي صندوق تنموي يجعل تنميتنا بالحلال .. كما يجعلها مصدرا لتحررنا!!**

عدم رد الجميل

كذلك يصدر هذا العالم الإسلامي إلي الشمال – الأوروبي والأمريكي – بأرخص الأسعار – 40 % من المعادن و35 % من النفط و63 % من القصدير و65 % من الخشب.. و40 % من القطن .. بينما يحرمه الغرب من التقنيات التي تحقق الاستقلال الاقتصادي وتنميته المستقلة.. بل ويحرمه الآن بعد أحداث 11 سبتمبر سنة 2001 م في أمريكا من تعلم العلوم الدقيقة وتقنياتها .. بل وحتى من الدوريات العلمية ، كما صنع مع العراق طوال سنوات الحصار ! وذك لاغتيال العقل العلمي في بلاد الإسلام! والحيلولة دون امتلاك المسلمين استقلالهم الاقتصادي.. وامتلاكهم لأسلحة الردع التي تحمي هذا الاستقلال.

● وفي هذه الميادين ميادين التحرير لثروات العالم الإسلامي.. تكمن المقاصد العظمي للتحرير ، التي تتغياها الصحوة الإسلامية والتي يسمونها الأصولية التي تريد استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة ، عن طريق بعث الماضي ، وتطبيق الشريعة الإسلامية ، والمناداة بأن الإسلام دين دولة ، واتخاذ الماضي الإسلامي هداية للمستقبل الإسلامي.

● لهذه الأسباب – الفكرية ، والثقافية ، والاقتصادية – يتعرض الإسلام لهذه الهجمة الغريبة الشرسة والظالمة وليس بسبب الجهل به ، أو لعيوب كامنة فيه.

ظلم الشمال للجنوب

أن المشهد الاقتصادي العالمي ، الذي تريد الرأسمالية الغربية المتوحشة الحفاظ عليه ، وتكريسه معتبرة إياه " نهاية التاريخ"[56] يقول أن 20% من سكان العالم – هم أبناء الشمال – يستأثرون ب 86% من خيرات العالم . بينما يعيش 80% من البشرية هم سكان الجنوب على فتات 14%من ثروة العالم!

● وأن 225 فردا من أبناء الشمال يملكون ما يوازي ملكية مليارين ونصف المليار من أبناء الجنوب أي نحو نصف البشرية!

● وأن ثلاثة أفراد في أمريكا يملكون ما يساوي ملكية 48 دولة عضوا في الأمم المتحدة أي قرابة ثلث أعضاء الأمم المتحدة!

● وأن أكبر التجارات في هذا المشهد الاقتصادي الغربي الذي يعولمونه هي تجارة السلاح والدمار تليها تجارة المخدرات تليها تجارة الدعارة!

● وأن الشركات الرأسمالية الغربية متعددة الجنسيات ، ومتعدية القارات التي تستنزف ثروات الجنوب وفي القلب منه عالم الإسلام.. هذه الشركات تقترض الدولارات من بنوك " وول ستريت" بنوريورك بفائدة قدرها 6 % لتعيد إقراضها لدول الجنوب بفائدة تتراوح بين 20 % و50 %فتمص دماء الشعوب

---

56 نظرية نهاية التاريخ ، للمفكر الأمريكي من أصل ياباني ، فرانسيس فوكوياما Francais Fokoyama المولود في عام 1952م.
أما نظرية صراع الحضارات لمفكر أمريكي صامويل هنيجتون Samuel Hingeton المولود في عام 1927م.

التي غدت صادراتها عاجزة عن سداد فوائد هذه الديون ، ناهيكم عن أصول الديون!

وأن تدني القدرة الشرائية ل 80% من البشرية – سكان الجنوب – قد جعل رءوس الأموال المالية الغربية ، الباحثة عن الأرباح السريعة والفاحشة ، تنصرف بعيدا عن ميادين الإنتاج والخدمات ، فتوظف 97% من حجمها في السمسرة والمضاربات والمقامرات والمغامرات في البورصات ! الأمر الذي يحرم الإنتاج والخدمات من ثمرات رءوس الأموال هذه .. ويزيد من حدة البطالة والفقر في عالم الجنوب بل والشمال أيضا ويصيب اقتصادات كثير من الدول بالهزات والكوارث والأزمات.

5-أما عن السبب الخامس وهو المحزن الحقيقي وهو حال المسلمين من الجمود وذلك لخوفهم من محنة خلق القرآن وهم تشددوا ولا يتقبلون الطرف الآخر حتى مصارعة التيارات المتشددة ضد التيارات الغربية مثل علي مبارك وطه حسين والكاتب الهندي الأصل والبريطاني الجنسية سلمان رشدي وغيرهم.

وهذا السبب هو الدافع لدي المسلمين أن يعتقدوا أن الغرب متعصب لهم طول الخط وهذا كان في الماضي منذ غزو الإسلام الفكري والثقافي للدولة الرومانية الشرقية كما أسلفنا في الفصل الثاني من البحث فمنذ عام 726م وحتى ما بدأ حضارة الغرب تنمو ومن هنا تعلن رفضها لحضارة المسلمون على اعتقاد أنها حضارة علمانية ليست لها مرجعية دينية ولكن هذا انتهى مع حلول عصر الإصلاح الديني الذي بدأ على يد رجل الدين وليم أوف أوكام William of Okhem(1285-1349م) في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي من هنا تغيرت النظرة عن الإسلام فقد استفاد الغرب من الإسلام في حركات الإصلاح الديني لذلك تغيرت النظرية المتعصبة باسم الروح الصليبية إلى روح توسعية استفادت من حركة الفتوحات الإسلامية وقالت كما قال المسلمون أنهم يخدمون الدين المسيحي ولكن هذه ادعاءات من قبل الساسة فالحروب مشروع فيها الخديعة. وما قاله كولمبوس Coulombs في القرن الخامس عشر الميلادي غير حقيقي لأن ماجلان Magellan عندما اكتمل له الكشف الجغرافي للعالم الجديد دخل إلى شرق آسيا الوثني الغير مسلم حتى لو اعتقد البعض أن الفلبيين كانت دولة إسلامية لما تحولت إلى مسيحية على الرغم من الاضطهاد الذي رأته من المسيحيين فالموضوع له أبعاد أخرى يجب الدراسة منها فنحن أضاعنا وقت في مسألة الحرب ضد تعصب الغرب ولم نلتفت أنهم يسيطرون على العالم بأسره ويهمشون دور المسلمين. لذلك كانت أكاذيب لدي الغرب عندما ادعى أنه يحارب المسلمون للتعصب الديني بل للتفوق الحضاري والسياسي عليهم ومن خلفهم العسكري. وهذا ما اتضح لنا منذ فولتير Voltaire الذي كتب مسرحية محمد عليه الصلاة والسلام ولكن نرى الغرب بعد ذلك يدرس محمد عليه الصلاة والسلام من الوجهة العلمية أي بحيادية تامة وكان الشاعر الفرنسي لامارتين La Martin (1790-1869م) متحدثاً في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي عن محمد عليه الصلاة والسلام قائلاً عنه "فها هو ذا محمد يمجده 400 مليون من الناس في مختلف البقاع مع تباين أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم".

وهـذا مـا تؤكـده الحملـة الفرنسـية علـى مصـر التـي أفـادت العـرب والمسلمون وأيقظتهم لكي ينفتحوا هم الآخرين ، ويكون الغرب والشرق في منتهى الحيادية معاً واعتقد أن موقف رفاعة الطهطاوي (1801-1873م) بكتابه "تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز" في ثلاثينات القرن التاسع عشر الميلادي لكفيل في هذا كأول مسلم حيادي في المنطقة العربية مع الغرب وتقدمهم الرائع. وهذا ما دفع هنري كاستري Henry Castire أن يكتب في كتابه " الإسلام خواطر وسوانح " ما هو قوله "يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي محمد من مطالعته للتوراة والإنجيل إذ لو قرأ تلك الكتب لردها على احتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض مخالفاً لوجدانه منذ خلقته".

والذي نخالفهم الآن هم المستشرقين فعلاً وتحاملهم على الإسلام ولكنهم في عام 1864م توصلوا إلى حقيقة علمية لم نعرفها نحن وهي أن الشعر العربي شعر موضوع أي مؤلف في العصر الجاهلي وهذا صحيح حتى من رد عباس العقاد أن الذين وضعوا القدر من الشعر الجاهلي حرصوا على أن يقلدوا خصائص الجاهلين اللغوية والمعنوية واللفظية ، وهكذا يظل هذا الشعر المنحول يدل على ما يدل عليه الشعر الثابت ، من تصوير للحياة في بلاد العرب قبل الإسلام (عباس العقاد ، مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية ، دار الهلال ، القاهرة ، 1968م ، ص 48-49). والذي دعم دليلهم على الانتحال أن حركة التصنيف بدأت منذ ستينات القرن الثامن الميلادي ، وأول من أهتم بجمع الشعر العربي كاملاً هو حماد الرواية الذي توفى في عام 155هـ / 772م. أي بعد زوال الشعر الجاهلي بمائة وستون عاماً أي لا يجمع الشعر في وقته لأنه اعتمد على الذاكرة. أي أنه يؤكد أن الشعر موضوع فهم لمن يخطئوا في وصف العصر الجاهلي أي أنهم يبحثون ولا يكون الرد عليهم سوى بالبحث العلمي وليس بالجمود وعدم الاجتهاد.

ومن هنا يجب علينا أن لا نخلط الورق ما بين الاستعمار الذي بدأ في القرن الخامس عشر الميلادي لأنه لم يكن صليبي لأن الغرب في عز قوته لم يسيطر في بادئ الأمر إلا على أفريقيا فقد بدأ في المغرب. فلما انتظر فاسكو دي جاما Vasco de Gama أن يتجول في أفريقيا تاركاً موضوع السيطرة على القدس ومن بعده كذلك حتى حضور البريطانيين في القرن العشرين إلى فلسطين وهذا ما يؤكده أن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حربا صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها ، ولقد يكون من الحق أن هذا الاستيلاء لم ينجح بمجهود المسيحيين وانما نجح بمجهود اليهود الذين سخروهم ليحققوا حلم إسرائيل القديم فيجعلوا ارض المعاد وطنا قوميا لليهود ،والفتك بالأطفال والشيوخ والنساء ، والاتجار بأعضائهم المبتورة وحليهم ومتاعهم الغارق في دمائهم ،هذا الميل لم يجد طرفا منه ما يشبع أو يرضي البريطانيين.

فلما كانت حملة اللنبي على القدس عام 1918م امتداد لحملة لويس التاسع على مصر في عام 1250م ولما انتظر الغرب طول هذه السنين أنها الإمبريالية العالمية أي الرغبة في التوسعية فرأى الغرب أن العداء مع الإسلام ليس هو المطمع بل العالم بأسره لإشباع هذه الحضارة الناشئة.

ومن هنا كان الاتجاه الجديد هو عدم خلط الورق ما بين الاستعمار وما بين الصراع الديني الذي أضحى حيادياً لأن لغة الاستعمار عالمية وليست دينية. وهذا ما دفع الشيخ الإمام محمد عبده أن يقول كلمته الشهيرة رأيت إسلام بلا مسلمون (يصف الغرب) ، ورأيت مسلمون بلا إسلام (يصف الشرق) هذا هو الاتجاه المحايد الذي يدفع إلى التغيير الجذري في هذه المجتمعات الجامدة التي تأخذ الأمور من علتها.

والذي يؤكد هذا هو الصراع القومي العربي الذي كان من ضمن متزعميه عبد الرحمن الكواكبي الذي وصف الأتراك في كتابه "أم القرى" ثلاث خلقن للجور والفساد: القمل ، والترك ، والجراد ، فهو يساوي الأتراك بالقمل والجراد أي أن الصراع إسلامي داخلي ما بين العرب والأتراك ولا يستدعي لنا سوى الصمت فنحن نتبادل السباب واليوم نندم على سقوط الخلافة العثمانية وعندما كانت نود أن تكون عربية وليست لها سلطة سياسية.

ومن هنا لا يدفعنا بعد حضور مدرسة الشيخ محمد عبده وتلامذته في العالم الإسلامي إلا أن نقول يجب أن نكون محاديين ولا نتهم بل نكون مع الباحثين الذين يدافعون عن الدين بشكل علمي أو حتى الذين تهدموا ويجب علاج ذات البين بالكياسة وعدم تحميل الأمور كما هو حادث مع طه حسين وزكي مبارك.

ولا يسعنا في نهاية الأمر سوى أن نقول حديث أرنست باركر Ernest Parker المؤكد على اختفاء الروح الصليبية من قبل عصر الاستعمار قوله: " وكانت الحروب الصليبية صفحة من صفحات ذلك النزاع، بدأت في 1096 م وانتهت في 1291 م – إذا ما حددنا ختامها بفقدان الصليبيين آخر معقل مسيحي في أرض سوريا "عكا عند طردهم على يد الأشرف خليل بن قلاوون" – أما إذا نظرنا إلي الآثار المتخلفة عن بواعث الحروب الصليبية ، فقد يصح لنا القول أنها استمرت حتى ظهور الملاحة البرتغالية واكتشاف كولمبس العالم الجديد –ومن هنا شعر الغرب أن الشرق يعيش في ظلام حالك فأصبح لا قيمة له ، واتجه إلى العالم الجديد لاستنزاف ثرواته مما جعل الغرب يتقدم على الشرق في مجالات الحضارة المختلفة من علوم وفنون وآداب وفكر وثقافة وظللنا حتى الآن في الظلام نعيش مع خفافيش الظلام في ربقة الجمود والتخلف" .

الاسلام وما صارت إليه الشعوب الإسلامية

على أن لهؤلاء الذين يحملون الإسلام وزر انحطاط الشعوب الإسلامية ، من العذر أن أضيف إلي دين الله شيء كثير لا يرضاه الله ورسوله ، واعتبر من صلب الدين ورمي من ينكره بالزندقة ، وندع الدين جانبا ، ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام ، فقد أضافت اكثر كتب السيرة ، إلي حياة النبي ، مالا يصدقه العقل ، ولا حاجة إليه ، في ثبوت الرسالة . وما أضيف من ذلك ، قد اعتمد عليه المستشرقين ، واعتمد عليه الطاعنون ، على الإسلام ، ونبيه ، وعلى الأمم الإسلامية ، واتخذوا تكأتهم في مطاعنهم المثيرة ، لنفس كل منصف. اعتمدوا عليه ، وعلى ما ابتدعوه ، من عندهم ، وما زعموا ، أنهم يكتبونه على الطريقة العلمية الحديثة ، هذه الطريقة ، التي تعرض الحوادث ، والناس ، والأبطال ، فتصدر بعد ذلك ، حكمها عادلا ، إن هي رأت لإصدار حكمها محلا . فإذا أنت وقفت ، عندما كتب هؤلاء ، رأيته تملية شهوة الجدل ، والتجريح ، مصوغا في عبارة لا تخلو براعة ، تستهوي إخوانهم ، في العقيدة إلي الظن ، بأن البحث العلمي المجرد ، النزاع إلي الحقيقة ، وحدها ، يريد أن يستشفها من وراء كل الحجب ، هو الذي وجه هؤلاء المتعصبين من الكتاب ، والمؤرخين ، على أن السكينة التي ينزلها الله ، على نفوس الراضين ، من الناس ، كتابا ، وعلماء قد أدت بآخرين من أحرار الفكر ، ومن المسيحيين ، ليكونوا أدنى إلي العدل ، واحرص على النصفة.

الجمود والاجتهاد عند المسلمين

ولقد قام بعض علماء المسلمين في ظروف مختلفة فحاولوا إدحاض مزاعم أولئك المتعصبين من أبناء الغرب واسم الشيخ محمد عبده هو أنصع الأسماء في هذا الصدد . لكنهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التي زعم أولئك الكتاب والمؤرخون الأوربيون أنهم يسلكونها ، لتكون لحجتهم قوتها في وجه خصومهم ، ثم إن هؤلاء العلماء المسلمين ، والشيخ محمد عبده في مقدمتهم ، قد اتهموا بالإلحاد والكفر والزندقة . فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الإسلام ومنهم جمال الدين الأفغاني(1253 – 1314 هـ /1838 – 1897) ، عبد الله النديم(1258- 1313هـ / 1843 – 1896) ،محمد عبده (1264- 1322هـ/1849 – 1905) ،عبد الرحمن الكواكبي(1270- 1319هـ /1854 – 1902) عبد الوهاب النجار (1278 – 1359هـ/ 1862 – 1941 م) ،محمد رشيد رضا (1281- 1353هـ /1865 – 1935) ،عبد القادر المغربي (1283 – 1375هـ/1867 – 1956 م) ،شكيب ارسلان

(1285 – 1364هـ /1869 – 1946 م) ،الشيخ محمد الخضري (1288 – 1345هـ / 1872 -1927 م) ،احمد إبراهيم (1290- 1363هـ / 1874 – 1945 م) ،الشاعر الهندي محمد إقبال (1291-1356هـ/ 1875 – 1938 م) ،عبد العزيز جاويش (1292 –1347هـ /1876 – 1929 م) ، محمد الخضر حسين (1292- 1377هـ / 1876 – 1958 م) ،محمد فريد وجدي (1294 – 1373هـ / 1878 – 1954 م) ،محمد الطاهر بن عاشور (1295- 1393هـ/1879 – 1973 م) ،محمد مصطفي المراغي (1297 –1363هـ /1881 – 1945 م) ،عبد المجيد سليم (1298 – 1373هـ/ 1882 – 1954 م) ،عبد الحميد الزهراوي(1302 – 1334هـ /1885 – 1916) م ، الشيخ مصطفي عبد الرازق(1302- 1364هـ/1885 – 1946) م ،عبد الحميد بن باديس (1304 – 1358هـ /1887 – 1940 م) ،عبد الجليل عيسي (1305 – 1400هـ / 1888 – 1980 م) ،عبد الوهاب خلاف (1305- 1375هـ /1888 – 1956 م) ،عباس العقاد (1306 –1382هـ /1889 – 1963 م) ،محمد بشير الابراهيمي (1306- 1384هـ / 1889 – 1965 م) ،محمد عبد الله دراز (1307 – 1396هـ /1890 – 1977 م) ،الشيخ على الخفيف (1308 - 1397هـ /1891 – 1978 م) ،عبد الرحمن عزام باشا (1310 – 1395هـ /1893 – 1976 م) ،محمود شلتوت (1310 –1382هـ /1893 – 1963 م) ،عبد الوهاب عزام (1311 –1378هـ / 1894 – 1959 م) ، الشيخ امين الخولي (1312 – 1385هـ / 1895 – 1966 م) ،عبد الرازق السنهوري (1312 – 1390هـ /1895 – 1971 م) ،الشيخ محمد أبو زهرة (1315- 1393هـ /1898 – 1974 م) ،محمد البهي (1322 – 1402هـ / 1905 – 1982 م) مالك بن نبي (1322 – 1392هـ /1905 – 1973 م) ،حسن البنا (1323 – 1368هـ /1906 – 1949 م) ،محمد المدني (1324 – 1387هـ /1907 – 1968 م) ،احمد حسن الباقوري (1324 – 1405هـ/1907 – 1985) ،علال الفاسي (1325 – 1393هـ / 1908 – 1974 م) ،محمد الفاضل بن عاشور (1326 – 1389هـ /1909 – 1970 م) ، الشيخ محمد الغزالي (1338- 1416هـ/1920 – 1996 م)

أثر الجمود في الشباب

ولقد كان اتهامهم هذا عميق الأثر في نفوس شباب المسلمين المتعلمين ، شعر هؤلاء الشباب بأن الزندقة تقابل حكم العقل ونظام المنطق في نظر جماعة من علماء المسلمين ، وأن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد ، كما أن الإيمان قرين الجمود ، ولذلك جزعت نفوسهم وانصرفوا يقرءون كتب الغرب يتلمسون فيها الحقيقة ، إقناعا منهم بأنهم لن يجدوها في كتب المسلمين ، وهم لم يفكروا في كتب المسيحية والتاريخ المسيحي بطبيعة الحال ،

إنما فزعوا إلي كتب الفلسفة يتلمسون في أسلوبها العلمي لري ما في نفوسهم من ظمأ محرق للحق ، وفي منطقتها ضياء للجذوة المقدسة الكمينة في النفس الإنسانية ، ووسيلة إلي الاتصال بالكون وحقيقته العليا ، وهم واجدون في كتب الغرب ، سواء منها كتب الفلسفة وكتب الأدب الفلسفي وكتب الأدب نفسه ، الشيء الكثير مما يغري الإنسان بالأخذ به ، لروعة أسلوبها ودقة منطقها وما يظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجه إلي المعرفة ابتغاء الحق ، لذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة الإسلامية وصاحبها ، حرصا منهم على ألا تثور بينهم وبين الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحي بين الإنسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع به الإنسان إلي أرقي مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية.

انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة الإسلامية وصاحبها وزادهم انصرافا ما رأوا من العلم الواقعي والفلسفة الواقعية (الوضعية) يقرر أنه من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل في حيز التفكير العلمي ، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدي " الميتافيزيقي " ليس هو أيضا من الطريقة العلمية في شيء.

ومن هنا نرى أن يقوم المسلمون بالاستفادة من الحضارة الغربية بعد أن بدأ فيها عصر التنوير على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في ثلاثينات القرن الثامن عشر الميلادي. من هنا يجب أن نتخذ الأعلام العظيمة في القرن التاسع عشر الميلادي الذي استفدت من الحضارة الغربية أمثال ناصيف اليازجي ورفاعة الطهطاوي...الخ أن ننهل مثلها دون البعد عن الجمود والتخلف.

علم الغرب وأدبه

ثم أنهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحا صريحا في البلاد الغربية ، ورأوا البلاد التي تقرر دساتيرها أن ملكها هو حامي البروتستانتية أو الكثلكة ، أو تقرر أن دين الدولة الرسمي المسيحية ، لا تقض من ذلك إلي أكثر من مظاهر الأعياد والمواسم وما يتصل بها فازدادوا انخراطا في هذا التفكير العلمي وحرصا على الأخذ منه ومما يتصل به من فلسفة وأدب وفن بأوفر نصيب ، فلما آن لهم أن ينتقلوا من الدرس إلي الحياة العملية ، شغلتهم هذه الحياة عن التفكير في المسائل التي انصرفوا من قبل عن التفكير فيها ، وظل اتجاههم الفكري في تياره الأول ، ينظر إلي الجمود العقلي مشغفا مزدريا ، وينهل من ورد التفكير الغربي والفلسفة الغربية ، فيجد فيها لذة ويزداد بهما إعجابا وعلى ما نهل صدر شبابه منهما حرصا

وليس ريب في أن الشرق اليوم في حاجة أشد الحاجة إلي النهل من ورد الغرب في التفكير وفي الأدب والفن ، فقد قطع ما بين حاضر الشرق الإسلامي وماضيه قرون من الجمود والتعصب غشت على تفكيره السليم القديم بطبقة كثيفة من الجهل وسوء الظن بكل جديد ، فلا مفر لمن يريد أن يصهر هذه الطبقة من الاستعانة بأحدث صور التفكير في العالم ، ليستطيع من هذا السبيل أن يصل بين الحاضر الحي وثروة الماضي وتراثه العظيم.

جهود التجريد الإسلامي

ومن الحق علينا للغرب أن نقول : أن ما يقوم به علماؤه اليوم من بحوث نفيسة في تاريخ الدراسات الإسلامية والدراسات الشرقية ، قد مهد لأبناء الإسلام وأبناء الشرق أن يتزيدوا من هذه البحوث في تلك الدراسات وأن يكونوا أكبر رجاء في الاهتداء إلي الحق بأنهم أقرب بطبعهم إلي حسن إدراك الروح الإسلامي والروح الشرقي ، ومادم التوجيه الجديد قد بدأ في الغرب ، فواجب عليهم أن يتابعوه وأن يصححوا أغلاطه وأن يبثوا فيه الروح الصحيح الذي يعيده إلي الحياة ويصله بالحاضر ، لا على أنه مجرد دراسة وبحث ، بل على أنه ميراث روحي وعقلي ، يجب أن يتمثله الوارثون ، وأن يضيفوا إليه ، وأن يزيدوا ضيائه بما يزيد الحقيقة الكامنة فيه ضياء ونورا

وقد توفر منهم كثيرون على هذه البحوث يقومون اليوم بها على الطريقة العلمية الصحيحة والمستشرقون أنفسهم يقدرون لهم ذلك ويشيدون بفضلهم فيه

6- أما عن السبب السادس أن الغرب المسيحي لا يتعامل مع آليات المسيحية السمحة وخاصة أنه غرب متوحش أخذ في حرب الإمبراطورية الرومانية الغربية بعد أن انفصلت عن الشرقية في عام 395م وقد غزا الأرك ملك القوط الشرقيين اليونان حتى سيطر عليها في عام 401م ومن وقتها قام الغرب الأوروبي المتوحش بحرب الإمبراطورية الرومانية التي لم تستطع معهم فعل أي شيء الإقرار بالأوضاع عندما يحتلونها حتى ما استطاع البابا جريجوري الخامس في عام 597م أن يرسل الحملات التبشرية لهذا الغرب المتوحش الذي دخل آخر طوائفه الفيكنج في المسيحية في ثلاثينات القرن العاشر الميلادي لذلك.

المسيحية لا تلائم طبيعة الغرب

أما السبب في رأينا يرجع إلي أن المسيحية وما تدعو إليه من الزهد في الحياة واعتزال العالم ومن العفو والمغفرة ومن المعاني النفسانية السامية ، ليست مما يلائم طبيعة الغرب الذي عاش ألوف السنيين على دين تعدد الآلهة ، والذين يدعوه مركزه الجغرافي إلي حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير والضنك وسوء الحال فإذا قضت الظروف التاريخية عليه ، بأنه يدين بالمسيحية ، فلا مفر من أن يسبغ غلبها ثوب الكفاح ، وأن يخرجها بذلك عن طبيعتها السمحة الجميلة ، وأن يفسد فيها هذا التناسق الروحي ، الذي يجعل منها حلقة في سلسة الوحدة التي أتمها الإسلام.

هذه الوحدة التي تؤاخي بين الروح والجسد ، تزاوج بين العاطفة والعقل ، وتسلك الفرد والإنسانية جميعا ، في نظام الكون على أنهما بعض منه متسق ، وإياه في لا نهاية الزمان والمكان ، هذا في رأينا هو مرجع السبب في تعصب الغرب في موقفه من الإسلام موقفا تجافت الحبشة المسيحية عنه حين احتمي المسلمون بها أول ما دعا النبي إلي دين الله.

وإلي هذا السبب في رأيي ، يرجع إغراق الغربيين وغلوهم في التدين وفي الإلحاد جميعا واغرق تعصب وكفاح لا يعرفه الهوادة ولا يعرف التسامح ، وإذا كان التاريخ قد عرف منهم قديسين احتذوا في حياتهم مثال السيد المسيح والحواريين ، فإن التاريخ قد عرف كذلك أن حياة أمم الغرب كانت دائما حياة نضال وكفاح وحروب دامية باسم السياسة أو باسم الدين ، وعرف أن بابوات الكنيسة وأرباب السلطة الزمنية كانوا في نزاع دائم ، يغالب بعضهم بعضا ، فيتغلب هذا يوما ، ويتغلب ذاك يوما أخر . وما كان الفوز في القرن التاسع عشر ، قد تم للسلطة الزمنية ، حاولت هذه السلطة ، أن تقضي على الحياة الروحية ، باسم العلم وأن تزعم أن العلم سيحل من الحياة الإنسانية ، محل الإيمان من الحياة الروحية ، وها هي ذي

عرفت اليوم بعد جهاد طويل سواء رأيها ، وأن قصدت إليه مستحيل تحقيقه ، والصيحة تعلو اليوم من جوانب الغرب المختلفة ، يريد أهله حياة روحية أضاعوها ، فهم يتلمسونها في الثيوزوفية[57] وغير الثيوزوفية.

ولو أن المسيحية كانت تلائم غرائز الكفاح التي تنشأ بحكم الطبيعة ، كجزء من حياة أهل الغرب ، لرأيتهم وقد شعروا بعجز الفكرة المادية عن أن تلهمهم المدد الروحي يعودون إلي الدين المسيحي الجميل دين عيسى بن مريم ، وأن لم يهدهم الله إلي الإسلام ولما كانوا في حاجة إلي هذه الهجرة إلي الهند وإلي غيرها يستمدون منها حياة روحية ، يشعر الإنسان بالحاجة إليها ، حاجته إلي التنفس ، لأنها بعض طبعه بل لأنها بعض نفسه وكيانه.

الطعن في محمد عجز عن الطعن في رسالته

ولئن دل هذا التعنت على شيء لعلى شدة حرص أصحابه على التشكيك في الإسلام ، وهم لم يستطيعوا الطعن على هذا الدين لذاته وقد رأوه دينا بلغ غاية السمو مع بساطة ويسر ، هما مصدر قوته ، لذلك لجئوا إلي حجة العاجز حين يدع الأثر العظيم لا يعرض له بمطعن لأن المطاعن لا ترقي إليه ، فهو يتناول من صدر هذا الأثر عنه ، أو كان وسيلته إلي الناس ، فيجعله هدف مطاعنه ، وهذا عجز لا يلجأ إليه عالم ، وهو يعد مناقض لقانون الطبيعة الإنسانية ، ففي طبيعة الناس أن يعنوا بالآثار لذاتها ، وأن يستمتعوا بثمراتها ، دون بحث لا طائل تحته ، في مصدرها ، ووسيلة حدوثها ونموها ، وهم لذلك يعنون أنفسهم ، بالبحث في أصل الشجرة ، التي أنبتت الثمرة ، التي تعجبهم ، ولا في السماد الذي أدي ازدهارها ، ماداموا لا يفكرون في غرس شجرة مثلها ، أو شجرة أشهى منها ثمرا ، وهم حين يبحثون في فلسفة " أفلاطون " Platon ، أو مسرحيات " شكسبير " Shakespeare ، أو فن " روفائيل Raphel، " لا يلتمسون المطاعن ، في حياة هؤلاء العظماء ، عنوان مجد الإنسانية وفخارها ، حين لا يجدون ، على هذه الآثار ، مطعنا ، فإذا تلمسوا المطاعن ، التي لا سند لها من الحق ، لم يبلغوا ،من ذلك غايتهم ، وأن كشفوا عن سوء رأي ، وحقد يسقط حجتهم ، يحول دون الاستماع لهم ، ولن يغير من ذلك أن يفرغ هذا الحقد في قالب العلم ، فالحقد لا يعرف الحقيقة ، وكبرت الحقيقة ، أن يكون الحقد لها مصدرا ، وهذا شأن مطاعن ، أو لكل المستشرقين ، على النبي العربي خاتم المرسلين ، ولذلك هوت مطاعنهم إلي الحضيض.

---

[1] الثيوزفية مذهب استنبطته مدام بلافاتسكي Planvatski الأمريكية من أديان الهند ، ومن البوذية والبرهمية منها بنوع خاص ، ودعته دين الحكمة ، وقد تأسست لهذا المذهب جمعية في أمريكا ، كانت مدام بلافاتسكي رئيستها ، وتأسست فروع لهذه الجمعية في بلاد أوروبا المختلفة ، على أن مدام بلافاتسكي ، ما كادت تموت ، حتى انقسمت الجمعية الثيوزفية إلى ثلاث شعب ، ومذهب هذه الجمعية ، يقوم على وحدة الحياة ، ويدعو إلى نوع من الرياضة الصوفية ، لبلوغ مرتبة (النرفاتا) البوذية وهذه المرتبة يبلغها صاحبها ، حين يصل من رياضته إلى الفصل التام بين الروح والتأثر ، بماديات الحياة ، وحين تسمو الروح بذلك ، إلى مكان من القدسية ، والطهر ، تتصل فيه بالأرواح العليا ، ومذهب الثيوزوفية يدعو كذلك إلى إخاء الإنسانية إخاءاً عاما ً تزول معه فوارق الجنس ، واللغة ، وكل ما يعتبره الناس ، عوائق دون هذا الإخاء.

أن هؤلاء المستشرقين حين يطعنون في رسالة أستاذ الأمة الإسلامية والإنسانية ، فهم جهل بلا شك ، وتسول لهم أنفسهم ، بان تعطن في عظمة محمد عليه السلام ، أو على نبوته ورسالته ؟ إن القوانين التي تجري على الناس ، لا سلطان لها على العظماء ، فأولي إلا يكون لها سلطان على المرسلين والأنبياء ، ألم ير موسى عليه السلام ، خلافا بين رجلين هذا من شيعته ، هذا من عدوه ، فوكز الذي من عدوه ، فقضي عليه وهذا قتل محرم ، في غير حرب ، ولا شبه حرب ، وهذا مخالف للقانون ، مع ذلك لم يخضع موسى لقانون ، ولم يطعن ذلك في نبوته ، ولا في رسالته ، ولم يطعن في عظمته ، وشأن عيسي في مخالفة القانون ، أكبر من شأن موسى ، ومن شأن محمد ، ومن شأن الأنبياء المرسلين جميعا ، فليس يقف أمره عند بسطه في القوة أو رغبة ، بل خروج بمولده ، وبحياته على قوانين الطبيعة ، وسننها جميعا ، تمثل لأمه مريم روح الرحمن ، بشرا سويا ، ليهب لها غلاما ذكيا فعجبت وقالت ، أني يكون في غلام ولم يمسني بشر ولم أكن بغيا ! قال الرسول : إن الله يريد أن يجعله آية للناس فلما جاءها المخاض قالت : يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا فناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا وأنت به قومها تحمله فقالوا لقد جئت شيئا فريا[58] فحدثهم عيسي في مهده قال أنـي عبد الله إلي آخر ما

---

[58] يحكى أن بعض المستشرقين سألوا الشيخ محمد عبده في باريس وهو مفتي الديار المصرية سابقا والعالم الجليل 1265 – 1323 هـ / 1849 – 1905 م عن حديث الإفك الذي يقوله المنافقون على السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقالوا له : بأي وجه قابلت عائشة قومها بعد حديث الإفك ؟ فقال لهم : بالوجه الذي قابلت به مريم قومها حين جاءتهم تحمله " عيسي عليه السلام وهو طفل رضيع " أي بوجه الواثق من البراءة ، وأن الله سبحانه وتعالي لا يمكن أن يسلمها ، أو يخذلها ، ولذلك فالسيدة عائشة رضي الله عنها لما ظهرت براءتها وأنزل الله سبحانه وتعالى قرآنا ، قالوا لها : قومي إلي النبي صلى الله عليه وسلم واشكريه ، فقالت : لا وإنما أحمد الله الذي برأني.

قال(59) ومهما يكن من إنكار اليهود لهذا كله ، ومن نسبتهم عيسي إلي يوسف النجار(60) ، نسبة لا يزال بعض العلماء ومن أمثال رينان Renan يأخذونها اليوم بها ، فقد كانت عظة عيسي ونبوته ، ورسالته ، دليل معجزة الله ، فيه وخرقة للنواميس الكون ، وسنن الطبيعة ، وقوانين الخلق ، من أجله ، فمن عجب أن يدعو المسيحيون المبشرون ، إلي الإيمان بهذا الخروج ، على سنة الكون في أمر عيسي ، وأن يأخذوا محمدا بما هو دونه ، وما لا يزيد ، على أنه سمو ، عن الخضوع لقانون المجتمع ، يسمح به لكل عظيم ، ويسمح به للملوك ورؤساء الدول الذين ، تقدسهم الدساتير وتجعل ذواتهم مصونة لا تمس عن ذكر ما كتبه " الأب منسي "و"فون هام Foneham" ومن يرون هذا الرأي من المستشرقين ، هؤلاء جميعا يقطعون بدقة القرآن الذي نتلوه اليوم ، وبأنه يحتوي كل ماتلاه محمد على أنه الوحي الذي تلقاه من ربه صادقا كاملا.

الاسلام والمسيحية وقصد السبيل

ويزعم الكاتب الأمريكي إيرفنج Ireving أن المسيحية تدعو إلى الطهر والإيثار ، على نقيض ما يتقوله هو على الإسلام ، ولست أري ، أن أوازن ، بين الإسلام ، والمسيحية ، في هذه المسالة ، لانهما متفقان ، غير مختلفين ، لكني ألاحظ ،واقف عند الملاحظة ، أن بين سيرة عيسي عليه السلام ، وما ينسب إلى المسيحية ، من دعوة إلى الرواقية ، والإمعان في الزهد اختلافا ، بينا فلم يكن المسيح رواقيا بل كان أولى معجزاته أن أحال الماء خمر في عرس (تاتا الجليل) ، حيث كان مدعوا وحيث أراد ألا يحرم الناس الخمر ، بعد نفادها ، وهو لم يكن يأبى دعوة الغربيين ، إلى مآدبهم الفخمة ، ولا كان يأبى على الناس ، أن يستمتعوا بأنعم الله ، وسيرة محمد عليه الصلاة والسلام في ذلك اشد إمعانا ، في قصد السبيل ، صحيح أن عيسي ، كان بدعوة الأغنياء إلى البر بالفقراء ومحبتهم، القران في هذا وفي الدعوة إليه ابلغ ما عرف البشر وحسبنا ردا على ايرفنج وامثاله أن القران دعا إلى قصد السبيل في كل شيء.

---

59 نطق سيدنا عيسي عليه السلام وهو طفل رضيع قائلا للقوم " إني عبد الله آتني الكتاب وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً اين ما كنت وأوصني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً " سورة مريم ، الآية 30-32 ، فكأنه يقول لهم : لا تتكلموا أنتم ولكن أنا الذي سأتكلم وأول شيء قاله " إني عبد الله" ، واستهلاله كلامه بعبودته لله تعالي ، دليل على أنه قد يقال : أنه ليس عبدا وأنه إله شريك لله سبحانه ، فأول كلمة نطق بها أنه عبد الله تعالي ، ولذلك تجد أهل الكتاب يقولون عنه : أنه تكلم في المهد فإذا سألتهم ماذا قال حين تكلم ؟ تجدهم يصتمون ولا ينطقون بما قاله أبدا ، لأن كلامه ينفي معتقدهم إن جنودا لله سبحانه وتعالي هم الذين حفظوا الكلمة منذ قالها عيسي عليه السلام وحتى تقوم الساعة أن الأناجيل ل تذكر ذلك ، لأنها لو ذكرت ذلك لسألنهم ماذا قال ؟ سيكون الرد دون مواربة لقد قال " أني عبد الله ، وهذا ينفي أنه إله ".

60 حفظ الله سبحانه وتعالي السيدة مريم العذراء وابنها الوليد عيسي عليه السلام من كل سوء حتى أن خطيبها يوسف البخار الذي كان يجب أن يغار ويغضب لما حدث بأنها وولدت أبنها من غير أب ؟؟ لقد أنزل الله سبحانه وتعالي السكينة والقبول على قلبه ، وظل في خدمتها ورعايتها لأن الله يحول بين المرء وقلبه ، فقلبه كان يجب أن يتغير من ناحيتها ، لأن هذه طبائع البشر ، ولكن الله أنزل هذا الأمر عليه بردا وسلاما ، فلم يفعل شيئا إلا أنه سألها سؤالا واحد فقال لها : يا مريم ، أريد أن تقولي لي : هل رأيت في حياتك شجرة تنبت بدون بذرة ؟ فضحكت وقالت له : الشجرة التي أنبت أول بذرة.

الإسلام لم يأخذ بالسيف

ومن أخذ بالسيف فالسيف يؤخذ ، لئن صدقت كلمة الإنجيل هذه على قوم لهي اشد ما تكون صدقا اليوم على أوربا المسيحية ، أما الإسلام فلم يأخذ بالسيف ، ولن يؤخذ بالسيف ، وأوربا المسيحية قد أخذت بالسيف في هذا العصر الأخير ، إمعانا في الإباحية ، والترف ، مما ينسبه ايرفنج المزعوم باطلا للإسلام ، والمسلمين أوربا المسيحية تقوم اليوم ، بالدور الذي قام به المغول ، والتتار ، حين اتخذوا ظاهرا برداء الإسلام ثم فتحوا الممالك دون أن يعبثوا بتعاليم الإسلام فيها فحقت عليهم وعلى المسلمين الكلمة وكان هذا التدهور والانحلال الذي اصلب الشعور الإسلامية وأوربا المسيحية اليوم أقل فضلا من أولئك التتار والمغول ، فالممالك التي فتحها هؤلاء سرعان ما دخلت في الإسلام حين رأت عظمته وبساطته ، أما أوربا فلا تغزو لتنشر عقيدة ولا لتدعو إلى حضارة هي إنما تريد استعمارا وتريد أن تجعل من العقيدة المسيحية عطية هذا الاستعمار ، لذلك لم تنجح في الأمم الإسلامية خاصة لان عظمة الإسلام وبساطته واخده بحكم العقل والعلم لا تجعل لأية دعاية دينية أملا في النجاح بين أبنائه، هذا حق وهو أن ينطبق على المتأخرين من المسلمين الذين غزوا ليفتحوا الممالك وليستعمروا إلا ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم لهو اليوم اشد انطباقا على هذا الغرب الذي يغزو ويفتح ليذل الشعوب ويستعمرها ، فأما المسلمون الأولون من عهد النبي وخلفائه ، ومن جاءوا بعدهم ، فلم يغزو للفتح والاستعمار ، وانما غزوا دفاعا عن عقيدتهم ، حين هددتها قريش ، وحين هددها العرب ،

ثم حين هددها الروم وهددها الفرس ، وهم في هذا الغزو لم يفرضوا على أحد دينهم ، فلا إكراه في الدين ، وهم في هذا الغزو ، لم يقصدوا إلى الاستعمار ، فقد نزل النبي ملوك العرب وأمراءها على إرادتهم وممالكهم إنما أرادوا حرية الدعوة للعقيدة ولما كانت العقيدة الإسلامية قوية بالحق الذي تنادي به ، قوية بأنها لا تجعل فضلا لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وبأنه لا تجعل لغير الله على الإنسان سلطنا ، أسرعت إلى انتشار في ربوع الأرض كلها كما تسرع كل حقيقة صادقة إلى الانتشار ، فلما جاء المتاخرون ممن دخلوا في الإسلام لم يأخذوا المن يؤخذ بالسيف هو لم يأخذ بالسيف شيئا قط ، بل استولي على العقول، والقلوب ، والضمائر ، بقوة سلطانه لذلك تعاقبت على أممه دول حكمتها وقهرتها ، وتحكمت فيها ، فلم يغير ذلك من إسلامها ولا غير من إيمانها بالله شيئا ، فأما الذين يأخذون المسلمين اليوم بالسيف فمصيرهم كي تصدق عليهم كلمة الإنجيل أن يؤخذوا بالسيف جزاء وفاقا.

بلغت هذه الحياة الإنسانية من السمو ومن القوة ما لم تبلغ حياة غيرها ، وبلغت هذا السمو في نواحي الحياة جميعاً وما بالك بحياة إنسانية اتصلت بحياة الكون من أزله إلى أبده واتصلت بخالق الكون بفضل منه ومغفرة ، ولولا هذا الاتصال ولولا صدق محمد في تبليغ رسالة ربه لرأينا الحياة على كر الدهور تنفي مما قال شيئا ، لكن ألفا وأربعمائة وواحد وثلاثون سنة انقضت ، وما يزال بلاغ محمد عن ربه آية الحق والهدي ، وبحسبنا على ذلك مثلا واحدا نضربه ذلك ما أوحى الله إلى محمد انه خاتم الأنبياء ، والمرسلين ، انقضت اكثر من أربعة عشر قرنا لم يقل أحد خلالها انه نبي أو انه رسول رب العالمين ، فصدقه الناس ، قام في العالم أثناء هذه القرون رجال تسخوا ذروة العظمة في غير ناحية من نواحي الحياة ، فلم توهب لأحدهم هبة النبوة ، والرسالة ، ومن قبل محمد كانت النبوات ، تتواتر ، والرسل ، يتتابعون ، فينذر كل قومه ، انهم ضلوا ، ويردهم إلى الدين الحق ، ولا يقو أحدهم انه أرسل للناس كافة أو انه خاتم الأنبياء ، والمرسلين أما محمد ، فيقولها فتصدقه القرون كلامه ، ما كان حديثا يفتري ولكن تصديق الذي بين يديه وهدى ورحمه العالمين.

من اخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ بقيت العبارة الأخيرة من كلام هذا الذي يسمي كاتب : هذه العبارة التي يعيرنا الغرب بمثلها على حين هي عار الغرب ووصمته وجرثومة القضاء على كبريائه وعلى حضارته يقول هذا الذي يسمي ايرفنج ، أن بقاء الهلال حتى اليوم في أوربا ، حيث كان يوما ما بالغا غاية القوة ، إنما يرجع إلى اختيار الدول المسيحية الكبرى ، أو يرجع بالأحرى التي تنافسها ، ولعل الهلال باق ليكون دليلا جديدا على أن ، من اخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ ، ومن اخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ ، هذه آية الإنجيل يوجهها هذا الكاتب باسم المسيحية الي الإسلام ياعجبا! لعل هذا المزعوم من العذر انه قالها منذ قرن مضي حيث لم يكن الاستعمار الغربي في تعبيرنا المسيحي في تعبيره قد بلغ من الشر والجشع ومن الأخذ بالسيف ما بلغ اليوم.

لغة القران في حياتنا اليومية

استخدم الشعب المصري لغة القرآن في شتي شئونهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. فكانت معيناً لهم يقتبسون منه ما يوفي بحاجاتهم ويحقق أغراضهم الدينية والدنيوية. لقد اقتبسوا من لغة القران كثيرا من أسمائهم ذكورا وإناثا ووفق التوجيه النبوي ، خير الأسماء ما عبد وما حمد ، وهكذا أكدوا العبودية لله تعالي بان وضعوا كلمة عبد قبل اغلب أسماء الله الحسنى ، فكان على راس قائمتها عبد الله ، وعبد الرحمن ، وعبد الملك ، وعبد الرحيم ، وعبد السلام وذلك على سبيل المثال لا الحصر ، واقتبسوا منه أسماء المصطفي عليه الصلاة والسلام وعلى رأس قائمتها محمد ، وأحمد ، وطه ، ويس ، وأضافوا إليها محمدي ، ومحمود ، وحمدي ،وحمادة ، كما اقتبسوا من لغة القران أسماء الإناث مثل هدى ، ورحمة ، زاكية ، ومؤمنة ، سكينة ، نعمة وصابرة ، وإحسان ، ونور ، فوز ، ولينه ، وأسماء أخرى كثيرة اقتبسوها لمعانيها الطبية التي يرجون منها الخير والبركة لبناتهم

واستخدام كثير من المصريين القران الكريم يتلي في بيوتهم ومحال تجارتهم بما يعرف " الراتب "، : لأنهم رتبوا لذلك كثيرا من حفظة القران الكريم ، خاصة الأكفاء المأمونين منهم ، فيستمعون الي كلام الله تعالي ويلتقطون منها ما يستخدمونه في شتي شئونهم ، مع التركيز على المواعظ الهادية التي تنير حياتهم وتباركها لهم. ومنذ أوائل الستينات وإذاعة القران الكريم تقوم بدور الراتب وتنشر لغة القران بين الشعب ، خاصة المتدينين منهم "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه " (الزمر : 18)

ويتناغم مع تدين الشعب المصري ، تبرك الكثيرين منهم بآيات من القرآن الكريم في صورة معقات توفر على كتابتها خطاطون مبدعون ، فكان بعضها تحفا تشيع جمالا وحكمة ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: " رب اشرح صدري ويسر لي أمري " (طه : 25 و26) ، " هذا من فضل ربي " (النمل : 40) ، " وما بكم من نعمة فمن الله (النحل 53) ، " وكان فضل الله عليك عظيما (النساء 113) ، " وقل رب زدني علماً) (طه 114) " أن ينصركم الله فلا غالب لكم " (آل عمران 160) ، " نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم " (الحجر 49) ، " ما شاء الله لا قوة إلا بالله " (الكهف 39) ، " إلا بذكر الله تطمئن القلوب " ، (الرعد 28) ، " بسم الله الرحمن الرحيم " (الفاتحة 1).

ومـن اسـتخدم المصـريين لغـة القـرآن الكـريم ، ومـا يقتبسـونه فـي معـاملاتهم الاجتماعية ، فهم يحصنون أنفسهم ضد الحسد بقوله تعالي : " ما شاء الله لا قوة إلا بالله " ، التي صاغ الصائغون من الكلمات الثلاث الأولى معلقات من الذهب أو الفضة ليزين بها الجيد ويحدث بها الحفظ ، وأصبحت تعرف في هذا المجال من الثقافة المصرية ب " الماشاالله " – ورصيفتها في هذا المجال معلقة صغيرة جدا من الذهب أو الفضة بشكل كف اليد بأصابعها الخمس ، رمزا للآيات الخمس التي تتكون منها سورة الفلق ، التي تفي حاملها المعتقد في فاعليتها " من شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد " وهكذا طوع التفنين المادي لخدمة الاعتقاد المعنوي.

ومـن الاسـتعمالات القرآنيـة أيضـا اقتبـاس لغـة القـرآن لوضـع أسـماء لـبعض المؤسسات مثل : مؤسسة " القرض الحسن " (البقرة 245) ، وجمعية " عباد الرحمن " (الفرقان 63) ، ومدرسة " العروة الوثقى " (لقمان 22)، وجامع " الفتح " (النصر 1) ، ومؤسسة " الهدي " (البقرة 120) ، ودار " الشفاء (يونس 57) ، وشركة " سلسبيل " (الإنسان 18) ، و"وجمعية الأخوة المسلمين " من " نزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين " (الحجر47) وجماعة " حزب الله " (المجادلة 22) ولما كان الشيء بالشيء يذكر فقد كان بالتليفزيون المصري لعدة سنوات برنامج ديني ناجح اقتبس اسمه من القران الكريم وهو " نور على نور " (النور 35) ، أما الكلمات والعبارات المقتبسة من لغة القران الكريم والمستعملة في المجال الاقتصادي فكثيرة وواضحة المعاني ، مثل رءوس أموالكم " (البقرة 279) " وينفقون أموالهم " (البقرة 262) " ولهم أجرهم " (البقرة 262) و" وكسبتم " (البقرة 267) "والبيع والربا" (البقرة 275) و "دين " (البقرة 282) و " رهان " (البقرة 283) و " يحاسبكم " (البقرة 284) " ويشترون " و"ثمنا " (آل عمران 77).

ويـرتبط الحسـاب بالمجـال الاقتصـادي ، فيسـتعمل المصـريون مـن لغـة القـرآن الكسور ، مثل : ثمن ، وسدس ، وربع ، وثلث ، وثلثين ، والأرقام مثل : اثنين ، وثلاثة ، واربعة ، وخمسة ، وستة ، وسبعة ، وثمانية ، وتسعة والأعداد مثل : كأحد عشر ، واثني عشر ، وتسعة عشر ، وعشرين ، وسبعين ومائة ، ومائتين ، وألف ،ألفين ، وخمسين ألفا ، ومائة ألف. وبالحساب تتصل القسمة التي اقتبست أيضا من لغة القرآن الكريم " تلك إذن قسمة ضيزي " (النجم 32) " ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا " (الزخرف 32).

وفـي المجـال السياسـي : اقتـبس المصـريون مـن لغـة القـرآن الكـريم وكلمات ملك (الكهف 75) وزير (طه 29) وحزب (الروم 32) وشوري (الشورى 38) حكم وعدل من قوله تعالي : " إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا العدل " النساء 58 وظلم (غافر 31).

ومما يذكر بهذا الصدد أن حزب الوفد قد اقتبس اسمه من لغة القران الكريم من قولـه الله تعـالي : " يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا (مريم 58) ومن الكلمات التي كانت شائعة في المجال السياسي في ثلاثينات هذا القرن الماضي كلمة " مذبدب " المقتبسة من قوله تعالي : " مذبذبين بين ذلك لا إلي هؤلاء ولا إلي هؤلاء (النساء 144) ، وذلك في المنافسة الشديدة بين حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين.

مما سبق من بحث استعمالات الشعب المصري بفئاته ، المختلفة لغة القران الكريم شتي من الحياة اليومية ، يمكن استخلاص النقاط البارزة الآتية:

أولا : اللغة العربية لغة القران قوية ذات قدرة فائقة مكنتها من إزالة ما قبلها من اللغة في مجتمع غريب عنها ، استطاعت الاستقرار فيه.

ثانيا : استقرار اللغة العربية في المجتمع المصري ناجم عن ثرائها الذي جعلها تنشر في ربوعه وتصبح وعاء ثقافته الواسعة المتشعبة.

ثالثا : اللغة العربية لغة جميلة موسيقية النطق بها وعذوبة لسانها لخضوعها لأحكام تجعل الآذان تلتذ بسماعها حتى وأن كان نطق عامة الشعب بها قد تخفف من هذه الأحكام في معاملاته التي تحتاج سرعة الانطلاق.

رابعا : اللغة العربية مستوعبة لشتي معاني الأفكار والتصورات المعنوية غير المحسوسة ، خاصة الانفعالي منها - وكذلك لشتي ماديات الحياة اليومية.

خامسا : اللغة العربية سهلة ميسرة بليغة ، لسانها مبين شجع الشعب على استعمالها في مجالات متنوعة من الحياة اليومية.

سادسا : اللغة العربية وحدت الشعب المصري بجميع فئاته ودرجاته فجرت على السنتهم لهجتها العامية المنبثقة من لغة القرآن ، واستعملوها في مجالات الحياة اليومية.

سابعا : لغة القرآن يفصح بها اللسان المصري العامي عما يجول في الذهن من معان وما يتراءى فيه من صور فأصبحت فصحي لعامية لغة الشعب التي لا يختلفون في فهمها والتواصل فيما بينهم بها.

فائدة البحث انسانية عامة

وأذهب إلي أبعد مما تقدم فأقول : أن هذا البحث جدير بأن يهدي الإنسانية طريقها إلي الحضارة الجديدة التي نتلمسها ، وإذا كانت نصرانية الغرب " تستكبر " أن تجد النور الجديد في الإسلام ورسوله وتنسم هذا النور في ثيوزوفية الهند وفي مختلف مذاهب الشرق الأقصى ، فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى جميعا خليقون أن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والأنصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول إلي الحق ، فالتفكير الإسلامي على أنه تفكير علمي الأساس على الطريقة الحديثة في صلة الإنسان بالحياة المحيطة به ، وهو من هذه الناحية واقعي بحت – ينقلب تفكيرا ذاتيا

حين يتصل الأمر بعلاقة الإنسان بالكون وخالق الكون ، ويبدع لذلك في النواحي النفسية والنواحي الروحية آثارا قد يقف العلم بوسائله حائرا أمامها لا يستطيع أن يثبتها ولا أن ينفها ، وهو لذلك لا يعتبرها حقائق علمية ثم هي تظل على ذلك قوام سعادة الإنسان في الحياة؟ ومقومة لسلوكه فيها . فما الحياة ؟ وما صلة الإنسان بهذا الكون ؟ وما حرصه على الحياة ؟ وما هي العقائد المشتركة التي تبعث في الجماعات القوة المعنوية التي تضمحل بضعف هذه العقائد المشتركة ؟ وما الوجود ؟ وما وحدة الوجود ؟ وما مكان الإنسان من الوجود ووحدته ؟ هذه المسائل خضعت للمنطق التجريدي ووجدت منه أدبا مترامي الأطراف لكنك تجد حلها في حياة محمد وتعاليمه أو تبليغ الناس سعادتهم من هذا المنطق التجريدي الذي أفني فيه المسلمون قرونا منذ العهد العباسي ، وأفني فيه الغربيون ثلاثة قرون منذ القرن السادس عشر إلي القرن التاسع عشر الميلادي مما انتهي بالغرب إلي العلم الحديث على نحو ما انتهي بالمسلمين فيما مضي ، ثم وقف العلم في الماضي كما أنه مهدد اليوم بالوقوف دون إسعاد الإنسانية ، ولا سيبل إلي درك هذه السعادة إلا العود إلي حسن إدراك هذه الصلة الذاتية بالوجود وخالق الوجود في وحدته التي لا تتغير سنتها ولا يعتبر للزمان أو المكان فيها إلا وجود نسبي لحياتنا القصيرة ، وحياة محمد هي لا ريب خير مثل لدراسة هذه الصلة الذاتية دراسة علمية لمن أراد ، ودراسة عملية لمن تؤهله مواهبه أن يجادل هذا الاتصال في مراتب أوليه لبعد ما بينه وبين الصلة الإلهية التي أفاء الله على رسوله ، وأكبر ظني أن هاتين الدراستين خليفتان ، بوح يتاح لهما التوفيق ، أن تنفد عالمنا الحاضر من وثنية تورط فيها على اختلاف عقائده الدينية أو العلمية ، وثنية جعلت المال وحده معبودا ، سخرت كل ماض الوجود من علم وفن وخلق ومواهب لعبادته والتسبيح بحمده.

وقد يكون هذا التوفيق ما يزال بعيدا لكن طلائع القضاء علي هذه الوثنية التي تتحكم في عالمنا الحاضر ، وتوجه الحضارة الحاكمة فيه ، تبدو واضحة لكل من تتبع سيرة العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر ، وتقوي دلالتها إذا انجلت أمام العلم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة

محمد النبي عليه الصلاة والسلام

وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التي انتشرت في العالم أثرا من آثاره . وإذا أتاحت الدراسة العلمية والدراسة الذاتية لقوي الإنسانية الكمينة مزيدا من اتصال بني الإنسان بحقيقة الكون العليا ، كان ذلك الحجر الأول في أساس الحضارة الحديثة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾

إبراهيم ، الآيتان 40، 41

صدق الله العظيم

تم بعون الله

أحمد عزوز أحمد الفرخ

الإسكندرية